خوليان ريبيرا

التربية الإسلامية في الأندلس

أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية

ترجمة
دكتور الطاهر أحمد مكى

أستاذ الأدب
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الطبعة الثانية
١٩٩٤



دار المعارف

الطبعة الأولى : ١٩٨١
الطبعة الثانية : ١٩٩٤

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

كلمة المترجم

يضم هذا الكتاب ثلاث دراسات جادة ، قام بها مستشرق إسبانى عظيم ، وراء جهده نظرية أصيلة دعا إليها ، وعمل على تعميقها ، ودافع عنها حياته ، ويمكن أن نطلق عليها : **قومية الحضارة الأندلسية بالنسبة للإسبان .**

أما المستشرق فهو **خوليان ريبيرا إى تراجو** , Julian Riberay Tarrago عضو مجمعى اللغة والتاريخ الإسبانيين ، وأما الدراسات الثلاث فهى :

- التعليم بين المسلمين الإسبان La ensenanza entre los musulmanes espanoles :

وهى محاضرة افتتح بها الباحث العام الجامعى فى جامعة سرقسطة عام ١٨٩٣ – ١٨٩٤ ، وطبعت فى العام نفسه فى المدينة نفسها . وفى عام ١٩٢٥ طبعها ثانية مجمع قرطبة للعلوم والآداب والفنون الجميلة ، بعد أن ضم إليها الدراسة التالية عن المكتبات فى إسبانيا ، ونشرت للمرة الثالثة فى كتاب « نبذ ومقالات Disertaciones Y Opusculos» وهى مجموعة من دراسات المؤلف ، طبعت تكريما له عند إحالته إلى التقاعد ، مدريد عام ١٩٢٨ .

- المكتبات وعشاق الكتب فى إسبانيا الإسلامية

: Bibliofilos y Bibliotecas en Espana musulmana

وألقاها فى كلية الطب والعلوم فى جامعة سرقسطة ، ونشرت فى صحيفة La Derecha التى تصدر فى المدينة نفسها ، ثم نشرت فى مدينة سرقسطة للمرة الثانية عام ١٨٩٦ ، وفى سنة ١٩٢٥ نشرها مجمع قرطبة مع الدراسة السابقة ثم نشرت للمرة الرابعة فى كتاب « نبذ ومقالات » .

- أصل المدرسة النظامية فى بغداد Origen del Colegio Nidami de Bagdad :

وهى دراسة أسهم بها فى الكتاب التذكارى الذى صدر تكريما للمستشرق الإسبانى فرانسيسكو كوديرة بمناسبة تقاعده ، وصدر فى سرقسطة عام ١٩٠٤ .

جاء ريبيرا إلى الحياة ذات يوم من عام ١٨٥٨ ، فى قرية كركاخنت Carcagente ، من مقاطعة بلنسية ، وفيها تأصلت الحضارة الإسلامية بعمق ، وخلفت وراءها معالم لا تزال قائمة ، رغم الزمن والأحداث ، وروح العداء من كثيرين ، وكان لهذا كله صدى قوى فى حياته ، فاختار أن يتخصص فى دراسة اللغة العربية ، وأن يوقف حياته على تاريخ الأندلس فى شتى جوانبه ، وأن يعرف قومه بأمجاده ومفاخره ، وشق طريقة وسط صعاب بالغة ، لا يقدر على مواجهتها إلا أولو العزم من الرجال .

كان يرى ، وبحق ، أن حظ الإسبان النصارى المعاصرين من الزهو بحضارة الأندلس لا يقل عن حظ العرب المسلمين ، أو الذين استعربوا أيام دولة الإسلام ، لأن واقع الدولة لم يتغير جوهريا ، فجمهرة الناس قديما وحديثا تنتمى إلى الأصول نفسها ، وكل ما هنالك أنهم الآن يتحدثون الإسبانية ، ويدينون بالمسيحية ، وكانوا قديما يتخذون الإسلام دينا ، ويلهجون بالعربية لسانا ، وهو سبب ليس كافيا ، فيما يرى ، لكى يدير الإسبان المعاصرون ظهورهم لهذه الحضارة المجيدة .

ولقد كتب آلاف الصفحات عن هذه الحضارة العظيمة ، وترجم إلى الإسبانية عددا هاما من المصادر العربية الوسيطة ، واكتشف العديد من الوثائق والمخطوطات وعرف بها ، ودعم أسس مدرسة الاستشراق الإسبانية المعاصرة ، وخلف وراءه طلابا مجيدين ، أسهموا على نحو طيب فى هذا العمل الجليل الخلاق ، وحين فارق الحياة فى عام ١٩٣٤م أسلم الراية إليهم ، فواصلوا السير على خطاه ، ولا تزال مدرسة الاستشراق الإسبانية على الرغم من جهلنا بأهلها ، وقلة وقوفنا على أبحاثها ، من أجل مدارس الاستشراق فى العالم ، حيدة وموضوعية وتقاليد طيبة ، ولا علينا من القلة التى تنحرف بها الأهواء فتسقط فى الطريق .

لم تكن إسبانيا حين كان ريبيرا يحاضر ويناضل عن الأندلس ، ويكتب ويعرف بأمجاده ، كما هى عليه الآن ، تقدما وتحررا وازدهارا ، وإنما كانت تعيش اللحظة التى بين غروب الشمس وشروق الفجر ، ظلاما وحيرة وتخبطا ، ومع الظلام يفرخ التعصب ، وتزدهر النرجسية ، ويتقوقع الفكر ، وحسبك به عظيما أنه ارتفع فوق كل هذه المعوقات .

وإلى جانب هذا كانت الكنيسة الكاثوليكية عظيمة السلطان - ولا تزال - مظلمة التفكير ، شديدة التعصب ، تراقب كل شيء ، وتدس أنفها فى كل نشاط ، وعلى من

يختارون غير طريقها أن يظلوا حيث هم ، أما الذين يسيرون وراءها ، وينفذون خططها ، فلهم ما يتوقعون من جاه ومال وتقدير .

وقد ترك ذلك كله صدى فى دراسات ريبيرا ، فبعض الأشياء أجملها ، وأخرى تحاشى أن يسميها ، ولكنه فى كل الأحوال كان صادقا ومنصفا ومخلصا ، وقد جعل هذا مهمة المترجم صعبة بعض الشيء ، فقد يدور حول القضية ، وعليك أن تلتقط ما يريد أن يقول ، وقد يأتى بالأسماء موجزة للغاية ، أو يكتفى بإحالتنا إلى المصادر التى اعتمد عليها ، لأنها لا تعنى الذين استمعوا كثيرا ، أو يقرأون له ، وكان يكتب لعامة المثقفين من مواطنيه ، وقد تدفع بهم كثرتها إلى التشتت ، وتنسيهم الحقيقة التى يطمع أن يطلعهم عليها . ولقد عاد إليها فيما بعد ، فيما يبدو لى ، وألحق بها هوامش توضح شيئا ، أو تشير إلى المصادر ، وحرص فى كل تعبيراته على أن يستخدم لفظ إسبانيا بدل الأندلس ، وهو أمر مقصود منه ، ولذلك أبقيت عليه ، وكل ما هناك أننى ألحقت به وصف « الإسلامية » حين تركه الكاتب ، إذ بدا لى أن أهماله قد يدفع إلى اللبس والاشتباه .

وكان منهجى فى الترجمة نفس ما تعودت أن أسير عليه فى تراجم سبقت ، من الحفاظ على فكر الكاتب وروحه ، ومن ألفاظه وتعابيره ما اتسعت لها اللغة العربية ، وعدم إقحام نفسى بينه وبين القارئ معلقا أو موجها ، إلا عند الضرورة القصوى ، ولكن بعض الهوامش التى جاء بها رأيت من المفيد أن أضمها إلى المتن ، وبعض القضايا التى أوجزها وأحالنا على مصدرها أتيت بنصها كاملا ، وفى كل الحالات ما تجاوز نص المؤلف وضعته بين خاصرتين ، وبداهة أكملت الأسماء الناقصة ، وأضفت إلى المصادر القديمة طبعاتها الحديثة ، كلما كان ذلك ممكنا .

وقد ألحق ريبيرا بالدراسة الأولى عددا من الوثائق وأضفت إليها ثلاثة نصوص صغيرة للقاضى أبى بكر بن العربى ، أولها من كتابه « أحكام القرآن » عن التعليم فى المشرق ، والثانى من كتابه « العواصم من القواصم » عن التعليم فى الأندلس ، والثالث من الكتاب نفسه ، وهو عن رأيه فى طريقة التعليم المثلى .

وهذه الدراسات الثلاث تدور حول التربية والثقافة فى الأندلس ، والدراسة الخاصة بالمدرسة النظامية قام بها المؤلف لارتباطها بالأندلس ، لأن هذه المدرسة العالية ، أو الكلية الجامعة بلغتنا المعاصرة كانت المثال الذى احتذته إسبانيا فيما بعد ، إسلامية أو بعد أن

وقع جانب منها ، أو كلها ، فى قبضة النصارى ، وتركت بصماتها واضحة فى كل الجامعات الأوربية الوسيطة ، فقد أقيمت على منوالها ، وجاءت تقليدا لها .

وبعد :

فمجال البحث والترجمة فيما يتصل بالأندلس لا يزال حقلا بكرا ينتظر حامل الفأس ، ولعلى بهذا العمل مضيت بالأمر خطوة ، وبها تبدأ أية مسيرة مهما كانت طويلة ، كما يقول الصينيون .

ومن الله العون ، وبه التوفيق .

دكتور الطاهر احمد مكى

٣ شارع مصدق – الدقى

الجيزة – مصر

ت : ٣٦١٣٣٠٦

٣٤٧٩٣٩٢

التعليم بين الإسبان المسلمين

● مدخل :

إن مجرد قراءة عنوان الموضوع فحسب يومىء إلى الأهمية القصوى التى يتضمنها ، والفوائد الجمة التى ينطوى عليها ، وأنه أكثر من مجرد دراسة تنضح بالفضول العلمى ، وتكشف عن الروح التى أظهرها جنسنا فى دراسة العلوم والفنون ، عبر حضارة شديدة الاختلاف عن الحضارة المسيحية . أليس من المفيد أن نعرف كيف ، ولماذا ، بلغوا هذا القدر الرفيع من حضارة متوهجة ، على حين أن النهضة العلمية والأدبية فى أوربا ذلك العصر ، كانت – بالكاد – تضىء بشعاع هزيل ؟ . اليس من الأهمية التاريخية بمكان أن نحدد ما إذا كان ذلك غريبًا عنا ، ودون أن يؤثر فينا ، أنه على النقيض ، كان المثل الحى الذى يمكن أن نقدمه ليكون دافعًا لنا ، وليثير فى أعماقنا نفس الطموح ، ونفس حب المعرفة وليحملنا أيضًا على احتذاء شىء من تقاليد هذه المدرسة ، ومناهجها ، وبعض كتبها ؟

ولو أن أيا من هذه القضايا لم يحل ، فإن واحدة منها فحسب تكفى لتبرير إصرارى ، حتى ولو لم تعد أن تكون نقطة جذابة فى مواجهة نظامنا الحالى ، وتبدو ملامحه واضحة جلية ، متوهجة الألوان ، لا تخفى على أشد الأنظار سطحية ، ولا عن الملاحظة الأقل اعتناء . ففى عصرنا كل شىء منظم ، وتابع للدولة ، إلى جانب نموذج يستخدم قاعدة لكل المؤسسات التى لها نفس النظام ، وتقوم بنفس الدراسات ، وتلتقى فيه المزايا والنقائص . أما قديمًا فتنوع واسع ، وفوضى ظاهرة كالتى نلحظها فى كل المجالات الطبيعية التى لم تستطع الصناعة الإنسانية أن تحملها على التجمع والاعتدال . ولكن لاشىء غير عادى : المياه تتدفق فى مجاريها الطبيعية ، فتصدع الأرض ، وتحطمها بأوهن شىء منها ، والخضرة لاتنبت إلا حيث الهواء والضوء ، وتربة تثريها ، ويحدث كما هو الحال فى كل مكان ، أن الجماهير تتزاحم عند السفح ، حيث الأرض رطبة لينة ، بينما قلة تلوذ وحدها بالقمم العالية ، ليس لديها من الماء إلا قطرات من المطر توافيهم به السماء من حين لآخر ، ولكنهم على النقيض يتمتعون بجو صاف نقى ، ويستطيعون أن يستمتعوا بالنظرة العميقة إلى الآفاق الممتدة العريضة .

ومن هذا التنوع نفسه تنبثق إحدى الصعوبات الكبرى التى كان علي أن أواجهها فى بحثى . فلو كان ثمة إطارات تربوية منظمة ، تجمل وتجسم ألوان التعليم المختلفة ، لاتخذنا منها مثلا ، ولأصبح العمل أكثر سهولة نسبيا ، فندرس ملامح هذه المؤسسات ونحتفظ بها فى ذواكرنا ، ولكن .. لا شىء من هذا ! . كان من الضرورى أن نمضى ، على الأقل ، من أستاذ لأستاذ ، ومن قرية إلى قرية ، ومن مدينة إلى أخرى ، ومن عصر لآخر ، وأن نمعن النظر فى كل شىء ، ثم نعمم ونحدد التقاليد التربوية من خلال التفاصيل فى أغلب الأحوال .

وبلغت هذه الصعوبة غايتها حين افتقدنا أى دليل يهدينا إلى الطريق الذى يجب أن نسلكه ، فلا العرب[١] ، ولا المستشرقون الأوربيون ، درسوا هذه المادة قاصدين ، وفى جملتها . وعلى النقيض ، كان على أن أنتصر على عدد غير قليل من المزاعم الباطلة التى ترسبت فى أعماقى بتأثير آراء بعض هؤلاء المستشرقين ، وأحكام انتهوا إليها تناقض الحقيقة ، وكان على أن أنساها لتتجه عنايتى إلى الوثائق التى وصلتنا عن تلك العصور فحسب . ولأنهم جميعًا يسبقوننى فضلا ، ويفضلوننى ثقة ، فما أنتهى إليه من نتائج ليس كافيا وحده لمواجهة ما انتهوا إليه ، إذا لم يحمل معه البراهين المتصلة بها ، ولهذا وجدتنى فى حاجة إلى أن أضفى على دراستى لونا من التفصيل والتحليل ، ولكم تمنيت أن أدع هذا لأعفى سامعى من الملل ، ولكن ، بما أنكم تعودتم على جفاف البحث العلمى فستغفرون لى هذا دون أدنى صعوبة .

وأطمأنكم على أية حال ، لقد فعلت كل ما فى ذرعى لكى لا أحمل المادة شيئًا من الترهات التقنية ، أو الاستطرادات المملة ، ونقلت بعضًا إلى الهوامش ، واستبعدت فى كثير من الأحوال بعض الأشياء الصغيرة ، التى ربما ينظر إليها بعض المتخصصين بعينى

---

(١) كان ابن خلدون الوحيد الذى عرض لموضوع التعليم فى إسبانيا فى فصول من « مقدمة تاريخه » ، وحصلت على نسخة منها فى اللحظة التى انتهيت فيها من بحثى تقريبا . وعلى أية حال فقد جاءتنى فى وقتها ، واستطعت فى ضوئها أن أصحح بعض الأشياء ، وأن أتأكد من أشيا أخرى .

● ملاحظة المؤلف تصدق فى وقتها على مشرق الإسلام ومغربه ، أما اليوم فهى تصدق على الأندلس فحسب ، أما التربية فى المشرق ، أو بعامة ، فقد خصها علماء أجلاء بدراسة شاملة ، أو وقفوها على مرحلة أو منطقة بعينها ، وأشير بخاصة إلى كتاب العالم الجليل الدكتور أحمد عزت عبد الكريم عن تاريخ التعليم فى مصر الحديثة ، وجاء فى ثلاثة أجزاء .

(المترجم)

الإعجاب والرضا ، وسوف يلحظون غيابها على التأكيد ، ولكنها لا تهم عامة الناس ، ومن أجلهم رغبت فى أن يكون بحثى ميدانًا مفتوحًا للجميع .

ومهما يكن فإن هذا العمل لابد أن يشوبه النقص ، لا لقلة الكتب والمخطوطات العربية التى تيسرت لى فحسب ، وإنما – إلى جانب ذلك – لسوء التخطيط ، ورداءة العرض ، ولست أقول هذا تواضعًا أعتذر به عن قلة مهارتى ، وضعف براعتى ، لأننى حتى لو كونت فكرة دقيقة عن إمكاناتى وذكائى فسأظل أفكر على هذا النحو لسبب بسيط جدًا ، هو أننى أرى من المستحيل أن أقوم على نحو مرض بمهنتين على أن أؤديهما فى الوقت نفسه : دور العامل ودور المهندس . لم يكن فى وسعى أن أرسم الخطة سلفًا ، لأن هذا ، فيما أرى ، يتوقف على طبيعة المادة ، وكان على أن أبحث عنها ، وأن ألتقطها ، دون أن أعرف أيها أكثر مناسبة للبناء القادم ، وهو معقد التخطيط ، وكان يحدث لى أحيانًا ألا أهتم ببعض المعلومات ، ثم أجد فيما بعد أنها ضرورية ، وتجىء فى موضعها دقيقة ومناسبة كالخاتم من الإصبع ، وأحس فقط بأننى استهنت بها حين تكون فرصة علاج هذا الإهمال قد فاتت . وأخرى كان على أن أعانى من الأسف حين أرانى مضطرًا إلى طرحها ، حيث لا فائدة منها ، وهى التى كلفتنى أحيانًا جهدًا أكبر ، ومتابعة أشد ، ويحدث حين أستمتع بالتفاصيل أن أفقد الفكرة العامة ، وعندما أنظر إلى الموضوع إجمالا أن أحتقر تفصيلات مفيدة ، كلفنى الحصول عليها جهدًا كبيرًا .

ومع ذلك لم أفقد الأمل ، على الأقل فى جدة الموضوع وفائدته ، وأنه جدير منكم بأن تستمعوا إليه راضين .

ولدراسة الموضوع المعروض عليكم فى شىء من النظام سوف أسير فيه على المنهج التالى : موقف الدولة من التعليم ، ومناهجه ، ومادته ، والأساتذة ، والطلاب والدروس ، والدرجات ، والمكتبات ، ثم أنهيته ببعض الملاحظات عن المرأة المسلمة فى وطننا .

- **موقف الدولة :**

تعودنا ، كما كان عليه الحال منذ القدم فى الدول الأوربية التى تعاورت طلائع الحضارة ، أن عبء إنشاء المؤسسات التعليمية ، ورعايتها والعناية بها ، والإنفاق عليها ، يقع على عاتق الحكومات ، وليس من الغريب إذن أن يثير الغبطة والاطمئنان والرضى فى أعماقنا

أيُّ شعب ، فى أى عصر ، ومن أى جنس ، يتميز بين الشعوب الأخرى ، ويبلغ درجة عالية من التوهج العلمى والأدبى ، وأنه حققها بوسائل تشبه ما عليه مؤسساتنا المعاصرة . ومع ذلك ، فالتاريخ يكذب ذلك بطريقة قاطعة وحاسمة ، فلا اليونان ، ولا الرومان ، احتاجوا إلى هذه الوسائل ، لكى يصبحوا أساتذة العالم .

يجب أن أعزو عبارات المستشرقين التى لا تنهض على أساس ، رغم ثقتنا فيهم أمثال : البارون فون شاك[1] وديجا[2] ، وأرتين باشا[3] و ودوزى[4] وغيرهم ، إلى مثل ذلك الأمل ، وساعد عليه فى هذه الحالة بعض الأحداث الصعبة التفسير ، والمشكوك فيها ، وتجىء منعزلة عبر الأخبار الجافة التى تقدمها لنا مدونات ذلك العصر ، والتى يمكن أن نفهم منها أن البلاد الإسلامية عرفت فى القرن الثالث ، أو الرابع ، الهجرى مدارس تنفق عليها الدولة ، أو هيئات جامعية منظمة على النحو الذى كانت عليه الجامعات قديما أو فى عصرنا الحديث .

وقد دفعنا التقدير الذى تستحقه آراء هؤلاء المستشرقين الأجلاء إلى أن نبدأ بدراسة الوقائع التى أمكنها أن تلهمهم مثل هذه الأفكار . وإلى جانب ذلك ، من الأوفق لنا أن نقرر منذ اللحظة الأولى أن السياسة الرئيسية التى كانت سائدة فى ذلك العصر فى كل شىء ، ومن بينها المادة التى ندرسها ، أن الدولة ليس لها أى تدخل مباشر فى التعليم ، والأحداث التاريخية التى من هذا القبيل يمكن البرهنة على سلبيتها أحيانًا ، إذا أمكن أن نستدل على وجودها ، أو وقوعها ، فى مكان ما ، وعلى أنها فى الوقت نفسه لا يمكن

---

(١) فى كتابه : « شعر العرب وفنهم فى إسبانيا وصقلية » ، ترجمة خوان باليرا ، جـ١ ص ٦٧ الطبعة الثالثة .
● هذا ، وقد ترجمت الكتاب إلى اللغة العربية ، وصدر منه فعلا الجزء الخاص بالفن ، عن دار المعارف ، بعنوان « الفن العربى فى إسبانيا وصقلية » القاهرة ١٩٨٠ . والطبعة الثانية ١٩٨٥ ، كما صدر الجزء الأول بعنوان الشعر العربى فى إسبانيا وصقلية ، عن دار المعارف ١٩٩١ ، والجزء الثانى والأخير سوف يصدر قريبا .

(٢) فى مقدمته لكتاب نفح الطيب للمقرى ، فى طبعته الأوربية ، ص ٤٥ . حيث يؤكد ، دون أساس ، بأنه كانت هناك أكاديمية رسمية فى قرطبة ، وفيها كانت تدرس الفلسفة .

(٣) التعليم فى مصر ، باللغة الفرنسية ، باريس ١٨٨٩ ، ص ٣١ ، واعتمد على رأى المستشرق الفرنسى **Houdas**

(٤) لابد من استثناء هذا المؤرخ العظيم ، والذى أجله كاستاذ شهير ، وقد استخدم تعبير جامعة قرطبة Universidad de cordoba عندما تحدث عن الدراسات فى هذه المدينة فى كتابه « تاريخ مسلمى إسبانيا » جـ٣ ص ١١٠ ، ولعله لم يرد أن يقول إنه كانت هناك مؤسسة جامعية ، وهو على الأقل ما يفهم من كلمة جامعة فى معناها البدائى جدًا ، لأنه يعرف أكيدا أن ابن سعيد يقول إن الإسبان المسلمين لم تكن لديهم كليات جامعية تنفق عليها الدولة . ومع ذلك فإن كلماته ترجمت حرفيا ، حتى من أدباء القاهرة أنفسهم ، وهو ما لفت إنتباهنا .

أن تحدث فى مكان آخر . ولكن ، ماذا نقول لنرفض التأكيد بأن **هشاما الأول** أنشأ المدارس ، وهى الفكرة التى دافع عنها **كوندى** Conde ، ورددها كثيرون نقلوا عنه . أو أن الأمويين أنشأوا « المجامع » التى تدرس العلوم والفنون على ما أشار إليه **ديجا** Diga ؟ . إن الجواب الوحيد الذى يمكن أن أرد به أننا لم نر أثرا أو ملمحا لما يقولون فى أى مصدر تاريخى جدير بالثقة . وعلى النقيض ، فإن كل أساتذة العصور الأولى بلغوا ما وصلوا إليه دون أن يكونوا مسجلين فى أية مؤسسة تربوية وتعليمهم كان خاصا كله ، ويتم بالتفاهم بين الأستاذ والطالب ، فى استقلال مطلق ، وبعيدًا عن السلطة العامة تماما .

نعم ، فى الحقيقة مال هشام الأول منذ بدء إمارته تقريبًا ، وصنع خلفاؤه من بعده بعامة الشىء نفسه ، إلى رجال العلم ، الذين تفقهوا فى المذهب المالكى ، واعتنقوا مذهب إمام أهل المدينة ، واختار من بين كبار الفقهاء وأتقاهم ، ومن نالوا احتراما مرموقا بين عامة الناس ، ليتولوا المناصب الدينية ، ومنصب القضاء من بينها بخاصة ، وبهذا المعنى يمكن القول إنه شجع على دراسة مبادىء المذهب المالكى والكتب التى ألفت فيه . ولكن هل لهذا أية صلة بإنشاء المدارس ، والمجامع ، أو أى شىء شبيه بها ؟ . إذا كان الأمويون منذ بدء دولتهم إلى أن تولى الحكم الثانى الخلافة قد صنعوا شيئًا يتصل بهذا الأمر، فهو لا يزيد عن الحرص على حرية التعليم فى مواجهة النظرة الضيقة والأنانية التى اتسم بها فقهاء المذهب المالكى فى إسبانيا الإسلامية ، والذين حاولوا احتكار التعليم ، وصنعوا ما فى طاقتهم لكى يحولوا دون قيام أية دراسة تختلف عن مذهبهم . وبخاصة فى مادتى الفقه والتوحيد .

وقد حقق **الحكم الثانى** بعض الأعمال فى هذا المجال ، ولو أنها موضع شك فيما يتصل بطبيعتها ، ففى أيام والده **عبد الرحمن الناصر** ، وكان وليا للعهد ثم تولى الخلافة بعده ، وفد على البلاط علماء من المشرق وبعضهم كان يتمتع بشهرة علمية عالية ، وذكر حسن مستطير ، فكان يستقبلهم ، ويدفع لهم فى سخاء رواتب عالية ، وأخذ هؤلاء العلماء ، بإشارة منه ، يلقون دروسا ومحاضرات عامة فى مسجد الزهراء الجامع ، وفى أمكنة أخرى من قرطبة ، وتعود خاصة الناس فى المدينة أن يحضروا هذه الدروس . ولكن إذا تأملنا هذا الأمر فإنه لا يكفى وحده لكى نفهم منه أن الخليفة اهتم كرئيس للدولة بتعليم رعاياه .

نحن نعرف أن ابن **عبد الرحمن الناصر** أظهر منذ كان شابا رغبة مكينة فى التعلم ، وحبًا جارفًا للعلم ، ولم تكن أمور الحكم تشغله عنه أو تصرف اهتمامه به ، لأن سفينة

الدولة كانت تشق طريقها على ما يرام ، يوجهها والده الربان الخبير الماهر ، وقد امتدت به الحياة طويلا مما أتاح لابنه أن ينفق الجانب الأكبر من حياته فى مناهج الدرس ، وأن يكون على حريته ، محاطا بكتبه ، وحيدًا بين أبهاء مكتبته الضخمة ، الغنية بروائع المؤلفات . ومع ذلك ، كان ينقصه ما هو جوهرى ، وما يستطيع أن يحصل عليه أقل رعيته ثراء بأرخص التكاليف ، فهؤلاء الذين يفيض داخلهم بالدوافع النبيلة من حب الدرس ، والرغبة فى العلم ، يجدون الطريق أمامهم مفتوحًا إلى المشرق ، مهد المعرفة وشاع أمر هذه الرحلات وذاع فى عصر يسوده السلام والازدهار ، وهناك يستطيعون أن يختلفوا إلى مدارسه ، وأن يحضروا دروس أشهر أساتذته ، وأن يترددوا على حلقاتهم ، وأن يحصلوا على الكتب ينسخونها من مؤلفيهما إملاء ، على حين أن الحكم الثانى بوصفه أميرًا ، وينتسب فى أسرة ملكية على خلاف تام مع الأسرة الحاكمة فى المشرق ، لا يستطيع أن يفارق قصره ، حتى ولا ضائعا بين غمار الطلاب فى مدينته نفسها قرطبة ، ولا أن يتردد بشخصه على المكتبات والمزادات ليشترى خير الكتب التى تعرض هناك . ومع ذلك فإن ثروته تسمح له بأن يستعيض عن هذا النقص بوسيلة أخرى ، فإذا افتقد حرية الذهاب إلى المشرق فإنه يستطيع أن يأتى بعلمائه من هناك إلى قرطبة ، مهما كلفه الأمر ، وإذا لم يكن بوسعه أن ينسخ الكتب لنفسه من مؤلفيها مباشرة فسوف يعهد إلى من يأتيه بالكتب الأصلية نفسها ، التى خطها المؤلفون بأقلامهم ، ويطلب فيها أصحابها عادة أثمانا باهظة .

لم يأت الحكم إذًا بالأساتذة حبا فى أن يتعلم الآخرون ، لأن هؤلاء لديهم ما هو أفضل وأرخص ، وإنما إرضاء لرغبته الشخصية . ولكن ما إن يصل هؤلاء العلماء إلى قرطبة ، ويصبحون فى بلاطة أغلى جوهرة ، حتى يعهد إليهم ، بالمفهوم الذى أشرنا إليه ، بأن يلقوا محاضراتهم فى مسجد الزهراء الجامع ، حيث تتردد عليهم صفوة الخاصة فى المجتمع القرطبى ، واعية تماما مقدار الاحترام الذى استقبلهم به الأمير .

وكان الحكم يجرى عليهم رواتب عالية ، ويقطعهم أراضى واسعة مقابل الاستمتاع ببقائهم إلى جواره ، والاستفادة من دروسهم فى المسجد ، والإشراف على معارضة الكتب التى بسوّدها النساخ فى مكتبته وتصحيحها ، والحوار فى مجلسه حول الأدب والفن ومسائل شتى . وبينهم من يرضى زهوه فيهدى إليه الكتب التى يؤلفها ، وإذا كانوا شعراء أو خطباء أظهروا مواهبهم فى حفلات البلاط الفخيمة ، التى تقام عند

استقبال السفارات الأجنبية ، أو تشريف كبار موظفى للدولة ، فينشدون قصائدهم ، أو يلقون خطبهم ، فى مدح الخليفة ، وذلك على نحو ما كان يصنع مع الموسيقيين والمغنين الذين كانوا يطربونه فى الحفلات ، وفى الاجتماعات العائلية والخاصة .

وفى ضوء هذه النتائج يمكن أن نعرف طبيعة العمل أيضا ، فهذه المحاضرات ، أو الأمالى ، التى يلقيها الأساتذة العلماء فى المساجد ، ويجرى عليهم البلاط من أجلها رواتب عالية ، لا تدوم أكثر من الوقت الذى يحقق رغبة الأمير ، دون أن ينتهى بها الأمر أبدا لتصبح « مجمعا علميا » منظما ودائما ، أو كليات جامعية ، أو مدارس قائمة مستمرة ، تتفق عليها الدولة .

وبعد ذلك كله ، فهذه ليست حالة فريدة فى التاريخ الإسلامى ، فقبل ذلك وبعده ، هنا فى أسبانيا الإسلامية وهناك فى المشرق ، كان مثل ذلك يحدث غالبا بين ملوك الدول صغيرة أو كبيرة ، ولكن .. يجب أن نعترف بأن صنيع الحكم الثانى ترك أبلغ الأثر فى أعماقنا ، بروعة هباته وضخامة أوقافه ، وتعددها من حين لآخر ، وبخاصة لشهرة عمل آخر قام به ، ولون خيالنا بظلال خطرة ، صبغنا بها أيضا بقية الأعمال التى قام بها ، وأعنى به وقفه ضياعه لتدفع منها مرتبات اثنتين وعشرين مدرسة أقامها فى قرطبة ، وهنا يمكن أن نضع يدنا أكيدا على تدخل مباشر من الدولة فى شئون التعليم ، ومن السهل أن نقع فى إغراء مد هذا الاتجاه إلى أعمال أخرى ، لأنه يحدث لنا مع الوقائع ما يحدث مع الأشياء البعيدة التى تحدد الأفق ، فمع هذه تضيع التفاصيل ، ولا نبصر من الأشكال إلا ملامح غائمة غير ثابتة فحسب ، وكذلك ننسى فى تلك الأعمال الأسباب الجوهرية لأنها ذات طبيعة شخصية وعابرة ، وتأخذ الأعمال الثانوية قيمة أكثر فى أعيننا ، بسبب التأثيرات الدائمة التى تحدثها فى أعماقنا .

فلنحاول أن ندرس الظروف التى أحاطت بهذه الواقعة[1] : لقد تولى الحكم الثانى الخلافة وله من العمر ثمانية وأربعون عاما ، وهى أكثر من كافية لكى تكون لديه خطط

---

(١) استطعت ، لحسن الحظ ، أن أفيد من فقرة مفصلة فى كتاب تاريخ يتضمن أخبارا وافية ، لمؤرخ عاصر هذه الأحداث ، وأعنى بها مخطوطة كتاب ابن حيان ، وقد حصل عليها أستاذنا الجليل السنيور فرانسيسكو كوديرة من قريب ، فى رحلته إلى شمال أفريقية ، وقام بها لحساب أكاديمية التاريخ فى مدريد ، وتوجد فى محفوظاتها ، وهذا الجزء جديد تماما ، وتعرفه أوربا للمرة الأولى . انظر : مهمة تاريخية فى الجزائر وتونس ، ص ٨٥ ، مدريد ١٨٩٢ .

تربوية ناضجة لو أراد ، يمكن أن ينفذها يوما فى حياته ، ومع ذلك بدأ حكمه دون أن يبدى اهتماما بتلك الغايات ، ومرت أربعة عشر عاما وهو على هذا الحال . وأخيرا ، فى النهاية ، وهو فى الثانية والستين من عمره ، وقد ذبلت زهرة حياته ، وبهت حبه للأدب ، أحس ذات يوم بألم خطير يهاجمه ، شخصه الأطباء بأنه داء السكتة ، وكوابيس مخيفة ، وأطياف مزعجة من الأحلام ترعبه ، تحزنه وتوهن من عزيمته ، وحبس نفسه فى داره ، ولم يعد أحد يراه غير أسرته ، ولم يكن يسمح حتى لموظفى البلاط بالدخول إلى حضرته ، وعرف الناس أن شيئا خطيرا أصاب الخليفة ، وبدأت الدعوات بأن يرد الله له صحته ويهبه عاجل الشفاء ، ومرت أربعين يوما على هذا النحو .

يمكن أن ندرك بسهولة التأثير المعنوى الذى أحدثه المرض فى روح الأمير من الموقف التالى[1] :

« وفى يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول (٣٦٤هـ) منها ، طاف على الخليفة الحكم طائف ألم منعه من الظهور لأهل مملكته ، وأشفقت الرعية لما عراه وارتمضت ، وأعلنت الأدعية إلى الله تعالى فى تعجيل فرجه ، واحتجب أمير المؤمنين عن جميع أهل مملكته ، متدعا فى علته ، من يوم الأحد المؤرخ إلى أن تخفف من وصبه ، وغازلته عافيته ، وظهر لخاصته أول ظهوره ، وذلك يوم الجمعة لليلة بقيت من ربيع الآخر بعده ، فأوصل إلى نفسه الوزير الكاتب صاحب المدينة بقرطبة جعفر بن عثمان ، فكان أول من وصل إليه من وزرائه ورجال مملكته ، اختصه على نظرائه ، وقدمه على

(١) لم يكن هذا النص قد نشر فى حياة المؤلف ، ومخطوطاته وحيدة ، عسيرة القراءة ، وكثيرة الأخطاء ، واعتذر فى الهامش عن إيجازه بما يلى : « لكى يأخذ القارئ فكرة عن النصوص التى أوحت إلىّ بهذا التفسير التقطت بعض الأخبار التى وردت فى تاريخ المقتبس لابن حيان ، ولم أجرؤ على نشر النص العربى لأن إيراده يقتضى أن أورد جميع الأحداث التى أشار إليها هناك ، وتشير إلى بعض أحداث الدولة ، واستقبالات تجرى فى القصر ، وحتى سقوط الثلج وفيضان النهر ، وغيرها مما يحدث فى قرطبة .

والمخطوطة ، وليست بالغة الصحة فضلا عن كونها وحيدة ، من الصعب تصحيحها ومعارضتها فى جو العجلة الذى أحاط بهذه الدراسة ، ومع ذلك كان لمجمع التاريخ فضل أنه تركنى أستخدم المخطوطة على حريتى فى بيتى أو فى مكتبة الجامعة .

وبعد ذلك أورد المؤلف فقرات طويلة مقتبسة من « المقتبس » ، ولما كان الدكتور عبد الرحمن على حجى قد نشر المخطوطة وبذل فيها جهدا ، فقد رأيت بدل أن أترجم ما التقطه فى فصل الكتاب ، وأن آتى على النص المقتبس فى الهامش ، أن أنقل النص كله فى الأصل ، مستغنيا به عن هذا وذاك ، وقد أسقطت الشعر والتفاصيل المتصلة بالأسماء فحسب ، انظر المقتبس ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن حجى ، ص ٢١١ وما بعدها .

قرنائه تشريفا له ، وإظهارا لخصوصيته به ، ومحله القريب لديه ، وتوصل إليه فى هذا اليوم بعينه أكابر الفتيان الخلفاء الصقالبة ، فعم الاستبشار ، وشملت المسار ، واختلصت الأدعية ، وقضيت النذور ، وجال المبشرون على أفناء الناس يبشرونهم باستبلال خليفتهم ، ويستخلصون له أدعيتهم ، فتلاقوا أفواجا يتهانون بينهم نعمة الله عليهم بعافية إمامهم ، ويضرعون له فى تكميلها له ، وفسحة إمتاعهم به ، وإكمال المنة عليه وعليهم فيه ، وقالت الشعراء فى ذكر هذا الطائف به ، وانجلائه عنه ، فأكثرت ...

« وفى أعقاب ربيع الآخر أنفذ الخليفة إعتاق جمع كثير من عبيد له ، وإماء تنيف عدتهم على مائة رقبة . وانعقد لكثير منهم عتق بات ، ولبعضهم عتق مؤجل ، ولبعضهم تدبير ، خلص به جميعهم من الرق ، وعقدت الوثائق المحكمة العقد لجميعهم ، فكان أول من أوقع شهادته فيها الأمير أبو الوليد هشام المرشح لولاية عهده بخط يده ، وتلاه أعمامه الأخوة ، ثم الوزراء على مراتبهم ، ثم قاضى الجماعة محمد بن إسحاق ، ووليه الحكام والفقهاء أهل الشورى ، ثم العدول .

« وفى صدر جمادى الأولى تلوه **أنفذ الخليفة تحبيس حوانيت السراجين بسوق قرطبة على المعلمين الذى كان قد اتخذهم لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين بقرطبة** ، وأشهد القاضى محمد بن إسحاق فى هذا التحبيس يوم الجمعة ، لسبع خلون منه ، فعظمت به المنفعة ، وجلت المنقبة ، وورث الله به القرآن أمة لم يكن آباؤهم يعرضونهم لوراثته .

« فلما كان يوم السبت لثمان خلون منه ، أنفذ الخليفة عزمه فى اسقاط سدس جميع مغرم الحشد الآزف حلول أدائه ، على جميع الرعايا بكور الأندلس ، وعهد أن يكون هذا السدس المسقط مكشوفا لجميع الرعايا ، شائعا فى الناس ، يستوى فى معرفته العالم منهم والجاهل ، فيسبق إلى كل من وجب عليه مغرم معرفة السدس الساقط منه قبل أن يأتى القابض ، ترفيها لهم واهتبالا بمصالحهم ، وأنفذ بذلك إلى الأقطار كتابا ... »[1] .

من الواضح أن إنشاء هذه المدارس ، فى مثل هذه الظروف ، لا يعود إلى عمل ملكى ، وإنما مصدره توبة شخصية ، ربما دفعه الفقهاء إليها . ولهذا وقف بها عند

(١) نص الكتاب ، وهو قطعة من الأدب الإدارى الرفيع تجده كاملا فى : ابن حيان ، المقتبس ، الجزء الذى حققه الدكتور عبد الرحمن حجى ، ١٩٦٥ ، ص ٢٠٧ و٢٠٨ .

التعليم الديني ، ولم يكن المادة الوحيدة التي تدرس في التعليم الابتدائي في إسبانيا الإسلامية ، ولا تمتد إلى غير الفقراء البائسين ، ولا تتجاوز مدينة قرطبة إلى غيرها ، وكانت موضع الرعاية الشخصية الدائمة من الأمراء ، لأن إقامتهم فيها .

ولقد صنع الحكم هذا كما صنعه مسلمون أتقياء آخرون كثيرون ، قبله ومن بعده ، في أوج حياتهم أو هم على عتبة الآخرة ، وهو أمر كان يحدث كثيرا[1] .

وقد حاول المنصور بن أبي عامر أن يقلد الخلفاء تقليدا أعمى تقريبا ، فيما يتصل بروعة البلاط وأبهته ، وحاول أن يجذب إليه العلماء المشارقة ، وأن يسخو عليهم في العطاء ، وأن يعيدوا في مقره الملكي من قصر الزاهرة ما كانوا يفعلون في قصر الزهراء[2] ، ولكنني لم أجد أي خبر عنه يومئ إلى أنه أنشأ مدارس دينية للأطفال ، على الرغم من حرصه الشديد في أن يستفيد من أهمية الفقهاء ، وأن يكسب عن طريقهم شعبية واسعة بين عامة الناس ، وأخيرا لم يكن في حاجة لأن يتوب امرؤ برهن على تدينه ، بأن أحرق بيديه الكتب الممنوعة التي خلفها الحكم في مكتبته ، حتى ولو كانت قائمة ذنوبه غير قصيرة .

هكذا كان حال التعليم خلال الأعوام التي صحبت سقوط الدولة الأموية في الأندلس ، ثم مرت أيام دول الطوائف ، والمرابطين ، والموحدين من بعدهم ، دون أن تتدخل الدولة مباشرة في شئون التعليم ، ويقول ابن سعيد عنهم : « العالم عندهم معظّم من الخاصة والعامة ، يشار إليه ويحال عليه ، وينبه قدره وذكره عند الناس ، ومع ذلك فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرءون جميع العلوم في المساجد بأجرة ، فهم يقرءون لأن يعلموا ، لا لأن يأخذوا جاريا »[3] .

---

(١) حتى الشعوب الصغيرة كان لديها مدارس تنفق عليها من الصدقات والهبات التي يوقفها الأفراد . انظر المعاهدات التي عقدها خايمة (جاقمة في المصادر العربية القديمة) مع مسلمي اسليدة Eslida وأوشو Uxo، وربض شاطبة وغيرها ، في كتاب : خانير ، الظروف الاجتماعية للموريسكيين في إسبانيا ، ص ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٩ . وفرنانديث جونثالث : الحالة الاجتماعية والسياسية للمدجنين ، وأيضا نص المعاهدة الخاصة بتسليم غرناطة ، في الكتاب الأول ص ٢٢٧ ، وفي كتاب الثاني ص ٤٢٦ .

(٢) لمزيد من المعلومات عن مدينتي الزهراء والزاهرة يمكن الرجوع إلى كتاب : الفن العربي في إسبانيا وصقلية ، تأليف فون شاك ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي ، ص ٤١ - ٤٨ ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥ .

(٣) عن المقري ، جـ ١ ص ١٣٦ ، طبعة ليدن ١٨٥٥ - ١٨٦٠ .

ومع ذلك لا أقول إن الذى حدث هنا فى زمن بنى أمية ، أو فى زمن العباسيين فى المشرق لم يكن سابقة علينا أن نأخذها فى الحسبان ، حين نفسر التطور الذى لوحظ فيما بعد فى البلاد الإسلامية ، لأن الآخرين كان عليهم أن يقلدوهم فيما هو ثانوى ، وهو تعليم رعاياهم . ولكن يجب أن أصرح بأن الحاجة إليه ، فيما يبدو ، لم تكن ملحة فى إسبانيا ، ولم يشعر الناس بحاجتهم إلى أن تسهل لهم الدولة وسائل التعليم ، لأن المسلمين فقدوا الجانب الأكبر من المدن والممالك التى كانت فى حوزتهم فى إسبانيا ، قبل أن يدركهم الانحطاط الثقافى ، أما فى المشرق فقد بدأوا يشعرون بذلك سريعا ، لأن التعليم شاخ ، والحمية الأولى خمدت ، **وهناك ، فى المشرق الإسلامى ولد الطراز الجديد فى نظم التعليم ، وهو الذى قلدته بقية الممالك الإسلامية فيما بعد ، واتخذته أوربا ، فيما أرى ، مثلا لها تحتذيه ، وأقامت جامعاتها على منواله فى العصور الوسطى .**

ويقال إن **نظام الملك** ، الوزير الذائع الصيت للسلطان التركى **ألب أرسلان** ، أنشأ **فى بغداد** ، **بإيعاز من أبى سعيد الصوفى** أول وأشهر جامعة فيما بعد ، على امتداد العالم الإسلامى كله ، عام ٤٥٧هـ - ١٠٦٥م ، وحملت اسمه فعرفت باسم « المدرسة النظامية »[1] ، ولم يكن ينقصها شيء عند تأسيسها : كان لها بناؤها الخاص بها ، وأملاك عريضة واسعة فى الريف وفى المدينة ، ينفق من ريعها على الأساتذة والطلاب ، ويشرف عليها رئيس ، وحظيت المدرسة بالقبول والإقبال ، ولم تمض أعوام على إنشائها حتى شهدت نيسابور ، والبصرة ، ومرو ، ودمشق ، وحلب ، والقدس ، والقاهرة ، والإسكندرية ، قيام مؤسسات جديدة فى داخلها شبيهة بالمدرسة النظامية ، وأعجب بها أوائل النصارى الأوربيون الذى اشتركوا فى الحروب الصليبية .

وفى أوربا كان النورمانديون الذين استولوا على صقلية من المسلمين ، أول من أنشأ مؤسسة تعليمية فى أوربا فى مستوى الجامعات ، وأعنى بها مدرسة الطب فى سالرنو ، وكانت فى تقاليدها ، وكتبها ، وأساتذتها ، عربية فى الجانب الأكبر منها . وكان الأمراء النورمانديون أنفسهم شرقيين خلصا فى حياتهم ، وليس لهم من المسيحية إلا التعميد ، لأن حفلات بلاطهم ، وطريقة حكمهم ، وكتابات نقودهم ، ونقوش صدورهم ، وحتى

---

(١) انظر : ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » ، وأبو بكر الطرطوشى فى كتابه « سراج الملوك » ، وانظر دراستى عن « أصل المدرسة النظامية فى بغداد » وكتبته بعد هذا البحث ، ونشر فى نفس كتاب « نبذ ومقالات » .
● وقد ترجمت هذا البحث أيضا ، وهو يشغل الفصل الثالث من هذا الكتاب . (المترجم)

حريمهم ، كان يحمل الطابع الشرقى[1] ، وكانوا يحبون العلوم والفنون ، ويسعدهم أن يحيطوا أنفسهم بعلماء وشعراء من المسلمين .

ولم يكد هذا اللون من التعليم يضع أقدامه فى إيطاليا حتى سرت عدواه سريعا ، فقد أنشأ فيدريك بربروخا أول جامعة أوربية فى بولونيا ، وهو أمير من أسرة هوهنشتوفن Hohenstaufen النبيلة ، وخلف كونرادو الثانى Conrado II على العرش ، وحضر الحرب الصليبية الثانية حين كانت جامعات الشرق الإسلامى فى قمة توهجها .

وفى قابل الأيام ، بعد مئتى عام على إنشاء المدرسة النظامية فى بغداد ، ظهر هذا النظام فى باريس ، وأكسفورد ، وكمبردج ، وغيرها وسارت إسبانيا على النهج نفسه فأنشأت جامعات بالنثيا ، وسلمنقة ، وانتشر أيضا هذا الإتجاه الجديد فى التعليم ، وتميز بتدخل الدولة مشجعة ومنظمة[2] .

وفى إسبانيا المسيحية نلتقى بإحدى المتناقضات الفريدة التى تعرض فى التاريخ ، فقد تم إنشاء الكلية الإسلامية الأولى ، التى تنفق عليها الدولة ، بتأثير من الجانب الأوربى ، وليس استعارة من المشرق ولا تقليدا لمعاهده ، والأغرب من ذلك أيضا أنها تعود إلى أمير

---

(١) الإدريسى ، وصف أفريقية وإسبانيا ، طبعة دوزى ودى خويه ، المقدمة ص ١ .

(٢) تفسير نشأة الجامعات فى أوربا لم يثره فى نفسى أن هذه تلت الجامعات المشرقية فى الزمن فحسب ، أو الصلات التى أدت إليها الحروب الصليبية ، وإنما أيضا دراسة بعض الظواهر التى تصبح لغزا إذا لم نقبل هذا التفسير ، ومنها :

- السرعة التى تم بها إنشاء هذه الجامعات ، وانتشارها فى غير تدرج ، ودون أن يجىء نظام الدراسة فيها وليد تطور متمهل .
- التناقض الذى نلحظه للوهلة الأولى بين الإعفاءات والامتيازات واللوائح ، والطابع العالمى ، والديمقراطية التى تحكمها فى العادات والنظم نفسها ، وبخاصة فى بولونيا أقدمها ، وكلها تومئ إلى أنها مزيج من اتجاهين متناقضين لحضارتين مختلفتين فى جسم واحد .
- عادة منح الشهادات دون سابقة فى العصور الوسطى المسيحية ، لا فى روما ولا عند اليونان ، فى الوقت الذى كان فيه الأساتذة المسلمون يمنحون هذه الإجازات منذ ثلاثة أو أربعة قرون خلت ، بنفس الشكل وفى نفس الطريقة التى كان أساتذة الجامعات الأوربية يمنحونها فيها ، فيما بعد ، وأصبحت فى أوربا امتيازا محتكرا لما يزل قائما . وفضلا عن ذلك ، فعند اليونان وروما وبين العرب ، وهى الشعوب الوحيدة فى العصور القديمة التى يمكن أن نعرف عندها مراحل تطور الدراسات جيدا على نحو دقيق ، نجد الدولة تنشىء الكليات وتنظمها فى عصور الانحطاط الكبرى ، وليست ثمرة تقليد ، أو مهنة لخدمة الدولة بطريقة مباشرة كما فى التجنيد .

ومهما يكن فهذه الملاحظات رغم أنها ليست بذات ثقل ، لا تزال تلح علىّ ، وتقف حائلا دون أخذى بنظرية « التوالد التلقائى » التى تبدو فى أوجهها ، رغم عدم صحتها كليا ، انظر مثلا :

Gabriel Conmavré : Abelard and the Origin early history of Universities , London . 1893 Pa g. 26

حيث يقول : « لقد نشأت الجامعات من حركة عفوية للعقل الإنسانى » . وهى جملة جميلة لمن يفهمها ..

مسيحى ، ابن قديس ، وهو **الفونسو العاشر** ، الملقب بالعالم ، فهو الذى أمر بإنشاء أول كلية إسلامية فى إسبانيا ، فى مدينة **مرسية** ، وقد أمسك ذلك العاهل العاشق لكل ألوان المعرفة من أى شعب جاءت بعالم مسلم ، يدعى **أبو بكر** الرقوطى ، كان أعجوبة فى علمه الواسع الغزير العميق ، فهو يحيط بكل أنواع المعرفة على أيامه ، ولا يقتصر على العلوم العربية فحسب ، وإنما تجاوزها إلى العلوم التى تعرف بالقديمة ، من الحساب ، والهندسة ، والطب ، والموسيقا ، والمنطق ، وبقية فروع الفلسفة . والأعجب من ذلك أنه كان أستاذا قادرا على تعليم الطلاب من مختلف أديان شبه الجزيرة وجهاتها ، كل واحد منهم بلغته ، وقد أقام له ذلك الأمير الطيب القلب مبنى يدرس فيه مختلف فروع المعرفة الإنسانية التى يجيدها ، لطلاب من المسلمين والنصارى واليهود ، وكان **الفونسو العالم** يعامله باحترام رفيع . ويحاول اجتذابه بالمرتبات والعطايا والامتيازات ، ويراوده الأمل فى أن يعتنق المسيحية يوما ، وانتهز فرصة مواتية فقال له : لو تنصرت ، وحصلت الكمال، كان لك عندى كذا ، وكنت كذا . فأجابه بما أقنعه ، ولما خرج من عنده قال لأصحابه : أنا عمرى كله أعبد إلها واحدا ، وقد عجزت عما يجب له ، فكيف حالى لو كنت أعبد ثلاثة كما طلب الملك منى »[(1)] . ولابد أن ضجيج الشهرة حمل إلى غرناطة خبر هذا الأمير المسيحى الذى أنشأ مدرسة يتولى التدريس فيها عالم مسلم ، لتلاميذ من الأديان الثلاثة ، ومن ثم دعا أمير غرناطة ، [السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف ، الملقب بالفقيه لعلمه وتقواه ، وحكم من ١٢٧٢ - ١٣٠٢م] العالم الرقوطى إلى عاصمة مملكته ، حتى يعلم الناس فيها من أبناء دينه ، ومع تكرار الإصرار ، والإلحاح

---

(١) ورد اسم هذا الأستاذ الشهير فى الطبعة الأوربية من نفح الطيب ، جـ٢ ص٥١٠ : **القرموطى** ، ولكن فى مخطوطة الإحاطة التى تملكها أكاديمية التاريخ فى مدريد ، جـ٢ ، الورقة ١٥٣ ، يسميه : **الرقوطى** ، وأرجح أنها القراءة الصحيحة ، وقد كرر هذا الاسم فى ترجمته للفيلسوف المرسى الشهير ابن سبعين ، الورقة ١٣٩ من الجزء نفسه .

● الحق فى جانب ريبيرا فيما يتصل بضبط الاسم ، وقد وقع إحسان عباس فى طبعته لنفح الطيب فى الخطأ نفسه ، فذكر أنه القرموطى المرسى ، محمد بن أحمد بن أبى بكر ، جـ٤ ص١٣٠ ، وهو أمر تداركه الأستاذ محمد عبد الله عنان فى تحقيقه لكتاب الإحاطة ، فذكر أنه : محمد بن أحمد الرقوطى المرسى ، ويكنى أبا بكر ، وفى مكان آخر أبا عبد الله ، وأورد له ترجمة قصيرة فى حدود الصفحة ، والقصة المذكورة فى النص أعلاه ، وأوردها المؤلف فى الهامش ، منقولة عن نفح الطيب ، وهذا نقلها بدوره عن الإحاطة دون أن يشير إليها ، ولم يورد صاحب النفح شيئا آخر يزيدنا علما بهذا العالم العبقرى الفذ ، وخارج نطاق الترجمة الموجزة التى أوردها ابن الخطيب له فى الاحاطة جـ٣ ص٦٧ ، واشارتين عابرتين فى الجزء نفسه ص١٦٠ و٢٥٧ ، لم يرد له أى ذكر آخر . ورقوطى نسبة إلى رقوطة Ricate , وهى بلدة أندلسية صغيرة ، تقع شمال غرب مرسية ، على مقربة من نهر شقورة .

فى الدعوة ، استجاب له ، وقرر أخيرا أن يتخلى عن خدمة **ألفونسو العاشر** ، وأن يذهب إلى غرناطة .

وقد تتلمذ عليه **محمد الثانى** هذا ، وكانى ثانى الأمراء فى الأسرة النصرية التى حكمت مملكة غرناطة ، وأسكنه بيتا جميلا تطوقه حديقة واسعة ، فى أجمل مكان من غرناطة [ويركب إلى باب السلطان ، عظيم التودة ، معار البغلة ، رايق البزة ، رفيق المشى] ، وكان منزله معروفا للجميع ، يغشاه الطلاب ، ويتعلمون على صاحبه ، « وكان قوى العارضة ، مضطلعا بالجدل ، وكان السلطان يجمع بينه وبين منتابي حضرته ، ممن يقدم منتحلا صناعة أو علما ، فيظهر عليهم ، لتمكنه ودالته » .

وبقيت المدرسة ما عاش الأستاذ ، وكانت الحالة الأولى ، وربما المدرسة العامة الوحيدة التى تدرس فيها علوم الأوائل عند المسلمين الإسبان ، وقد شاب إنشاءها أخطاء جوهرية منها : أنها تقليد واضح قوى للمدرسة المسيحية فى مرسية ، وأنها أنشئت من أجل شخص واحد ، وأنها كانت تدرس علوم الفلسفة ، ولم يكن المجتمع الإسلامى التقليدى ينظر إليها بعين الرضا أبدا ، وهكذا فإن وفاة الأستاذ أدت إلى إغلاق المدرسة ، وبقى تدريس الفلسفة ممنوعا ، وكذلك بقية العلوم الأخرى المتصلة بها ، وبإغلاقها لفظ اتجاه الدولة إلى التدخل المباشر فى شئون التعليم آخر أنفاسه ولما يزل نبتة طرية .

وخلال ذلك كانت رياح المشرق التى حملت إلى أوربا نظام الجامعات تحمل إلى أفريقية البذور نفسها ، ذلك أن رحالة الغرب الإسلامى الذين زاروا هذه المؤسسات فى مصر وسورية والعراق وغيرها عادوا مأخوذين بروعتها ، ووفرة دخولها ، وعدد ومستوى أساتذتها ، وكثرة الطلاب ، وهم يشجعون بالمنح للإقبال على الدراسة ، وكان ذلك مجالا لحسرتهم أيضا ، لأنهم فى مقاطعات الغرب لا يقلدون ما يصنع رجال الدولة فى المشرق(١) .

---

(١) انظر رحلة ابن جبير، وهو رحالة بلنسى شهير، طبعة رايت، ليدن١٨٢٥، الصفحات:٣٨و٤٩و٢٧٤ و٢٨٠و٢٦٨،حيث يثنى على أولئك السلاطين الذين يخصون المساجد والمعاهد بجانب من ثرواتهم، وينشئون المدارس وينفقون عليها. ففى الاسكندرية يقدمون للطلاب الغرباء المسكن والأستاذ، وفى حالات الضرورة يدفعون لهم أجر الحمام، والخدمات الطبية. وفى جامع دمشق يوزعون الكثير يوميا على الأشخاص الذين يذهبون إليه ليحفظوا القرآن، ويمكن أن نتصور أى وقت كانوا يخصونه به ليحفظوه سريعا . وكان طلاب الغرب الإسلامى الذين يذهبون ليدرسوا هناك يمثلون، مع أساتذتهم ، جماعة مستقلة ، وتجرى عليهم الأرزاق أساتذة وطلابا .

والشيء نفسه كان يحدث فى المدرسة النظامية فى بغداد .

وقد أنهى ابن جبير ، الذى ننقل عنه ، كلامه قائلا : « يرحم الله أول من أنشأها ، وكل من سار على خطاه من بعده ، وأحيا هذه السنة الطيبة » .

ولقد خرج رحالتنا الممتاز مدهوشا من جامعة دمشق بخاصة ، والتى أسسها نور الدين .

وقد عين **يعقوب** بن عبد الحق المرينى ، أبو يوسف ، إسبانيًا من كورة المرية واليا على مدينة **فاس** ، يدعى **مفضلا** ، وقد حذا هذا **الوالى حذو المشرق فى إقامة الجامعات** ، **فأنشأ جامعة القرويين التليدة** والشهيرة ، وأشهر جامعة فى الغرب الإسلامى على الإطلاق ، ولا تزال حتى يومنا تحتفظ بشهرتها وذيوع ذكرها ، وتفوق طلابها علميا فيما يدرسون[1] ، وفيما بعد قلد العديد من مدن الإمبراطورية المغربية جامعة القرويين فى فاس ، واتخذت منها نموذجا وقدوة[2] .

ولابد أن القوى الإفريقية ، وكانت تمارس لونا من الحماية فى مملكة غرناطة ، جاءت معها بهذا التأثير فى أيام الوزير الذائع الشهرة **الحاجب رضوان** الذى أسس الجامعة النصرية ، وأوقف عليها أراضى مثمرة ، تكفى غلتها لكى تدفع منها مرتبات الأساتذة والمدير ، وزود المبنى بكل وسائل الراحة التى يحتاج إليها[3] ، وفيها يدرسون القراءات والفقه وعلم الكلام والنحو والطب وغيرها ، وعرفت حياة مزدهرة إذا أخذنا فى الاعتبار شهادة لسان الدين بن الخطيب[4] .

وقد احتفظ المسلمون الذين تخلفوا فى الجانب المسيحى من شبه الجزيرة الإسبانية بالتقاليد القديمة ، غير أنها كانت فى مرحلة انحطاط بالغة ، وبخاصة فى أرغون حيث

---

(١) انظر : ابن القاضى ، جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس ، ص٢٢٠ ، طبعة فاس الحجرية . وهذه الجامعة ليست إسبانية لأن مؤسسها إسبانى مسلم فحسب ، ولا تزال حتى اليوم تتمتع بشهرة عريضة فى كل شمال أفريقيا ، وإنما أيضا بتقاليدها الجامعية ، التى حملها إلى هناك علماؤنا ، وبالكتب التى كانت تدرس فيها ، وحتى اليوم ، ويكفى أن تتصفح كتاب ج . دلفين : فاس ، جامعتها ، والتعليم الإسلامى العالى ، فسوف تجد كثيرا من الأخبار عن الطلاب المسلمين الذين درسوا فيها .

(٢) الإحاطة ، جـ٣ ، الورقة ١٥٢ ، وما بعدها ، من مخطوطة الإسكوريال .

(٣) الإحاطة ، جـ١ ، الورقة ١٥٧ ، مخطوطة الإسكوريال (جـ١ ص٥١٦ ، الطبعة الأولى ، تحقيق محمد عبد الله عنان) .

(٤) يشك دوزى فى كتابه « ملحق للمعاجم العربية » ، مادة مدرسة ، أن هذه الكلمة تعنى فى إسبانيا الإسلامية جامعة أو كلية ، لأن بدرو القلعة يقول عنها فى معجمه أنها تعنى : « مكتبة أصول » . ومن غير شك يجب أن تفهم على أنها مدرسة فى الفقرة التى أوردها ابن الخطيب ، وأشرنا إليها من قبل ، وذكرها المقرى نقلا عنه ، لأن الإحاطة جـ٣ ، الورقة ٥٢ ، مخطوطة الإسكوريال ، يقول عند الحديث عن أستاذ بالجامعة الغرناطية :
«وقعد بالمدرسة بغرناطة يقرى الأصول والفرائض والطب » .
وتوجد إشارات أخرى ، فى أمكنة أخرى ، من المصدر نفسه ، وفضلا عن ذلك . فقبل إنشاء هذه المدرسة بكثير ، كان هذا اللفظ يستخدم فى إسبانيا الإسلامية بمفهوم مدرسة ، وليس مكتبة . أنظر : ابن بشكوال ، الصلة ، ص٤٨٠ ، [illegible] كوديرة ، فى ترجمته لعالم توفى قبل عام ٤٠٠ هجرية .

ظلوا يتمتعون بأكبر قدر من الحرية فيما يبدو ، أو لأن الظروف أعانتهم على تكوين نواة أقوى تضامنا ، وأشد اندماجا ، فواصلوا دراسة العلوم العربية من طب وفلسفة . وهم بعينهم المدجنون الذين أنتجوا الأدب العجمى « الخميادا aljamiada» فيما بعد ، أدب مثير ولكنه ذو أهمية محدودة ، واستطاعوا أن يتابعوا المستحدثات التى أدخلت أخيرا فى غرناطة ، وكانوا على صلة وثيقة بها ، فأنشأوا لهم جامعة فى الحى العربى من مدينة سرقسطة[١] .

باختصار انقضت كل فترة الحكم العربى فى إسبانيا دون أن يبدو أن السلطات العامة تدخلت مباشرة فى نظام التعليم ، وكل ما هناك أنهم فى أواخر أيامهم ، عندما انحصرت الدولة الإسلامية فى مملكة غرناطة المحدودة ، رأوا علاجا ، جاء فاشلا ، فى عمل **ألفونسو العالم** ، ويجب أن يكون بطبيعته مرحليا وسريع الزوال . وفيما بعد عندما أخذت الدراسات « الأكاديمية » المجيدة فى إسبانيا تغرق ، أشرق تقليد متأخر على الطريقة المشرقية ، وصلنا عن طريق جامعات شمال أفريقيا .

وفضلا عن ذلك يجب القول أن هذا التجديد الذى أخذ طريقه إلى البلاد الإسلامية ، واحتفظ حتى اليوم بكل خصائصه القديمة ، لم يمس جوهريا نظام الحرية القديم ، والذى واصل طريقه فى الوقت نفسه ، ولم تصنع الدولة معه أكثر من إنشاء مراكز دائمة تسهل وسائل تعليم الشعب ، وليس مؤسسات ممتازة تتطلب تغذيتها الغلء التعليم الخاص ضرورة ، وواصل الأساتذة منح الإجازات طبقا للعادات القديمة ، دون أن تأخذ مطلقا شكلا رسميا ، على النحو الذى سيصبح عليه الحال فى الجامعات الأوربية فيما بعد ، عندما أنشىء نظام يحتكر هذا العمل ، ويوقفه على غايات تربوية فحسب ، وفيه وحده انحصر التعليم الجامعى .

---

(١) بما أن شاهدى وحيد على وجود جامعة المدجنين هذه فى سرقسطة ، فقد رأيت من المفيد أن ألحقة ببحثى مصورا ، إنه خاتمة كتاب ، ويحمل تاريخ ومكان نسخه فى هذه المؤسسة . ونشرت بعده أيضا صورة رسالة من طالب سرقسطى موجهة إلى أستاذه فى بالجيط ، يخبره فيها بحالته فى دراسة الطب وغير ذلك . وكلتا الوثيقتين تنتميان إلى مجموعة المخطوطات العربية الثمينة التى يملكها صديقى العزيز العالم فى فن المعمار بابلو خيل ، عميد كلية الآداب والفلسفة فى جامعة سرقسطة ، وتملكها اليوم « جماعة نشر الدراسات والبحوث العلمية » .

الفقهاء والتربية

● **رسالة الفقهاء التربوية :**

لا يمثل الفقهاء فى المجتمع الإسلامى طبقة منعزلة عن بقية المسلمين ، تتمثل فى كهنوت ودرجات ، ويستطيع أى مسلم أن يقوم بأى من الوظائف الدينية . وبعد أن يؤديها يبقى كأى واحد من الرعية . ومع ذلك ، فإن الرجال الذين تميزوا بعلمهم ، وأولئك الذين أضفت عليهم فضائلهم مهابة بين الناس ، كانت تجمع بينهم غايات مشتركة ، وانتهى بهم المطاف إلى تكوين تنظيم إذا لم يكن طبقة مغلقة ، ثابتة ومحددة بدقة ، فهم جماعة قوية ، تحاول السلطة السياسية فى الدول الإسلامية تقريبًا أن تلتقى معهم ، وأن تستخدمهم ، لا لأن الدولة تجرى على سنن دينى فحسب ، وأن وزراءها يرتبطون به لأسباب دينية وفكرية خالصة ، وإنما أيضًا لأن الفقهاء يمثلون فى الواقع السلطة التشريعية ، والمسلمون يتخذون من القرآن والسنة هاديا وفيصلا فى الجانب العملى من حياتهم ، خلقيا ودينيا وسياسيًا ، ولكن القرآن يحتاج إلى تفسير ، ومن ثم كانت السنة طريقا وضمانا للوصول إلى حقيقة ما يهدف إليه ، وهذه الجماعةمن الفقهاء ، المتعمقون فى علوم الشريعة وحملتها ، هم الذين ألهموا الشعب خبرته وعاداته ، ويدافعون عن فتاواهم فى المحاكم ، ولنصيحتهم تأثير فى أوامر الملوك ، ومن هنا كان دورهم الذى حققوه خطيرًا ، وانتهى بهم الحال إلى أن أصبحوا سلطة حقيقية داخل الدولة .

وهذا الاعتبار وحده يجعلنا نفهم أهميتهم ، المترامية الأطراف أيضًا ، والتى مارسوها على التعليم .

يمكن أن نميز من الرواية التالية الفارق بين الدور الذى اضطلع به الفقهاء ، والدور الذى اضطلعت به الدولة فى التربية ، فى إسبانيا الإسلامية :

يروى ابن القوطية ، فى كتابه « تاريخ افتتاح الأندلس »[1] أن **الصميل** ، وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ويوجه الأمير **يوسف الفهرى** على هواه ، ومن ثم كان الملك الحقيقى

(١) حلل خوليان ريبيرا كاتب هذه الدراسة كتاب ابن القوطية تحليلا رائعا ، ووازن بينه وبين كتاب أخبار مجموعة لمؤلف مجهول ، وقد نشرنا ترجمة هذه الدراسة فى كتابنا : دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ، ص ٣٥ – ٥٧ ، ط ٣ دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٧ . (المترجم) .

في إسبانيا ، « خطر ذات يوم بمؤدب يؤدب الصبيان ، وهو يقرأ : ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾[1] فقال الصميل : نداولها بين العرب . فقال المؤدب : بين الناس ، فقال الصميل : أو هكذا نزلت الآية ؟ . قال له : نعم ، هكذا نزلت . قال الصميل : والله أني أرى هذا الأمر سيشركنا فيه العبيد والسفال والأراذل »[2] .

وهذه الرواية بوسعها أن تقدم لنا صورة يمكن أن توضح مسافة الخلف التي كانت قائمة بين السلطتين السياسية والدينية في إسبانيا الإسلامية : الأولى هدفها أن تحافظ على سلطاتها أولا ، رغبة أو رهبة ، بالذهب أو السيف ، على حين أن الرجال الأتقياء من ذوى الحماسة القوية ، والغيرة الدينية الملتهبة ، استغلا سوء الظن المتأصل لدى الإسبان في عقائدهم ، فمضوا يبشرون بالدين الإسلامي بين عامة الإسبان على أوسع نطاق ، وانتشروا عبر أنحاء شبه الجزيرة يحفظونهم القرآن ، كتاب المسلمين الموحى ، على حين لم يكن أمويو الأندلس يحكمون إلا في العاصمة ، لأن العالم كله أدار لهم ظهره ، ولم يكن يصل المقاطعات الثائرة بعاهل قرطبة إلا ظل من الطاعة الروحية فحسب[3] .

وإذا كان المذهب المالكي في إسبانيا يدين بالفضل للأسرة الأموية المالكة ، لأنها خصت الفقهاء الذين ينتمون إليه بالمناصب العامة ، فإلى هؤلاء أيضًا يعود الفضل في أنهم فتحوا الطريق أمام الأمويين لكي يجعلوا يومًا من إسبانيا الإسلامية وشمال غرب أفريقيا ، حيث انتشر مذهبهم وبلغ تأثيرهم غايته ، دولة واحدة .

وقد استطاع الفقهاء أن يحملوا إلى جانب العقيدة الدينية والأخلاق الإسلامية ، المبادىء القرآنية ، وهدى الرسول ﷺ في الدعوة إلى التعلم والدرس ، إلى كافة الأقطار التي بلغها الإسلام وكان ذلك موضع الإجلال منها ، إجلال يبلغ درجة التقديس أحيانًا . وإلى جانب هذا الواقع ، فإن الشعوب التي ظلت تحتفظ بتقاليدها العلمية القديمة ، أقبلت على تجديدها ، وحينئذ أدرك الفقهاء أن الأمور تمضي بأسرع مما يتفق مع مصالحهم

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٤٠ .

(٢) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٤٠ و ٤١ ، طبعة مجمع التاريخ في مدريد . وتأمل ما تنطوى عليه كلمات الوزير من استغراب لما جاء في القرآن الكريم .

(٣) لم يجرأ أحد من الأمويين في الأندلس على استخدام لقب « خليفة » حتى أيام عبد الرحمن الناصر ، وعندما وضع عبد الرحمن الداخل قدمه في شبه الجزيرة أمر بترك الدعوة للخليفة العباسي ، وأن يحل اسمه مكانه ، ولكنه لم يتخذ لقب خليفة ، وإنما كانوا يطلقون عليهم جميعًا لقب أبناء الخلفاء ، أنظر : ابن القوطية ، تاريخ إفتتاح الأندلس ، ص ٩ .

نفسها ، فتراجعوا القهقرى مرعوبين ، وحاولوا إطفاء الحمية التى تملأ وجدان تابعيهم ممن انصرفوا إلى التخصص فى الدراسات العلمية غير الدينية .

● موقف فقهاء المالكية من بقية المذاهب :

وكان الأمر فى إسبانيا الإسلامية أكثر انغلاقًا ، وعدم التسامح أشد تضييقا ، فيما يتصل بالمواد العلمية ، لأن فقهاء المذهب المالكى وقد رأوه يسيطر على الضمائر وحده ، ملأهم العجب بما تحقق من إقبال جل الناس عليه فى شبه الجزيرة ، وحاولوا أن يقفوا دون المذاهب الأخرى حتى لا تنافسه فى هذا المجال ، وتقدم علما مختلفا عما تحويه كتب أمام مذهب أهل المدينة ، وكان صاحب الكلمة الأخيرة لديهم ، فيما يتصل بعلم الكلام والفقه والأخلاق .

وتدليلا على هذا الرأى المسكين ، وحملهم عليه غطرستهم ، يكفى أن نذكر ما حدث لعالم جليل ، ورجل تقى ، وهو : **بقى بن مخلد** .

ذهب هذا العالم إلى المشرق للدراسة ، ولم يتلق العلم من فقهاء يدرسون مذهب عالم المدينة فحسب ، وكان ذلك بدعة شائعة بين طلاب إسبانيا الإسلامية ، وإنما حضر دروس علماء آخرين كثيرين ، من كل المذاهب ، شافعية وحنابلة وغيرهم . وبعد رحلة طالت عاد إلى إسبانيا الإسلامية خزانة ملئت علمًا عريضًا ومتنوعًا ، وملأ الأندلس حديثًا ورواية . [وكان مما انفرد به ولم يدخله سواه . « مصنف » **أبى بكر ابن أبى شيبة** رحمه الله بتمامه ، وكتاب الفقه ، **لمحمد بن إدريس الشافعى** ، الكبير بكماله ، وكتاب **التاريخ لخليفة بن خياط** . وكتابه **فى الطبقات** ، وكتاب **سير عمر بن عبد العزيز** رحمه الله **للدروقى** و« **تفسير القرآن** » ، **ومسند النبى** ﷺ ، ليس لأحد مثله][1] .

وإذا كان من الطبيعى أن يثير مثل هذا الحسد والغيرة فى نفوس بعض الذين تخلفوا هنا فلم يرحلوا إلى المشرق ، لكن ليس ثمة سبب يبرر أن يسىء الجميع استقباله ، وربما كانت خطيئة **بقى** الكبرى التى ارتكبها ، ولا يمكن أن تغتفر له ، أنه احتفظ بلون من الاستقلال فى الرأى ، فلم يكن ينتسب إلى أى مذهب فقهى ، أو جماعة بعينها ، وإنما

---

(١) ما بين علامتى التنصيص زيادة من ترجمة بقى فى الصلة لابن بشكوال ، لإضفاء مزيد من التوضيح على على ما جاء به ، انظر ترجمته فى تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ، الترجمة ٢٨٣ ، من طبعة الدار المصرية ، القاهرة لعام ١٩٦٦ .

يصدر فتاواه طبقا لاجتهاده الشخصى ، معتمدًا على القرآن والسنة مباشرة[1] وهو شىء لم يستطع أتباع مذهب عالم المدينة. وكانوا ينهجون على خطاه فى طاعة عمياء، أن يغفروه لبقى، ولم يستطيعوا أن يهاجموه مباشرة، لأن المذاهب كلها تصدر عن نفس المورد الذى يغترف منه، ويستمد فتاواه، وحتى لايظهروا فى عجلة من أمرهم، متلبسين بفضيحة التسرع ، انتظروا الفرصة المواتية ، وجاءتهم حين بدأ بقى يدرس علنا كتاب **مسند بن أبى شيبة**[2] ، وهو يعرض إلى جانب فتاوى وآراءمذهب عالم المدينة ، الآراء المعارضة له ، لفقهاء آخرين ، من المذاهب الأخرى ، حول أية قضية يناقشها .

واجه بقى بن مخلد معارضة عنيفة من فقهاء المذهب المالكى ، وكان ابن مرتنيل[3] ، وهو ينتسب فى أسرة مسلمة تعود إلى أصول إسبانية ، وأصبح شيخ علماء المذهب فى أيامه ، أشد أصحابه على بقى ، ومعه **أصبغ بن خليل** [4] ، وكان خصمًا لدودًا لكل تجديد ، وأثر عنه قوله « لأن يكون فى تابوتى رأس خنزير أحب إلى من أن يكون فيه مسند ابن أبى شيبة » . وأخيرًا **محمد بن حارث**[5] . « وكان أحد الثلاثة القائمين على بقى بن مخلد ، إلا أنه كان أجلهم فى قصته » ، وقد انطلق قادة الفقهاء كلهم فى شتم بقى وسبه ، والكلام ضده ، وإثارة حقد العامة عليه ، وهؤلاء مستعدون دائما لاحتذاء خطى الفقهاء ، وبلغت المأساة قمتها حين اقترحوا أن يجتمع العلماء فى مؤتمر ، « وتكلموا فى إصدار فتوى بإباحة دمه » .

ورأى بقى مرعوبا وخائفًا أن هذه الموجة المتواصلة تزداد كل يوم حدة ، وتطوقه من كل جانب ، وليس معه من يعتمد عليه إلا تلاميذه ، وهؤلاء رأوا أن يتوقفوا عن درسه حتى لا يصبحوا موضع شبهة ، وقرر هو أن يرحل إلى خارج إسبانيا فرارا بنفسه ،

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ، جـ١ ص٨١٢ ، طبعة أوربا ، (جـ٢ ص٥١٨ وما بعدها ، طبعة إحسان عباس) . وانظر أخباره فى تكملة الصلة لابن الأبار ، الترجمة رقم ١١٠٢ . والضبى ، الترجمة رقم ٥٨٤ ، وابن الفرضى ، الترجمة ٢٨١ . وابن عذارى ، جـ٢ ص١١٢ .

(٢) ابن الفرضى ، الترجمة رقم ٢٤٥ .

(٣) أنظر ترجمته فى : ابن الفرضى ، رقم ٦٣٢ ، ويسميه عبد الله بن محمد بن خالد ، ولكنه استخدم اللقب الذى يعرف به عادة ، وصيغته الإسبانية تومىء إلى احتمال أنه ينحدر من أسرة لاتينية .

(٤) ترجمته فى ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، رقم ٢٤٧ ، طبعة القاهرة . (المترجم)

(٥) انظر ترجمته فى المصدر السابق ، رقم ١١٠٧ . (المترجم) .

وحينئذ بلغ ما كان يحدث الأمير محمدا فاستدعاه ، واستدعى جميع الفقهاء فى محضره ، دافع بقى عن نفسه بحجج قوية ، شقت طريقها إلى قلب الأمير وعقله ، فطلب الكتاب موضع الخلاف ، وتصفحه طويلا ، جزءا جزءا ، حتى أتى آخره . وبينما فقهاء المالكية الحاضرون يتوقعون أن يصدر الأمير أمرا بمنع تدريسه توجه هذا إلى خازن كتبه وقال له : هذا الكتاب لا تستغنى خزانتنا عنه ، فانظر فى نسخه لنا » ، ثم قال لبقى : « انشر علمك ، وارو ما عندك » ونهاهم أن يتعرضوا له[1] .

● ملاحقة الآراء الفلسفية :

إذا كان هذا قد حدث لرجل عريض العلم ، ليس فى عقيدته مطعن ، ولا فى سنيته ظنة ، أكرمه الله ، فكان فيما يروى معاصروه : مجاب الدعوة ، مخصوص الكرامة[2] ، وتوفى ، بعد أن عمر طويلا ، يعبق بأريج الولاية ، وأحله توقير المسلمين له مكانًا عليا بين الأولياء الإسبان . ماذا كانوا يقولون إذن عن ابن مسرة وآخرين درسوا الفلسفة وعلومًا أخرى كانت موضع الزجر من مذاهب أهل السنة كلها ؟ مثل هؤلاء كان عليهم أن يفروا من المدينة ، وأن يتخذوا من رباط فى الجبل مقاما ، يعكفون تقاة طاهرين على دراسة العلوم الممنوعة ، ولا يستطيعون أن يصنعوه وسط زحام المدينة الصاخب ، دون أن يتعرضوا لغضب العامة الجامح ، وقد يودى بحياتهم دون محاكمة .

هذا المثل يكفى لكى نفهم ماذا صنع علماء المذهب المالكى ، وهو المذهب الرسمى للدولة ، بالتعليم فى إسبانيا الإسلامية حين اتخذوا منه مجالا لمحافظتهم ، ولحسن الحظ فإن رياحا أخرى كانت تهب من ناحية البلاط ، ترطب ذلك المناخ الملتهب تعصبا ، وبفضلها تنفس التعليم فى شىء من الحرية ، وأصبح فى ذرع بعض العلماء أن يدرسوا فى الأقل كتبا لاتنتمى إلى مذهب الإمام مالك . ومع ذلك ، فإن جذور المذهب المالكى تعمقت فى إسبانيا ، وسيطر على الحياة الدينية فى جانبيها العملى والقضائى ، وإذا كان هناك من يقرأ أو يدرس كتبا فى مذاهب أخرى ، فإنما يستجيبون لهواية لاتتجاوز حد الدرس ، ومن ثم فشلت كل المحاولات لإدخال أية مذاهب أخرى فى المجال العلمى[3] .

(١) ابن الفرضى ، الترجمة ٢٨١ ، وابن عذارى ، فى البيان المغرب ، ١١٢/٢ ، طبعة دوزى .

(٢) التكملة لابن الأبار ، الترجمة رقم ١١٠٢ ، والمقرى ، نفح الطيب ٨١٢/٢ طبعة أوربا ، والضبى ، ص ٢٣١ طبعة مدريد .

(٣) جذوة الاقتباس ، ص ١٢٢ .

لقد اتفقت مذاهب أهل السنة كلها على الحيلولة دون أية مبادىء مشبوهة أو منحرفة ، والذين يأتون بجديد منها يرونها تعاليم خطرة فيخفونها ، لأن الناس ينزعون ثقتهم من أى واحد يستشفون فى آرائه وافكاره مثل هذا الاتجاه ، حينئذ يهجره الطلاب ، وتعود مدرسته خرابا وإذا اشتمت العامة منه شيئًا ، رغم كل الاحتياطات ، فسوف تلاحقه بالاتهام تلو الاتهام ، إلى أن تتخذ السلطات قرارا بنفيه ، وقد حرم الحكم الثانى نفسه من بعض علماء المشرق الذين استقدمهم ، لأنهم أثاروا حولهم هذه الشبهات[1] .

ومع مجىء المنصور بن أبى عامر اشتدت قبضة الفقهاء ، وكان فى حاجة ماسة إلى التأييد الشعبى لكى يمحو جريمة وثوبه على السلطة ، فألقى بنفسه بين أحضانهم ، وبلغ غاية التطرف حين ألقى ظلالا من الريبة على ذكرى الحكم المستصر الجميلة ، فراجع كتبه ، وأخرج منها ما كان موضع شبهة ، وأحرقه علنا أمام جماعة من العلماء .

وفى هذه الحقبة التى اتسمت بالطغيان المذهبى والعسكرى لم يكن الناس أحرارا ، وأصبح من المعتاد أن يسمع الناس عند باب المسجد الجامع ، وفى أيام الأعياد ، وعند انتهاء الأعمال ، حيث يبلغ الزحام قمته ، من يشهر باسم واحد من أشهر الأدباء فى قرطبة يشك فى زندقته ، ويحثون بين عامة الناس عمن يستطيع أن يشهد ضده ، حتى تستكمل المحاكمة أركانها الضرورية ، ويصبح الحكم شرعيا[2] .

إذا تصورنا مثل هذا الموقف أدركنا أى حذر ، وأية حيطة ، كان العلماء يتحركون خلالها ، حتى لايزل لسانهم ، أو تهفو أفكارهم ، وهم يلقون دروسهم ، مع ذلك نتج عن تحول الضغط الشعبى إلى رسمى فائدة ، وهى أن القائمين على توجيهه كانوا من أرفع الشخصيات ، فلم يدققوا كثيرا فى عملهم ، لأنهم يعلمون أن المنصور نفسه اول مشتبه فيه ، وإذا لم تكذب الألسنة الطويلة ، فقد أحرق كتب الفلسفة سياسة وليس رعبا من العلم ذاته ، وكان يضعف أمامه أحيانًا ، فيخصه ببعض الوقت فى لحظات وحدته[3] ، وما ربحه الاضطهاد فى الصخب المسرحى خسره فى التدقيق .

---

(١) ابن الفرضى ، الترجمة رقم ١٤٠١ .

(٢) أبو بكر الطرطوشى ، سراج الملوك ، ص ١٦٧ طبعة بولاق .

(٣) المقرى ، نفح الطيب ، ج١ ص ١٣٦ طبعة اوربا و ج١ ص ٢٢١ ، طبعة إحسان عباس .

● **عجز الفقهاء عن تقييد الحرية :**

وعندما انتثر عقد الخلافة ، وتكسرت إلى ممالك شتى ، أصبح من السهل إزاحة التعصب الشعبى ، واصبح الملوك أكثر تحررًا فى آرائهم ، وفى سرقسطة وطليطلة مثلا ، وهما من كور الحدود حيث يكثر الاتصال بين المسلمين والمسيحيين فى أيام السلم ، أصبح الناس أكثر تسامحًا وانبساطًا ، بل وانصرف الملوك إلى هذه الدراسات نفسها . ومع ذلك احتفظت الرجعية بكثير من قوتها ، واستطاعت أن تلاحق ابن حزم ، وجعلت منه آراؤه المتحررة هدفًا للهجوم الشديد عليه من فقهاء عصره ، فدافعهم ، وظل ينزح من بلاط إلى بلاط ، ثم استقر به المقام أخيرًا إلى منقطع أثره ، بتربة بلده ، من بادية لبلة ، « يبث علمه فيمن ينتابه بباديته تلك ، من عامة المقتبسين منه ، من أصاغر الطلبة ، الذين لا يخشون فيه الملامة ، يحدثهم ، ويفقههم ، ويدارسهم ، ولا يدع المثابرة على العلم ، والمواظبة على التأليف ، والإكثار من التصنيف » ، والطلاب لا يعرفون ما تنطوى عليه مؤلفاته من خطر ، وقد أحرقت نسخها فى ميادين إشبيلية[1] .

وخلال ذلك كان المذهب المالكى يخسر الأرض شيئًا فشيئًا فى المجال النظرى ، وربما أيضًا بدأ يفقدها فى الحياة العملية ، لو لم يدعمه فى شبه الجزيرة رد فعل دينى جديد . ذلك أن أمراء المرابطين وجدوا فى المالكية أداة صالحة ، فأخذوا يستخدمونها لخدمة أغراضهم ، وأحاطوا أنفسهم بكبار فقهاء المذهب ، دون بقية العلماء من المذاهب الأخرى ، وحكموا طبقًا للفقه المالكى ، وعمموا دراسته واقتصروا عليها ، ووقفوا عندها ، وأهملوا دراسة القرآن والسنة تمامًا ، ولم يعد العلماء يوجهون من عنايتهم وحماستهم إلى هاتين المادتين إلا قليلا ، ويومها كان الناس يعتبرون كافرا ، أو على الأقل جاحدًا ، كل من يميل إلى الجدل فى علم الكلام ، وعدته السلطات العامة زنديقًا ، دون أن تتأمل خطورة الاضطراب الذى أحدثته فى العقيدة ، وهددت بإباحة دم كل من يوجد فى حوزته كتب من هذا القبيل ، وبخاصة كتب الإمام الغزالى[2] .

---

(١) فصلنا القول عن حياة ابن حزم فى كتابنا : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، الطبعة الرابعة دار المعارف ١٩٩٣ ، وانظر كذلك مقدمة تحقيقنا لكتاب ابن حزم : الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ، دار المعارف ، ط ٢ ١٩٩٣ .

(٢) المراكشى ، المعجب ، ص ١٢٣ ، طبعة ليدن . و١٧٣ طبعة سعيد العريان ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩ م .

وقد خلاع المذهب المالكي نفسه فى هذه المرة ، لأن التأثير الذى احدثه جاء على النقيض مما يرغب فيه ، فقد أدى إلى موجة من الاحتجاجات ، من جانب أشد الناس تقوى ، وأكثرهم فطنة وعلما .وأعتقد أن هناك من كان يعارضهم حتى فى تلك الأوقات التى كانوا يسيطرون فيها وحدهم ، كملوك ، على التعليم ، وأن هذه قد انتهى عهدها . وقد فتحت المذاهب الجديدة آفاقا عريضة أمام النابهين ، وأصبحت الآراء أكثر تحررا وإراحة ، ولو أن عامة الناس ظلوا فى مجال التطبيق العملى الخالص يزدادون تمسكا بالمالكية ، وبقيت الرياح العلمية الجديدة بمنأى عن المدارس ، واقتصرت هذه على دراسة العلوم التقليدية فحسب .

- **رد الفعل ضد فقهاء المالكية :**

وجاء **الموحدون** إلى إسبانيا الإسلامية وفى صحبتهم مذهبهم الجديد ، واعتمدوا على الرجال الأتقياء الصالحين ، وأدركوا سريعا أن الفتاوى الشرعية التى تصدر عن فقهاء شبه الجزيرة لا تعتمد على القرآن والسنة مباشرة ، وإنما على مذهب **الإمام مالك** فحسب ، وأن المصدر الإلهى الذى يجب أن تنبثق عنه كل سلطة ملزمة قد تنوسى تماما . وقد أدى هذا إلى فضيحة بدأت بمنع دراسة كتب الفقه المالكى ، وفيما بعد أمروا بإحراق كل ما وجدوه منها[1] .

« فأحرق (أى أبو يوسف يعقوب بن يوسف أمير الموحدين) منها جملة فى سائر البلاد ، كمدونة سحنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبى زيد ومختصره ، وكتاب التهذيب للبراذعى ، وواضحة ابن حبيب ، وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها ، لقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس ، يؤتى منها بالأحمال ، فتوضع ويطلق فيها النار .

« وتقدم إلى الناس فى ترك الاشتغال بعلم الرأى ، والخوض فى شىء منه ، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة ، وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة : الصحيحين ، والترمذى ، والموطأ ، وسنن أبى داود ، وسنن النسائى ، وسنن البزار ، ومسند ابن أبى شيبة ، وسنن الدارقطنى ، وسنن البيهقى فى الصلاة وما يتعلق بها ، على نحو الأحاديث التى جمعها محمد بن تومرت فى الطهارة ، فأجابوه إلى ذلك ، وجمعوا ما أمرهم بجمعه ، فكان يمليه بنفسه على الناس ، ويأخذهم

(١) تكملة الصلة لابن الأبار ، ص ٢٧٨ .

بحفظه ، وانتشر هذا المجموع فى جميع المغرب ، وحفظه الناس من العوام والخاصة ، فكان يجعل لمن حفظه الجعل السنى من الكسا والأموال .

« وكان قصده (ما زال الضمير يعود على أبى يوسف) فى الجملة محو مذهب مالك ، وإزالته من المغرب مرة واحدة ، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث ، وهذا المقصد بعينه كل مقصد أبيه وجده ، إلا أنهما لم يظهراه ، وأظهره يعقوب هذا ، يشهد لذلك عندى ما أخبرنى غير واحد ممن لقى الحافظ أبا بكر بن الجد ، أنه أخبرهم قال : لما دخلت على أمير المؤمنين أبى يعقوب أول دخلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس ، فقال لى : يا أبا بكر ، أنا أنظر فى هذه الآراء المتشعبة التى أحدثت فى دين الله ، أرأيت -يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال ، أو خمسة أقوال ، أو أكثر من هذا ، فأى هذه الأقوال هو الحق ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك ، فقال لى ، وقطع كلامى : يا أبا بكر ليس إلا هذا ، وأشار إلى المصحف ، أو هذا ، وأشار إلى كتاب سنن أبى داود ، وكان يمينه ، أو السيف .

« فظهر فى أيام أبى يعقوب هذا ما خفى فى أيام أبيه وجده ، ونال عنده طلبة العلم ، أعنى علم الحديث ، ما لم ينالوا فى أيام أبيه وجده ، وانتهى أمره معهم إلى أن قال يوما بحضرة كافة الموحدين يسمعهم ، وقد بلغه حسدهم للطلبة على موضعهم منه ، وتقريبه إياهم ، وخلوته بهم دونهم :يا معشر الموحدين ، أنتم قبائل ، فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته ، وهؤلاء ، يعنى الطلبة ، لا قبيل لهم إلا أنا ، فمهما نابهم أمر فأنا ملجؤهم ، وإلى فزعهم ، وإلى ينتسبون ! ، فعظم منذ ذلك اليوم أمرهم ، وبالغ الموحدون فى برهم وإكرامهم[1] .

وبعد أن مرت العاصفة برعمت الشجرة من جديد ، وواصل الأساتذة إلقاء دروسهم ، وأقبل الطلاب على تلقيها ، وما بقى قاض مسلم فى إسبانيا كان عليه أن يصدر أحكامه وفقا للمذهب المالكى ، وآخر موريسكى[2] بقى فى شبه الجزيرة هو آخر إسبانى ظل يطبق هذا المذهب فى حياته الدينية .

---

(١) المراكشى ، المعجب ، ص ٢٠١ طبعة أوربا .

● أوجز المؤلف كثيرا هذه الفقرة ، فجاءت غامضة ، كما أسقط الأسماء ، ووجهة نظر الموحدين مفصلة ، وآثرت أن آتى بها كاملة من النص الذى اعتمد عليه ، انظر : المعجب ، ص ٢٧٨ ، طبعة العريان (المترجم) .

(٢) يطلق لفظ موريسكى Morisco على المسلمين الذين تخلفوا فى إسبانيا بعد سقوط دولة الإسلام فى ٢ يناير ١٤٩٢ ، ثم أكرهوا على اعتناق الكاثوليكية فيما بعد ، وطردوا نهائيا أخيرا ، عام ١٦١٣م .

وجاء الدور على الفلسفة ، أثناء الصراع بين مذهب ومذهب ، فتعرض الفلاسفة للاضطهاد ، وكتبهم للإحراق ، ولكنهم أحيانا ، فى لحظات غير قليلة ، تمتعوا وسط هذه الفتن بفترات من السلام الضرورى لك يلمعوا ، ورغم أنها كانت فترات قصيرة وخاطفة ، إلا أنها كانت ساطعة الضوء ، بالغة التوهج والحيوية والإشراق ، ونفذت إلى أعماق العصور التالية .

من خلال هذه النظرة السريعة يمكن أن نفهم بسهولة أن الفقهاء الإسبان المسلمين صنعوا كل ما يستطيعون لكى لا تكون حرية التعليم كاملة فيما يتصل بالأفكار العلمية ، ولكنهم لم ينشئوا جهازا يكون ساعدهم الأيمن فى تنفيذ غاياتهم ، وأدى ترك التعليم للمبادآت الشخصية إلى إنقاذ الثقافة ، لأن من العبث أن تفرض كتبا مقررة ، تستخدم فى الدراسة ، مع غيبة الجهاز الذى يضطلع بتنفيذ هذه الغاية .

وأخيرا يجب ألا نغفل رغم كل شىء ، الخدمات التى قام بها الفقهاء ، فقد عرفوا منذ البداية كيف يحثون الناس على الدراسة ، وفيما بعد وجهوا عنايتهم الفائقة لإنشاء مدارس كثيرة للفقراء ، وأصحاب العاهات ، ينفق عليها من الصدقات الخاصة ، وكانوا أتقياء دائما ، يحبون إهداء الكتب ، وأشيا أخرى ، للمساجد والمنشآت الخيرية ، والتى كان يفيد منها الطلاب وحدهم .

التعليم الابتدائي

مادته ومناهجه

• تطور مهنة التعليم فى الإسلام :

فى كل العصور ، وبين كل الأمم ، كان سوء الحظ والاحتقار زميلا لا ينفصل لمعلم المدرسة الغلبان ، وفى بعض البلدان مثل روما كانوا يحتقرون هذه المهنة لأن القائمين عليها من الأجانب الفقراء والمعدمين ، أو من العبيد ، وفى بلاد أخرى كان حظها من الاحتقار حظ كل المهن المأجورة ، ولم تحظ بلون من التقدير إلا فى الفترات التى أصبح فيها التعليم دينيا ، وشاع بين الطبقات العليا أن يتصل أفرادها ضرورة بالمذاهب الجميلة .

أما بين الشعوب الإسلامية فقد بدأ التعليم من أعلى ، بين أنبل الشخصيات ، ومضى هابطا مع الزمن إلى أن انتهى به المطاف بين يدى أدنى طبقات المجتمع ، وهذا الموقف له ما يفسره ، يقول ابن خلدون : « ... وأن التعليم صدر الإسلام والدولتين لم يكن كذلك ، ولم يكن العلم بالجملة صناعة ، إنما كان نقلا لما سمع من الشارع ، وتعليما لما جهل من الدين على جهة البلاغ ، فكان أهل الأنساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنه نبيه ﷺ ، على معنى التعليم الخبرى لا على وجه التعليم الصناعى ، إذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم ، وبه هداياتهم ، والإسلام دينهم ، قاتلوا عليه وقتلوا ، واختصوا به من بين الأمم وشرفوا ، فيحرصون على تبليغ ذلك وتفهيمه للأمة ، لا تصدهم عنه لائمة الكبر ، ولا يزعهم عاذل الأنفة ، ويشهد لذلك بعث النبى ﷺ كبار أصحابه مع وفود العرب ، يعلمونهم حدود الإسلام وما جاء به من شرائع الدين ، بعث فى ذلك من أصحابه العشرة فمن بعدهم .

« فما استقر الإسلام ، ووشجت عروق الملة حتى تناولها الأمم البعيدة من أيدى أهلها ، واستحالت بمرور الأيام أحوالها ، وكثر استنباط الأحكام الشرعية من النصوص لتعدد الوقائع وتلاحقها ، فاحتاج ذلك لقانون يحفظه من الخطأ ، وصار العلم ملكة يحتاج إلى التعلم ، فأصبح من جملة الصنائع والحرف ، كما يأتى ذكره فى فصل العلم والتعليم ، واشتغل أهل العصبية بالملك والسلطان ، فدفع لعلم من علم به من سواهم ، وأصبح

حركة للمعاش ، وشمخت أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدى للتعليم ، واختص انتحاله بالمستضعفين ، وصار منتحله مختصرا عن أهل العصبية والملك »[1] .

إن أفكار هذا المؤرخ الفطن الحكيم حول ما كان من شأن التعليم فى بداية الإسلام يمكن تطبيقها على إسبانيا الإسلامية مع شيء من التحديد .

لقد كان قادة الجيش الإسلامى الذى فتح إسبانيا ، وكثير من جنده ، أناسا حظهم من الثقافة محدود ، حتى فيما يتصل بذات دينهم الذين يؤمنون به ، واهتموا بتأمين السلطة السياسية عن طريق القوة ، وما كادوا يلتفتون إلى مهمة التعليم . أما الذى التفت إليها حقا ، وأخذ أمرها على عاتقه ، فهم أولئك الأتقياء الذين كان داخلهم يفيض حماسة للتبشير بالدين الإسلامى ، على أمل الفوز برضا الله فى الآخرة ، وهم الذين نشروه عبر شبه الجزيرة ، وحفظوا أهلها القرآن الكريم . وفى البدء ، كما هو طبيعى ، كان العرض أكثر من الطلب ، فالعلماء يعتبرون أنفسهم سعداء حين يجدون طلابا يتعلمون على أيديهم ، ومن ثم بدأ التعليم مجانيا كله ، ولكن ما إن زاد عدد الذين اعتنقوا الإسلام ، وبدأوا يشعرون برغبة أقوى فى أن يتعلموا مبادئ الدين الجديد ، حتى رأوا ضرورة تشجيع مهنة التعليم بالهدايا والهبات ، وبدأت هذه العادة تنتشر تدريجيا حتى تأصلت ، وامتدت أكثر فأكثر ، ثم أصبح الدفع للمدرس ضروريا ، وساعتها بدأت مهمة معلم المدرسة تصبح فعلا مهنة مأجورة .

من الصعب تحديد متى بدأ هذا التغيير فى إسبانيا لأنه لم يحدث ولا يمكن أن يحدث ، بغتة ودفعة واحدة ، ومنذ البدء كان هناك من يقبض ، وحتى النهاية كان هناك من يعلم تقوى ، أو تكفيرا ، أو حبا فى التعليم . ولكن إنشاء مدارس من أجل التلاميذ الفقراء كالذى قام به الحكم المستنصر إشارة واضحة ، فيما أرى ، على أن الأغنياء كانوا يدفعون نفقات تعليم أبنائهم ، وعلى أن حماسة الفقهاء الدينية ، وقد ذهبت المناصب الرسمية المريحة والمربحة بحدتها ، لم تعد كافية لكى تحمل التعليم إلى الطبقات الاجتماعية الفقيرة ، التى لا تستطيع أن تتحمل نفقات التعليم الابتدائى .

● **مواد التعليم الابتدائى :**

كان التعليم الابتدائى حينئذ فى كل البلاد الإسلامية ، يقوم على تعليم القرآن الكريم قراءة وكتابة ، ويجب أن يجيء هذا فى المقدمة ، لاعتباره الأول فى الأهمية ، ويقولون إنهم يحققون عدة أهداف ، لأن « تعليم الولدان القرآن شعار الدين أخذ به أهل الملة ،

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ترجمة دى سلان الفرنسية ، جـ ١ ص ٦٠ وما بعدها ، ص ٣٠ من طبعة المكتبة التجارية ، القاهرة .

٧

ودرجوا عليه ، فى جميع أمصارهم ، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن ، وبعض متون الحديث ، وصار القرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات ، وسبب ذلك أن التعليم فى الصغر أشد رسوخا ، وهو أصل لما بعده ، لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للمكان ، على حسب الأساس وأساليبه يكون حال ما ينبنى عليه »[١] .

وبهذا يتعلم الصبى نطق العربية فى دقة ، لأن القراءات القرآنية ، وإن اختلفت صورها ، هى أفضل ما ينطق ويقرأ فى كل العالم الإسلامى ، ويمد الذاكرة بجمل عربية جيدة الفصاحة ، تهيىء التلميذ لدراسة النحو التى ستجىء فيما بعد ، فيتخذ من آيات القرآن المثل والشاهد[٢] .

ولم يكن المعلمون الإسبان يقتصرون على تدريس القرآن فحسب ، وإنما « يخلطون فى تعليمهم للولدان رواية الشعر فى الغالب ، والترسل ، وأخذهم بقوانين العربية وحفظها ، وتجويد الخط والكتاب ، ولا تختص عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها ، إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة ، وقد شدا بعض الشىء فى العربية والشعر ، والبصر بهما ، وبرز فى الخط والكتاب ، وتعلق بأذيال العلم على الجملة ، لو كان فيها سند لتعليم العلوم ، لكنهم ينقطعون عن ذلك لانقطاع سند التعليم فى آفاقهم ، ولا يحصل بأيديهم الآن ما حصل من ذلك التعليم الأول »[٣] .

أى أن التعليم الابتدائى فى إسبانيا الإسلامية كان أكثر تنظيما من بقية العالم الإسلامى ، أفضل مما كان عليه فى المغرب مثلا حيث يقتصرون « على تعليم القرآن فقط ، وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومشاكله ، واختلاف حملة القرآن فيه ، لا يخلطون ذلك بسواه فى شىء من مجالس تعليمهم ، لا من حديث ولا من فقه ، ولا من شعر ، ولا من كلام العرب ، إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه ، فيكون انقطاعه فى الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة ، وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ، ومن تبعهم من قرى البربر »[٤] .

(١) مقدمة ابن خلدون ، ترجمة دى سلان ، جـ ٣ ، ص ٢٨٥ وما بعدها (القاهرة ص ٥٣٧) .

(٢) أرتين باشا ، التعليم فى مصر (باللغة الفرنسية) ، باريس ١٨٨٩ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ، نفس الجزء والصفحة . .

(٤) المصدر السابق .

كان المعلمون فى إسبانيا الإسلامية إذن يعنون بإعداد التلاميذ للدراسات التالية ، وكانت لديهم الجرأة لكى يدخلوا شيئا من التجويد ، وحتى أن ينتقدوا ، فى مواراة ، عادة البدء بتدريس الفقه ، وقد اقترح القاضى أبو بكر بن العربى فى كتاب رحلته ، قانون التأويل « طريقة غريبة فى وجه التعليم ، وأعاد فى ذلك وأبدأ ، وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم ، كما هو مذهب أهل الأندلس ، قال : « لأن الشعر ديوان العرب ، ويدعو على تقديمه وتقديم العربية فى التعليم ضرورة فساد اللغة . ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين ، ثم ينتقل إلى درس القرآن ، فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة » .

ويقول فى مكان آخر : « ويا غفلة أهل بلادنا فى أن يؤخذ الصبى بكتاب الله فى أول أمره ، يقرأ ما لا يفهم ، وينصب فى أمر غيره أهم عليه » . ويضيف : « ثم ينظر فى أصول الدين ، ثم أصول الفقه ، ثم الجدل ، ثم الحديث وعلومه . ونهى مع ذلك أن يخلط فى التعليم علمان ، إلاّ أن يكون المتعلم قابلا لذلك بجودة الفهم والنشاط » .

وقد نقل ابن خلدون هذه الفقرة وعلق عليها : « وهو لعمرى مذهب حسن إلا أن العوائد لا تساعد عليه ، وهى أملك بالأحوال . ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن إيثارا للتبرك والثواب ، وخشية ما يعرض للولد فى جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن ، لأنه ما دام فى الحجر منقاد للحكم ، فإذا تجاوز البلوغ ، وانحل من ربقة القهر ، فربما عصفت به رياح الشبيبة فألقته بساحل البطالة ، فيغتنمون فى زمان الحجر ، وربقة الحكم ، تحصيل القرآن لئلا يذهب خلوا منه . ولو حصل التيقن باستمراره فى طلب العلم وقبوله التعليم ، لكان هذا المذهب الذى ذكره القاضى أولى مما أخذ به أهل المغرب والمشرق »[1] .

● **طريقة تعليم الخط :**

فيما يتصل بمنهج **تدريس الخط** ظلت إسبانيا الإسلامية متأخرة قليلا عن بلاد المشرق الإسلامى ، وكان تدريس الخط فى هذه يمثل مادة مستقلة ، بمعزل عن تعليم الأبجدية فى البدء ، وكان هناك مدرسون مختصون به ، يعلمون التلاميذ تجويده ، وبينهم من

(١) مقدمة ابن خلدون ، جـ ٢ ص ٢٨٩ ، الترجمة الفرنسية (ص ٥٣٩ طبعة القاهرة) . ولو أن بعض هذه الملاحظات لا تشير إلى التعليم الابتدائى فحسب ، وإنما يمكن أن تشمل التعليم العالى أيضا ، رأيت من الخير ألا أتجاوز ما يوحى به مضمون الملاحظة .

وقف المؤلف بتعليق ابن خلدون على رأى ابن العربى عند قوله : « بالأحوال » ، وأسقط تبريراته للبدء بتحفيظ القرآن ، ورأيت أن آتى بها كلها .

يذهب إلى المدرسة ليتعلم الخط بخاصة ، فيتعلمون مبادئه ، وقواعد رسم كل حرف مستقلا ويتدربون عليه بكتابة النصوص من نماذج أمامهم ، ومع تقسيم العمل على هذا النحو أمكن تكوين خطاطين ممتازين لأن المدرسين والطلاب فى هذه المدارس لم يكن لديهم ما يشغلهم غير الخط[١] .

وكانت المدارس الابتدائية فى إسبانيا الإسلامية تعلم التلاميذ منذ البدء كيف يكتبون ويقرأون فى الوقت نفسه ، ولم يكونوا يتعلمون رسم الحروف مفردة ، طبقا لقواعد الرسم المعروفة ، وإنما يسيرون على الطريقة الجميلة ، ويتدرب التلاميذ على نسخ كلمات كاملة توضع أمامهم نموذجا[٢] .

وهى طريقة تبدو بغيضة للوهلة الأولى ، وأنها أدت إلى نتائج غير طيبة فى طريقة تعليم الخط ، ولكن الأمر لم يكن كذلك ، لأن التلاميذ على ما يقول ابن خلدون ، إذا أخذنا فى الاعتبار المدارس الإسبانية بخاصة ، كانوا يتدربون منذ البدء ، ويجيدون الخط فى جملهم ، على حين أن الذين يفكرون فى أن يخصوها بدرس مستقل فيما بعد ، يهملون كثيرا ويبقون دون أن يتعلموا ، أى أن إسبانيا الإسلامية إذا لم تخرج خطاطين ممتازين ، فعامة تلاميذها يكتبون خطا جيدا ، وربما كان هذا سببا فى أن الخط الأندلسى احتفظ بطابعه القديم ، حتى أنهم يقلدونه فى شمال أفريقيا .

وكان التلاميذ يستخدمون ألواحا قوية من الخشب المصقول ، يكتبون فوقها بأقلامهم ، بعد أن يملوها[٣] فى الحبر ، فإذا انتهى التدريب بلوها بالماء ومحوها ، ثم عادوا يكتبون عليها ثانية من جديد ، وكانت النصوص التى تستخدم فى الكتابة فى إسبانيا من القرآن الكريم[٤] .

---

(١) استخدام أبيات بعض الشعراء له فائدة أخرى فى نظر بعض الأتقياء ، وهو أن الأطفال لا ينتهكون حرمة القرآن بأن يمسحوا كل لحظة ما خطوه ، على نحو ما يفعلون فى أفريقية وإسبانيا وكانت النصوص منسوخة .

(٢) ابن جبير ، ص ٢٧٤ – وابن خلدون ، المقدمة ، جـ ٢ ص ٣٩٢ .

(٣) مل بمعنى غمس ، وهو الفعل الذى كنا نستخدمه ونحن صغار فى الكتاب ، وفضلتها على غمس ، رغم أننى لم أجدها بهذا المعنى فى معاجمنا ، إلا على طريق التحوز ، بأن تكون بمعنى أدخل ، وشجعنى على استخدام « مل » ، أنها تقال وسط قبيلة عربية خالصة ، وسكنت أقصى الصعيد قادمة من المغرب فى أرجح الحالات .

(٤) أبو بكر الطرطوشى : سراج الملوك ، ص ٤١ ، طبعة بولاق ، والضبى ، ص ١٣٨ .

ويحفظ التلاميذ عادة النصوص الفقهية ، والرسائل الأدبية ، وقواعد النحو ، وهذه كلها تكون مادة الدراسة فى التعليم الإبتدائى .

- **عقود التعليم :**

وكان المدرس ، وبوسع أى إنسان أن يعمل فى هذه المهنة لو أراد ، يتصل بوالد الصبى أو المسئول عنه مباشرة ، للاتفاق على المادة المطلوب تعليمها ، وشكل التعليم ، والزمن المخصص لها ، وشروط دفع الأجر . أى أن العقد خاص تماما ، ويجرى بين الطرفين بكامل الحرية .

ويحرر العقد لمدة عام ، ابتداء من الشهر الذى يتم فيه ، وكان المقابل ، أجرا أو هدايا ، يقدم مالا فى جانب منه ، ويدفع مع كل شهر ، وجانب آخر يقدم عينا ، ويكون عادة « أروبتان » أو ثلاث من القمح ، ونصف أروبة[1] من الزيت ، وفى مقابل ذلك كان على المدرس أن يبذل كل جهده ومهارته فى تعليم الصبى .

وكان عادة متأصلة أن تقدم للمعلم الهدايا فى عيدى الأضحى والفطر ، وطبقا لما يقوله الفقهاء صراحة فى مؤلفاتهم هى ليست فرضا ، وإنما شىء اختيارى ، ومن ثم لا يمكن للمدرس أن يطالب به فقها أو قضاء إذا تخلف والد الصبى .

وفى أحايين أخرى بدل أن يكون العقد سنويا ، أو مشاهرة ، يتفق الطرفان على أجر محدد ، مقابل أن يتعهد المدرس ، مثلا ، بتعليم الصبى هذه المادة أو تلك . وفى هذه الحال يجب على المدرس أن يتأكد من إمكانيات الصبى الذهنية ، حتى لا يخدع فى الأجر ، وأن يضمن الآباء ألا يعتذر لهم المدرس فى النهاية بأن التلميذ كان بليدا ، أو غير مهيأ للتعليم . ولابد أن الخلافات فى مثل هذه الحالة كانت كثيرة ، لصعوبة تحديد مصطلح « تعليم الصبى » ، وحولها اختلفت آراء الفقهاء ، ثم انتهوا أخيرا إلى رأى معقول جدا ، وهو الرجوع فى مثل هذه الحالة إلى العرف والعادة الجارى العمل بهما فى القرية ، أو المدينة ، أو البلد .

---

(١) أروبة Arroba مقياس وزن مقداره ١١,٥ كيلوجرام .

وقد كان الاحتياط مستحيلا فيما يتصل بمجهود المدرس فى التعليم ، ولكن تكن له نفس الثقة التى تمنح للمدرسة ، ولكن الآباء ، علىَ الأقل يريدونَ أن يتأكدوا أن المدرس لن يغيب عن عمله أياما طويلة ، وهكذا فرضت العادة نفسها ، فى غيبة نظام خاص يحدده ، فإذا غاب المدرس فى أيام ليست الجمعة ولا الأعياد ، وامتدت غيبته ، فقد جانبا مناسبا من الأجر الذى يقدم له ، والشيء نفسه يحدث أيضا ، إذا طالت غيبته مريضا[١] .

● **العقوبات** :

وبما أن الأشياء العادية فى الحياة تظل عادة دون أن تأخذ طريقها إلى التاريخ ، فمن الصعب تحديد مدى الشدة المستخدمة فى الأزمنة المختلفة فى إسبانيا الإسلامية ، ولكن من المعتقد أنها لم تبلغ الدرجة القصوى على نحو ما كان عليه الحال فى أفريقيا ، حيث كانوا يستخدمون « الفلكة » ، وهى أداة تعذيب شديدة ، تشد بها ساقى الصبى لتكونا معدتين للضرب[٢] . ويرى **ابن خلدون** أن من أسباب جبن سكان المدن وضعفهم وسائل الضغط فى المدرسة ، وبخاصة إذا كانت العقوبات شديدة[٣] .

واستنتج الفقهاء من السنة « أنه لا ينبغى لمؤدب الصبيان أن يزيد فى ضربهم إذا احتاجوا على ثلاثة أسواط شيئا . ولكن يبدو أن المدرسين كانوا يستخدمون « الزخمة » على نحو ما يريدون ، دون الوقوف عند هذا الحد ، وكان من الضرورى حثهم على الاعتدال ، ويعهد إلى المحتسب بمهمة مراقبة المدارس والأمكنة الأخرى التى يجرى فيها التعليم ، حتى لا يسرف المدرسون أو يشتدوا فى عقاب التلاميذ[٤] .

ورغم أنه لم تكن هناك مدارس رسمية ، وأن على الأفراد أنفسهم أن يدفعوا شخصيا نفقات تعليم أبنائهم منذ التعليم الابتدائى فإن هذا التعليم بلغ درجة كبيرة من الانتشار ، حتى أن معظم الإسبان المسلمين كانوا يعرفون القراءة والكتابة[٥] ، وهو شيء لم تعرفه أىّ من بقية دول أوربا فى ذلك العصر .

(١) انظر الوثائق الملحقة بهذه الدراسة .

(٢) دوزى ، ملحق المعاجم العربية ، مادة « فلقة » .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، جـ ١ ص ٢٦٧ (طبعة القاهرة ص ٥٤٠) .

(٤) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٤٥٩ .

(٥) دوزى ، تاريخ مسلمى إسبانيا ، جـ ٣ ص ١٠٩ .

ويمكن أن نصف التعليم فى تلك الأيام بصفتين جد محببتين إلى المحدثين ، وهو أنه مجانى وإجبارى ، ونفهم من مجانى أن ذلك كان بالنسبة لمن لا يملكون نفقاته وإجبارى أن الرأى العام فرضه ، وليس عملا قامت به السلطة ، فبعض أصحاب الأعمال كانوا يرفضون أن يقبلوا فى مصانعهم صبيانًا لا يعرفون القراءة والكتابة ، حتى ولو كانت مهمتهم لا تتطلبها[1] .

(١) معجم ابن الآبار ، الترجمة رقم ١٤ ، طبعة كوديرة .

التعليم العالى

● الحاجة إلى الرواية فى الإسلام :

لم تكن هناك خطط رسمية تحدد المناهج والوسائل ، وكان الطالب يحضر المواد التى تعجبه ، على الأستاذ الذى يطمئن إليه ، ويقرأ فى الكتاب الذى يراه مفيدا ، ويتعمق فى درسه بقدر ما يسمح له ذكاؤه ، ويستقصى أطرافه بقدر ما تعينه إمكاناته والوسائل المتاحة له ، ومن السهل إذن أن تدرك الصعوبة التى تعرض لنا ، حين نحاول أن نحدد على نحو دقيق ، متى يبدأ التعليم العالى ، وأين ينتهى ، ومعها يمكن القول إن استخدام هذا المصطلح نسبى ، وفيه كثير من التجوز .

ولتحديد هذا المصطلح بدءا ، دون حاجة إلى ذلك فيما بعد، يمكن أن نقول إن التعليم العالى كل ما تجاوز المواد المقرر دراستها فى التعليم الابتدائى، وهى: مبادئ القراءة ، وحفظ القرآن ، وإنشاد الشعر ، وحفظه دون فهم فى أغلب الأحوال ، ومبادئ النحو .

وليس من الممكن كذلك تحديد أى المواد كان يبدأ طلاب التعليم دراستها ، لأن المواد ليست منفردة ، وقد يجمع الطالب أحيانا ، فى الوقت نفسه ، بين دراسات متنوعة ، بين أكثر من مادة ، كأن يدرس القرآن والحساب مثلا ، أو المنطق والطب ، ولكن طبقا للمنهج الذى حدثنا عنه **ابن العربى** ، وأشرنا إليه فيما سبق ، يمكن القول إن الدراسات الدينية كان لها السبق ، ولعل كثيرين من الطلاب كانوا يتوقفون عندها ، وقبلها أو معها تجىء دراسة النحو ، أعنى التعمق فيه ، لكى يستطيع الطالب أن يفهم الكتب التى حررت باللغة العربية فى المواد الأخرى .

وحين نعرض لهذه المواد ، فلن نبدأ بتلك التى كانوا يعطونها أهمية أكثر وهى دراسة القرآن وتفسيره ، ولا بتلك التى يبدأون بها عادة ، وهى النحو ، وإنما سنبدأ بالمادة التى تميز ، قبل غيرها ، منهج التربية الإسلامية ، وأعنى بها :

● السنة وطرق الرواية :

من البين أن الإسلام دينا لا يحدد رئيسا معينا مهمته تحديد العقيدة ، ولا طبقة متميزة من الفقهاء رسالتها تفسيرها ، والحفاظ عليها ، ولا يعترف بطبقة كهنوتية لها وحدها هذا

الحق ، وإنما وكل إلى عامة المسلمين أنفسهم رواية السنة ، جيلا ينقلها إلى جيل ، والقرآن نفسه كان يحفظ فى البدء بهذه الطريقة ، ثم تم جمعه فى مصحف مكتوب فى زمن الخليفة عثمان وبأمر منه ، ونسخت منه أربعة مصاحف أرسلت إلى أقطار الدولة الإسلامية المختلفة ، ليتخذ منها المسلمون أساسا يرجعون إليه ، ويراجعون عليه مخطوطاتهم الخاصة ، ومن غير المؤكد أن نجزم الآن بمكان هذه النسخ ، وبخاصة لأن الورع ارتفع بأعدادها إلى أرقام غير محددة ، ولا يمكن الوصول من بينها ، على نحو يقيني ، إلى النسخ الأصلية حقا(١) .

وليس النص المادى فحسب ، وإنما هناك الآيات المتشابهات ، وتقوم السنة على تفسيرها ، وتحديدها ، وكان ذلك بداية العلم فى الإسلام .

لم يكن المسلمون فى حاجة إلى من يهديهم إلى الوسيلة الأكثر مناسبة لدراسة السنة ، فقد استقر لديهم التقليد الأفضل لروايتها من سيرة النبى ﷺ ، فقد كان أميا لا يقرأ ولا يكتب فهو يبلغ أوامره وتعاليمه شفاها ، فكان التعليم شفاها ، مباشرة من الأستاذ للتلميذ ، الوسيلة الأساسية ، وهو ما يسمى **السماع**(٢) .

[والأصل فيه ما روى عن الرسول ﷺ ، قال : « تسمعون ويسمع منكم ، ويسمع ممن يسمع منكم » ، وقوله « نضر الله أمرأ سمع مقالتى فحفظها ، ووعاها فأداها كما سمعها »] (٣) .

ويلى السماع رتبة أخرى فى الرواية ، عمادها أن يقرأ الطالب عن ظهر قلب ما يمكن أن يعرف بأية وسيلة أنه مذهب الأستاذ ، وهذا يستمع له ، ويقره على ما يسمع منه ، كما لو كان الدرس الذى ألقاه يعيده الطالب على سمعه ، وهو ما يسمى **العرض**(٤) . [والأصل فيه ، حديث ضمام بن ثعلب ، الثابت فى الصحيح ، أنه قال للنبى ﷺ : أمرك أن تصلى الصلوات الخمس ؟ . قال : نعم ... » . فهذه قراءة على النبى ﷺ . ثم أخبر بذلك ضمام قومه ، فأخذوا بما أدى إليهم من ذلك . واحتج مالك رحمه الله

---

(١) عرضت لتاريخ هذه المصاحف ، فى دراسة موجزة ، الحتتها بكتاب « الفن العربى فى أسبانيا وصقلية » لفون شاك الألمانى ، وقد ترجمته إلى العربية ، ونشرته دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٨٥ . (المترجم)

(٢) ابن خير ، فهرسة ما رواه عن شيوخة ، ص ١٢ ، طبعة مدريد ١٨٩٣ .

(٣) الزيادة من المصدر السابق .

(٤) ابن خير فى مقدمة فهرسته أعطى الكلمة معنى أضيق من الذى أعطاه لها دوزى فى : رسالة إلى السيد فليشر : ملاحظات نقدية وتفسيرية لنص المقرى ، ص ١٥٩ وما بعدها .

بالصك يقرأ على القوم فيقولون : أشهدنا فلان . ويقرأ القارئ على القارئ فيقول أقرأني فلان . وقال يحيى بن عبد الله بن بكير : لما عرضنا الموطأ على مالك بن أنس ، رحمه الله ، قال له رجل من المغرب : يا أبا عبد الله ، أحدث به عنك ؟ قال : نعم . قال : وأقول : حدثنا مالك ؟ ، قال : نعم ، أما رأيتني فرغت نفسي لكم ، وسمعت عرضكم ، وأقمت سقطه وزلله ، فمن حدثكم غيري ؟ نعم ، حدثوا به عني وقولوا : حدثنا به مالك . وسماع العرض على الشيخ كالعرض سواء ، لا فرق بينهما في المعنى] [1] .

وأما التلاميذ الآخرون الذين يحضرون الدرس ، ويسمعون من فم زميلهم ما سوف يقره الأستاذ فيما بعد ، فيمكنهم أن يأخذوا بهذا السماع من شفاه زميلهم ، ويسمى « **سماع عرض** » .

وعندما انتهت رواية السنة ، في إسناداتها المختلفة ، إلى أفراد بعينهم ، ومع شيوع استخدام الكتابة ، قاموا بنسخها وتصنيفها في مجموعات كبيرة ، وتولد عن هذه طريقة في الرواية موازية للطرق السابقة ، ولو أنها ليست من الطبقة نفسها ، وهي أن يقرأ الأستاذ من الكتاب ، وأن ينسخ الطلاب وراءه ما يسمعون منه ، وتسمى هذه : **قراءة** ، ويمكن أن يحدث العكس ، فيقرأ الطالب أمام الأستاذ وحده ، أو رفقة طلاب آخرين ، في مثل الظروف التي أشرنا إليها .

وكان هذا ابتداعا ، ولو أنه غير محسوس ، غير الطريقة الأكثر صفاء ، والتقليدية حقا ، والتي سار عليها كثير من العلماء في كل العصور ، وحتى يومنا هذا ، فهم يحفظون الكتاب عن ظهر قلب ، من أوله إلى آخره يلقونه على أسماع الطلاب ، بنقاطه وفواصله التي تميز بين جمله ، دون التفكير لحظة واحدة في أن قراءة النص أشد بساطة ، وأدعى للثقة ، من هذا العمل المرعب ، والمؤدي إلى الخطأ .

وعندما يبدأ التجديد يصبح من السهل أن يترك الناس أنفسهم للموجة تحملهم ، ولن تعوزهم الأسباب أبدا لتبريره ، وقد قيل إن واجب كل مسلم فاهم أن ينشر التعليم الديني على أوسع نطاق ممكن ، حتى لا ينقطع من يقوم على روايته لحظة ، فاذا حالت ظروف خاصة بين التلميذ وبين حضور دروس الأستاذ ، فهو يستطيع ، فرضا ، إذا أعطيناه الكتاب الذي يحتويها أن يعلم ما فيه وأن يرويه ، ويسمى هذا : **مناولة** ، سواء كان

(١) الزيادة من فهرسة ابن خير ، ص ١٣ .

الإعطاء مباشرة يدا بيد ، وهو الأشد تقديرا ، أو بواسطة شخص آخر ، وفى هذه الحالة من الأفضل أن يكون الكتاب منسوخا بخط الأستاذ نفسه ، أو راجعه وصححه على الأقل . وإذا ملك الابن كتبا بخط والده عد ذلك سماحا له بروايتها ، ويروى ابن بشكوال فى كتابه « الصلة » ، فى ترجمة عبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى ، من أهل قرطبة ، أنه « كان يحدث كثيرا عن كتاب أبيه ، فيقول : « وجدت فى سماع أبى بخطه » ، وقد جوز البخارى أن يحدث الرجل عن كتاب أبيه ، بتيقن أنه بخطه دون غيره[1] .

[والأصل فى المناولة حديث النبى ﷺ الصحيح ، حيث كتب لأمير السرية كتابا ، وقال له : لا تقرأ حتى تبلغ مكان كذا ، وكذا ، فلما بلغ ذلك المكان قرأه على الناس ، وأخبرهم بأمر النبى ﷺ ، فهذا النبى قد ناول أمير السرية كتابه ولم يقرأه عليه ، ولا عرضه أمير السرية عليه ، ثم ان أمير السرية قرأه على السرية فامتثلوا ما فى الكتاب وأخذوا به . وبلغ ذلك النبى ﷺ فرضيه ، وأقره عليه ، فقامت بذلك الحجة ، وهذا قوى فى المناولة جدا . ويدل عليه ما روى من « أن فى الكتاب الذى كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم : ألا يمس القرآن إلا طاهر » ، فهذا الحديث أصل فى صحة الرواية على وجه المناولة ، لأن النبى عليه السلام دفعه إليه وأمره به ، فجاز لعمرو بن حزم العمل به ، والأخذ بما فيه] [2] .

وأخيرا أصبحت الآراء أكثر تساهلا ، وتنوسيت الاحتياطات القديمة ، وأصبح تسامح الأساتذة لعلاجها كلها مملا على نحو ما[3] .

كان هذا المنهج باختصار يتمثل ، فضلا عن الجوانب الشكلية التى أشرنا إليها ، فى رواية ما سمعه الراوى من الآخرين بنفس كلماتها ، لا ينحرف عنها شيئا ، ومع هذا العمل تصبح الموهبة أشد دربة ، والذاكرة أثمن شىء وأغلاه ، وموضع الإطراء من الجميع .

---

(١) الترجمة رقم ٥٤٨ فى الصلة ، طبعة ، القاهرة ١٩٦٦ .

(٢) ابن بشكوال ، الصلة ، ت ٥٤٨ ، طبعة القاهرة .

(٣) سوف نعود إلى الموضوع نفسه لنكمل المادة عندما ندرس الإجازات ، فقد كانت هناك طبقة من السنة تسمى « الأحاديث السلسلات » وتتم دائما فى حفلات فخيمة ، ويجب أن تدرس فى يوم عيد الاضحى ، وأن يأكل الطلاب مع الأستاذ ، وأن يؤدوا بعض الصلوات . انظر : ابن خير ، فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص ١٧٥ طبعة مدريد .

● **الاعتماد على الذاكرة فقط وآثاره :**

وقد انحصر التعليم فى الأعوام الأولى ، فى إسبانيا كما فى بقية العالم الإسلامى ، فى دراسة السنة ، وفيما بعد ، وحتى الآن ، تعود الشبان أن يبدأوا دراساتهم بهذه المادة قبل أن يتجهوا إلى العلوم العقلية ، وأعطوا أمثالا ناطقة على ذواكر قوية للغاية ، تتجاوز حد الصدق ، لولا أنها تكررت ، وقامت عليها شواهد عديدة ، ولا يمكن تفسيرها إلا من خلال خاصية أسلوب التعليم فحسب .

[يروى المراكشى فى كتابه « المعجب » عن الوزير أبى بكر محمد بن الوزير أبى عبد الملك بن أبى العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر قال :

« بينا أنا قاعد فى دهليز دارنا وعندى رجل ناسخ أمرته أن يكتب لى كتاب الأغانى ، فجاء الناسخ بالكراريس التى كتبها ، فقلت له أين الأصل الذى كتبت منه لأقابل معك به ، قال : ما أتيت به معى . فبينا أنه معه فى ذلك إذ دخل الدهليز علينا رجل بذ الهيئة ، عليه ثياب غليظة أكثرها صوف ، وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير إتقان لها ، فحسبته لما رأيته من بعض أهل البادية ، فسلم وقعد ، وقال لى : يا بنى ، استأذن لى على الوزير أبى مروان ، فقلت له : هو نائم ، هذا بعد أن تكلفت جوابه غاية التكلف ، حملنى على ذلك نزوة الصبا ، وما رأيت من خشونة هيئة الرجل ، ثم سكت عنى ساعة ، وقال : ما هذا الكتاب الذى بأيديكما ؟ فقلت له : ما سؤالك عنه ؟ ، فقال : أحب أن أعرف اسمه ، فإنى كنت أعرف أسماء الكتب ! ، فقلت : هو كتاب الأغانى ، فقال : إلى أين بلغ الكاتب منه ؟ ، قلت : بلغ موضع كذا ، وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به ، والضحك على قالبه ، فقال : وما لكاتبك لا يكتب ؟ ، قلت : طلبت منه الأصل الذى يكتب منه لأعارض به هذه الأوراق فقال لم أجىء به معى ، فقال : يا بنى ، خذ كراريسك وعارض ، قلت : بماذا ؟ ، وأين الأصل ؟ ، قال : كنت أحفظ هذا الكتاب فى مدة صباى ، قال : فتبسمت من قوله ، فلما رأى تبسمى قال : يا بنى أمسك على ، قال : فأمسكت عليه وجعل يقرأ ، فو الله إن أخطأ واوا ولا فاء ، قرأ هكذا نحوا من كراستين ، ثم أخذت له فى وسط السفر وآخره ، فرأيت حفظه فى ذلك كله سواء .

« فاشتد عجبى ، وقمت مسرعا حتى دخلت على أبى فأخبرته بالخبر ووصفت له الرجل ، فقام كما هو من فوره ، وكان ملتفا برداء ليس عليه قميص ، وخرج حاسر الرأس ، حافى القدمين ، لا يرفق على نفسه ، وأنا بين يديه ، وهو يوسعنى لوما ، حتى

ترامى على الرجل وعانقه ، وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول : يا مولاى اعذرنى ، فوالله ما أعلمنى هذا الجلف إلا الساعة ، وجعل يسبنى ، والرجل يخفض عليه ويقول : ما عرفنى ، وأبى يقول : هبه ما عرفك ، فما عذره فى حسن الأدب .

« ثم أدخله الدار ، وأكرم مجلسه ، وخلا به فتحدثا طويلا ، ثم خرج الرجل وأبى بين يديه حافيا حتى بلغ الباب ، وأمر بدابته التى يركبها فأسرجت ، وحلف عليه ليركبنها ثم لا ترجع إليه أبدا .

« فلما انفصل قلت لأبى : من هذا الرجل الذى عظمته هذا التعظيم ؟ قال لى : اسكت ، ويحك ! ، هذا أديب الأندلس وأمامها وسيدها فى علم الآداب ، **هذا أبومحمد عبد المجيد بن عبدون** ، أيسر محفوظاته كتاب الأغانى ، وما حفظه فى ذكاء خاطره ، وجوده قريحته »] [1] .

من السهل أن نتصور إنسانا قادرا على أن يحفظ من الذاكرة ملحمة من ألف بيت ، أو من عشرين ألف بيت من الشعر ، لأن وقائعها وأحداثها ترتبط بعمل جوهرى ، تدور حوله ، وتكون وحدة يمكن إدراكها ، أما أن يحفظ إسبانى عن ظهر قلب كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، بكل رواياته وأشعاره ، وتبلغ نحوا من ٢,٥٠٠ صفحة[2] من القطع الكبير ، ودون أى صلة بين نصوصها المختلفة ، ومكتوب فى لغة عالية ، وغير دارجة ولا مألوفة ، فأمر يثير الإعجاب والغرابة ، لو لم نعرف أننا نلتقى عادة بأفراد كثيرين قادرين على قراءة القرآن الكريم من أوله إلى آخره ، حفظا من الذاكرة ، دون أن يخطئوا فى حرف واحد فيه ، وهناك من يستطيع الشىء نفسه فيما يتصل بكتاب « المدونة » لسحنون ، أو « الموطأ » للإمام مالك ، **أو « صحيح البخارى »**[3] ، أو ديوان المتنبى ، أو كتاب الكامل للمبرد ، أو السنن لأبى داود ، أو الأهالى لأبى على القالى ، وغيرها . وهو أمر عادى ، إذا عرفنا أنه كان شيئا جاريا فى إسبانيا أن يحفظ كثيرون كتاب سيبويه فى النحو ، وهم لا يستطيعون أن يطبقوه حتى على نحو متوسط .

---

(١) أشار المؤلف إلى هذه القصة مجرد إشارة ، ثم علق عليها ، واستنتج منها ، وآثرت أن آتى بها كاملة ، لما فيها من دلالات اجتماعية قوية ، وما تومىء إليه من آداب رفيعة ، ليتنا نعود إليها . والقصة فى « المعجب » ، طبعة سعيد العريان الأولى ، ص ٨٨ وما بعدها . (المترجم)

(٢) كان هذا فى الطبعات القديمة ، أما طبعة دار الكتب المصرية ، وما بعدها فيتجاوز حجمه أضعاف هذه الصفحات (المترجم) .

(٣) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة رقم ١٠٩٢ ، طبعة مدريد .

[يذكر المراكشى فى « المعجب » أنه لزم **أبا جعفر الحميرى** المؤدب نحوا من سنتين ، فما رأى أروى لشعر قديم ولا حديث ، ولا أذكر بحكاية تتعلق بأدب أو مثل سائر ، أو بيت نادر ، أو سجعة مستحسنة منه ، رضى الله عنه ، وجازاه عنا خيرا . أدرك جلة من مشايخ الأندلس فأخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب ، وأعانه على ذلك طول عمره ، وصدق محبته ، وإفراط شغفه بالعلم .

« قال لى ولده عصام ، وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبى الطيب ، قرئت على أو أكثرها فألفيتها شديدة الصحة ، فقلت له : أين وجدته ؟ . قال : هو موجود الآن بين أيدينا وعندنا ! ، وكنا فى المسجد فى زاوية ، فقلت له : أين هو ؟ فقال لى : عن يمينك ! ، فعلمت أنه يريد الشيخ ، فقلت : ما على يمينى إلا الأستاذ ! فقال لى : هو أصلى ، وبإملائه كتبت ، كان يملى على من حفظه ! فجعلت أتعجب ، فسمع الأستاذ حديثنا ، فالتفت إلينا ، وقال : فيم أنتما ؟ فأخبره ولده الخبر ، فلما رأى تعجبى قال : بعيدا أن تفلحوا ! يعجب أحدكم من حفظ **ديوان المتنبى** ، والله لقد أدركت أقواما لا يعدون من حفظ كتاب سيبويه حافظا ولا مجتهدا »] [1] . ويلتقى الإنسان أحيانا بباعة عنب ، أو تين ، فى سوق قرطبة ، يستطيعون أن يسمعوا كتاب **معانى القرآن لأبى جعفر النحاس** ، من ذاكرتهم دون أن يكون الكتاب أمامهم[2] .

وهذه الطريقة تومىء إلى أن التربية كانت تستهدف تربية الذاكرة فحسب . وأى جهد ، وأى عرق كان يبذله أولئك الذين لا يستطيعون أن يبلغوا حظهم منها فى أكمل صورة ! ، وأولئك الذين يجدون أنفسهم محرومين من هذه القدرة موضع الزهو والفخر لعجز خاص بهم ، فهم يلجأون إلى الأطباء . وتعود هؤلاء أن يصفوا لهم ثمار شجرة هندية يتخذ منها شراب يعرف « بالبلاذر » ، يؤخذ بطريقة خاصة ،ويعتقد بعضهم أنه يؤدى إلى تقوية الذاكرة ، على حين يرى آخرون النقيض ، ويعتقدون أن الدراسة الجيدة الدءوب أفضل دواء لتقويتها[3] . ولكن كثيرين كانوا يستخدمونه ، ويذكر ابن بشكوال فى كتابه « الصلة » ، عن ابراهيم بن محمد بن شنظير ، « كان يسمع كتب الزهد

(1) أوردها المؤلف موجزة ، استخلص منها النتائج واكتفى بها ، وأثبت النص كاملا . المعجب للمراكشى ، ص ٢٢١ طبعة أوربا ، ص ٣٠١ طبعة سعيد العريان الأولى (المترجم) .

(2) ابن بشكوال ، الترجمة رقم ٦٧٠ ، طبعة القاهرة .

(3) ابن الأبار ، التكملة ، الترجمة رقم ١٣٠٢ ، طبعة مدريد .

والكرامات ، وقد اختصر المدونة والمستخرجة ، وكان يحفظهما ظاهرا ، ويلقى المسائل من غير أن يمسك كتابا ، ولا يقدم مسألة ولا يؤخرها ، **وكان قد شرب البلاذر**[1] . وبعضهم انتفع به ، وأسرف فى استخدامه ، فأورثه حدة فى خلقة[2] . وربما دفع الناس إلى استخدام هذه الثمار بدءا ما ترمز إليه شكلا ، فقد جاءت فى صورة قلب ، فظنها الناس مفيدة فى تقوية الذاكرة[3] .

أثمر الميل إلى تقوية الذاكرة هذه الخضرة العريضة من الأدب التعليمى ، وازدهر فى المدارس العربية دون أن يصبح فنا جميلا ، وجاء متأخرا عن المنظومات التعليمية عند القدامى من يونان ورومان ، وكان هذا الأدب يتمثل عادة فى منظومات شعرية جافة ومعقدة ، وفضيلتها الأولى أنها تحتوى على الجانب الأكبر من المادة موضع الدرس ، بشكل دقيق ، عن طريق استخدام المصطلحات والتعريفات والإشارات التى تلمح من بعيد تقريبا إلى النقاط العلمية ،وهو ما يجعلها صعبة الفهم على المبتدئين ،وتتطلب شرحا أوسع من العمل نفسه مهما طال ، ويتضمن الشرح عادة كل ما يمكن أن يكتب عن المادة .

ما أقل العلوم التى أمكنها أن تنجو من هذا الغزو ! ، بدءا بالقراءات والفقه وحتى الطب والجبر[4] . وفيما يرى ابن خلدون ، فإن الإسراف فى الاعتماد على الذاكرة كان إلى حد كبير ، وراء تدهور التقاليد العلمية الطيبة فى الأيام الأخيرة لإسبانيا الإسلامية ، وفيما قبلها ، وبعدها فى المغرب العربى . وطبقا لهذا المؤرخ أيضا ، ليس من الغريب إذن أن نرى رجالا ينفقون أعواما وأعواما يحفظون عن ظهر قلب كثيرا من الكتب ، ولكنهم يعجزون عن شرح قضية علمية شرحا وافيا ، إذا عرضت لهم .

والحق أن المعرفة لا يمكن أن تزدهر على هذا النحو ،وأى بناء قديم يحتاج إلى ترميم ، فإذا ترك وحاله بدأ يتهاوى حجرا وراء آخر ، فلا يبقى منه أخيرا غير الأنقاض ، والأبنية الشامخة لعصور خلت حى شاهد على هذا .

---

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ٢٠٤ ، طبعة القاهرة ، وتكملة الصلة لابن الأبار ، الترجمة ٨٣٦ .

(٢) ابن بشكوال ، الترجمة رقم ٦٥٩ ، طبعة القاهرة .

(٣) الواقع أن هذا الشراب كان شائعا فى بغداد ، وللسبب نفسه ، وأراه هنا تقليدا للمشارقة فيما كانوا يفعلون . (المترجم) .

(٤) التكملة لابن الأبار ، الترجمة رقم ١٩١٥ ورقم ١٤٩٢ .

• اتساع دراسات السنة :

هذا اللون من التقديس الدينى الذى سلكه المسلمون فى طريقة رواية السنة ، ورأينا تأثيرها فيما مضى على ملكات الطلاب ، كانت تمثل المنهج الرئيسى ، وربما تغيرت الفكرة مع اتساع انتشار الإسلام ، وإخضاعه شعوبا غير عربية ،وتعلمه أشياء جديدة مما حققته وخلفته الحضارات القديمة ، ولكنه لم يتطور إلا بفعل التأثيرات المتبادلة ، فقد سمحت العلوم الشرعية بالقياس ، وعانت الفروع العلمية الأخرى ، فى مقابل ذلك ، من تأثير الطريقة التقليدية ، حتى تلك التى لاتربطها بها إلا صلة واهية ، وهو ما يفسر فى جانب منه قلة الأصالة فى بعض الإنجازات العربية ، وحبهم للشرح والجمع والتلخيص ، ونسخ النصوص القديمة كاملة ومباشرة فى أغلب الأحيان .

كانت السنة تروى فى البدء دون أن يمس كلماتها أى تغيير ، مهما كان تافها ، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام قالها ،أو عملها ، أو وضعها واستخدمها على نحو لا يجرؤ معه أحد على أن يغير منها كلمة ، خشية أن يمس ذلك معانيها ، ولكن فيما بعد أخذ التعليم يستهدف المعانى فحسب ، على نحو ما فعله **ابن القوطية** الشهير فى إسبانيا ، « ولم يكن بالضابط لرواية الحديث والفقه ، ولا كانت له أصول يرجع فيها ، وكان ما يسمع عليه من ذلك إنما يحمل على جهة التصحيح »(١) . ولو أن كثيرين احتفظوا بطريقة إملاء النصوص ، ثم تفسيرها كلمة كلمة ، وتطبيقها على ما يعرض لهم فى مجالات الفقه والأخلاق ، وغيرها(٢) .

وفى البدء عندما أخذ مذهب مالك يسلك طريقه إلى شبه الجزيرة، كان الأندلسيون يدرسون السنة كما عرفها ودونها أهل المدينة دون غيرهم تقريبا، ولو أن بقى بن مخلد حمل إلى الأندلس كتبا أخرى، لمذاهب مشرقية غير المذهب المالكى، كان الناس يتحمسون لدراستها فى غير الأندلس ، ولكن إسبانيا الإسلامية تميزت دائما بأنها موئل السنة ملاذها(٣) .

---

(١) ابن الفرضى ، الترجمة ١٣١٨ ، طبعة مصر .

● وأنظر الدراسة القيمة التى قام بها المؤلف لكتاب ابن القوطية : « تاريخ افتتاح الأندلس » ،وقد ترجمناها كاملة فى كتابنا : دراست أندلسية ،فى الأدب والتاريخ والفلسفة وصدر عن دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٨٧ . (المترجم)

(٢) التكملة لابن الأبار ، الترجمة ص ٢٥١ .

(٣) الضبى ، بغية الملمس ،الترجمة رقم ٥٨٤ ، وإشارات أخرى فيما سبق .

كان الإسبان المسلمون يدرسون عادة من كتب الحديث المجموعتين العظيمتين : **صحيحى البخارى ومسلم** ، فى أصلهما أو ملخصين ، وهى تلخيصات وشروح كان يقوم بها أساتذة من الإسبان أنفسهم .

وكانت هناك كتب **نقد الإسناد** ، وهى التى تعين الطالب على تقدير عدالة الراوى ، وصحة الرواية أو زيفها ، أو خطئها ، ويمكن معه أن يميز بين بقاء الحكم أو نسخه ، وتلك التى تتفق أو تختلف مع غيرها ، واشتهر منها بين الطلاب كتاب **الدارقطنى**(1)، والترمذى ، وغيرهما .

وكان كتاب **قاسم بن ثابت السرقسطى « غريب الحديث »** ، **وفيه** يفسر الكلمات الغريبة أو النادرة التى ترد فى الأحاديث النبوية من أفضل ما كتب فى هذه المادة ، وكان يدرس فى كثير من مدارس إسبانيا الإسلامية(2) .

وكعامل مساعد على هذه الدراسات كان يعنى بكتب التراجم والأنساب بخاصة ، لأن أى رواية تقوم على سلسلة متصلة من الرواد لا تنقطع ، منذ عهد الرسول عليه السلام حتى أيام الراوى أو الأستاذ .

وهذا ما يفسر لنا اعتناء العرب بكتب التراجم ، وشيوعها بينهم ، وانتشارها فى إسبانيا ، ويفسر لنا الوقت نفسه شيوع هذه الطريقة فى مجال التأريخ الأدبى والسياسى أحيانا .

● **القراءات :**

القرآن الذى أوحى به الله لرسوله عليه الصلاة والسلام مصدر كل معرفة عند المسلمين ، وأصل تصدر عنه كل المعارف المختلفة ، والعلوم المتنوعة ، وهو بينها أرفع العلوم قدرا ،إن لم يكن الوحيد الجدير بالتقدير الإنسانى ، لأنه يتضمن واجبات المخلوق إزاء خالقه ، وتمثل **الجانب الدينى** ، وتبيان الحلال والحرام وهو **أخلاقى** ، وتنظيم العلاقات بين الأفراد أنفسهم ، والذين يتكون منهم المجتمع وهو **سياسى** ومدنى .

(1) ابن بشكوال ، الترجمة ١١١٤ .

(2) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، الترجمة رقم ١٠٦٠ ، والضبى البغية ، الترجمة ١٣٠٠ .

وقد تفرعت عن دراسة القرآن عدة علوم ، الأول من بينها ، والأعظم تقديرا : قراءة القرآن وتجويده ، وهو يهدف إلى إحكام القراءة الصحيحة ، وضبط مخارج الحروف التى كتب فيها ، وما ينبغى لها من وقف ووصل ، ومد وغن ، وما إلى ذلك . واستخدم المسلمون هذا العلم ، ويستخدم حتى اليوم ، لتثبيت قراءة النص القرآنى ، وتفسيره ، وفهمه على نحو مستقيم ، وفى الوقت نفسه وحّد الصلاة فى كل البلاد التى اتخذت الإسلام دينا .

ومنذ أن يبلغ التلميذ المدرسة الابتدائية يتلقى قواعده الأولية ، لكى يستطيع أن يبدأ فى قراءة القرآن وتجويده ، واختاروا القراءة الأكثر بساطة بين القراءات السبع الأصول ، والتى سادت منذ القرون الأولى ، على أن تترك التفاصيل والدقائق لكى يدرسها الطالب فى مرحلة التعليم العالى ، والتى تتطلب منه أن يعرفها كلها .

يقول ابن خلدون : « القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه ، المكتوب بين دفتى المصحف ، وهو متواتر بين الأمة ، إلا أن الصحابة رووه عن رسول الله ﷺ ، على طرق مختلفة فى بعض ألفاظه ، وكيفيات الحروف فى أدائها ، وتنوقل ذلك واشتهر إلى أن استقرت منها سبع طرق معينة ، تواتر نقلها أيضا بأدائها ، واختصت بالانتساب إلى من اشتهر بروايتها من الجم الغفير ، فصارت هذه القراءات السبع أصولا للقراءة ، وربما زيد بعد ذلك قراءات أخرى لحقت بالسبع ، إلا أنها عند القراء لا تقوى قوتها فى النقل »[1] .

وكانت هذه المادة تشغل عادة بعض فترات الدراسة ، ودرسها ابن خير ، أبو بكر محمد ، أكثر من مرة على أساتذة مختلفين[2] ، وتعود التقاة الطيبون من المسلمين أن يتدربوا عليها يوميا ، فهم يقرأون القرآن أناء الليل وأطرافا من النهار ، ويرى بعض الأساتذة أن ذلك أفضل الطرق لتثبيته فى الذاكرة ، [ويروى الصدفى فى معجمه أن على بن عبدالله بن ثابت حدث عن أبى داود المؤيدى قال :- « قرأت عليه يوما حزبى من القرآن ، فتوقفت فى مواضع منه ، فلما أكملت قلت له معتذرا : لم أطالع هذا الحزب .فقال لى : يا بنى لعلك لا تقوم بالقرآن من الليل ، أنه لا يحفظه من لا يتنفل به

---

(١) أضفت هذ الفقرة من مقدمة ابن خلدون ، وعليها اعتمد المؤلف توضيحا للأمر ، ص ٤٣٧ ، طبعة المكتبة التجارية بالقاهرة .(المترجم) .

(٢) أنظر فهرسة ابن خير ، ص ٢٩ وما بعدها .

ليلا . قال فنفعنى الله تعالى بقوله] [1] . وكان هناك من يسمع ثلث القرآن من ذاكرته ، دفعة واحدة ، فى الليلة الواحدة[2] ، وبعضهم نصفه وحتى القرآن كله أجمع[3] .

وقد أدت متطلبات العبادة أن يوجد ضرورة ، منذ البدء ، قراء يتلون القرآن فى المساجد ،جريا على تقليد أصيل نقله الأندلسيون عن المشرق ، وفيما بعد ، عندما شاعت فى المشرق وجوه القراءات المتعددة ، والقراءات السبع الأصول من بينها بخاصة ، ساروا هنا فى إسبانيا على النهج نفسه ، « إلى أن ملك بشرق الأندلس **مجاهد** من موالى العامريين ، وكان معتنيا بهذا الفن من بين فنون القرآن لما أخذه به مولاه المنصور بن أبى عامر ، واجتهد فى تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته ، فكان سهمه فى هذا وافرا . واختص مجاهد بعد ذلك بإمارة دانية والجزائر الشرقية فنفقت بها سوق القراءة ، لما كان هو من أئمتها ، وبما كان له من العناية بسائر العلوم عموما ، وبالقراءات خصوصا »[4] ، وتوافد على بلاطه أشهر القراء ، وتكونت منهم فى إسبانيا مدرسة عظيمة ، ذات قواعد راسخة جليلة ، ونالت شهرة واسعة عريضة ، وامتدت تعاليمها إلى أطراف العالم الإسلامى كله فيما بعد .

كان **أبو عمر** الدانى شيخ هذه المدرسة ، بلغ الغاية فى علم القراءات ، وانتهت إلى روايته أسانيدها ، وتعددت تآليفه فيها ، وعول الناس عليها ، وأرسلت بما عداها إلى زوايا النسيان ، [واعتمدوا من بينها كتاب « التيسير » له] .

وقد نظم **ابن فيره** الشاطبى القواعد الواردة فى **كتاب التيسير** ، واختصرها فى منظومته التى سماها « حرز الأمانى ووجه التهانى » ، واشتهرت باسم « **الشاطبية** » ، وجاءت بالغة الدقة ، وحين يحفظها الإنسان يعى فى ذاكرته كل المبادىء التى تضمنها الكتاب[5] . [وعدتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا ، ولقد أبدع فيها كل الإبداع ، وهى عمدة قراء هذا الزمان – زمان ابن خلكان – فى نقلهم ، فقل من يشتغل بالقراءات

(١) اكتفى المؤلف بإحالتنا على المصدر بعد أن وقع على فحواه ، وآثرت المجيء بالنص نفسه أنظر : معجم الصدفى ،الترجمة ٢٦٣ .

(٢) ابن بشكوال ، الصلة الترجمة رقم ٨٨٤ طبعة القاهرة .

(٣) ابن الفرضى ،جـ ٢ ص ١٠٦ ، طبعة مدريد .

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٣٧ – ٤٣٨ .

(٥) ابن خلدون ، جـ ٢ ، ص ٤٥٥ وما بعدها من الترجمة الفرنسية ، وص ٤٣٧ من طبعة التجارية ،النص العربى .

إلا ويقدم حفظها ومعرفتها ، وهى مشتملة على رموز عجيبة ، وإشارات خفية لطيفة ، وما أظنه سبق إلى أسلوبها ، وقد روى عنه أنه كان يقول : « لا يقرأ أحد قصيدتى هذه إلا وينفعه الله عز وجل بها ، لأنى نظمتها لله تعالى ، مخلصا فى ذلك »] [1] . وكانت هذه المنظومة تدرس فى إسبانيا وأفريقية ، ومازال الصبيان حتى يومنا هذا يحفظونها فى كثير من البلاد الإسلامية[2] ، ومازالت حتى يومنا أيضا تعاد طباعتها كثيرا .

وكان تدريس القراءات يهدف عمليا إلى أمرين : الأول كتابة القرآن فى ألواح مع علامات خاصة تشير إلى مواضع الوقف والوصل ، ما يجب منها وما يجوز أو يمنع ، إلى جانب الملاحظات الأخرى الخاصة بالتجويد[3] . والهدف الثانى القراءة نفسها ، ويبدأ المدرس عادة فى القراءة مقدما المثل ، ثم يحاول الطالب أن يقلده فيما فعل ، فإذا حقق الطالب شيئا من التدريب بدأ يرتل وحده ، والمدرس يتابعه ، ويصلح له الأخطاء التى يمكن أن يقع فيها .

وكان القراء المجيدون من أصحاب الأصوات الرخيمة التى تتميز بالحلاوة والطلاوة والدقة ، وتوحى بالورع والخشوع والتقوى ، مطلوبين كثيرا من عامة الناس ، لكى يقرأوا فى المساجد .

● **التفسير** :

ثمة نوعان من التفسير يتناولان أساسا نصوص القرآن الكريم : التفسير اللغوى ، والتفسير التشريعى . وفى الأول يدرسون الجمل والكلمات ، لفظا ، وكل ظروفها اللغوية والنحوية ، ومعانيها اللغوية ، والثانى يتصل بمعانى النصوص التى يشرحونها ، والمشابهات التى تثيرها ، ويذكرون آراء الأقدمين فيها ، من الصحابة والتابعين ، أو يعتمدون على السنة نفسها ، حديثا أو عملا ، وكل ذلك يجرى بمنطق يفترض أن الحق المطلق هو

---

(١) الزيادة من ابن خلكان ، الوفيات ، طبعة محيى الدين ، الترجمة رقم ٥١٠ (المترجم) .

(٢) تكملة الصلة لابن الأبار ، الترجمة رقم ١٩٧٣ ، طبعة مدريد .

● وكانت هذه المنظومة تدرس أيضا فى الأزهر ، فلما انحدر أمره أصبح تدريسها شكليا ، على ما للعلم من جلال وخطر ، ولا أدرى مصيرها الآن ، ولم يبق من الأزهر إلا اسمه ، أما محتواه فخلق مشوه عجيب ، لا يمت بصلة إلى الماضى ، وليس فيه من الحاضر إلا الألقاب والرتب والمرتبات . (المترجم) .

(٣) الضبى ، تاريخ علماء الأندلس ، الترجمة ٣٩٨ ، طبعة مدريد .

ما جاء به الرسول عليه السلام ،فما من أحد يفهم القرآن خير من المخلوق الذى كرمه الله ، فاختاره أهلا لوحيه ! .

والمنهج الأكثر ملاءمة لتفسير القرآن الكريم يتمثل فى بيان كيف فهمه أشد الناس قربا من مصدر الوحى ، وذلك خير من التعمق فى الأفكار التى يمكن أن يدفع إليها العقل ، وقد يكون خادعا ، مهما كان مستوى الذكاء الذى عليه صاحبه فطنة وحدة . وكل ما يتجاوز هذا المنهج زيادة فى العلم الإسلامى ، حتى الجدل فى عام الكلام بطريقة « المدرسيين » كان ينظر إليه فى بعض الحالات على أنه شىء يبلغ حافة الزندقة .

كانت إسبانيا الإسلامية تعتمد فى مجال التفسير على الكتب التى تصلها من المشرق ، أو على الطلاب الإسبان المسلمين الذين يذهبون إليه ، ليتعلموا كيف يدرسون التفسير إذا عادوا إلى وطنهم ، ولم تكن هناك مدرسة إسبانية متميزة حتى أيام بقى بن مخلد ، والذى ألف تفسيرا بلغ من كماله أن ابن حزم قال فيه :« فمن مصنفات أبى عبد الرحمن بقى بن مخلد كتابه فى تفسير القرآن ، فهو الكتاب الذى أقطع قطعا ، لا أستثنى فيه أنه لم يؤلف فى الإسلام مثله ، ولا تفسير محمد بن جرير الطبرى ولا غيره »[1] .

وفيما يتصل بالتفسير الفقهي حرر ابن عطية ، أبو محمد عبد الحق بن غالب ، من أهل غرناطة ، تفسيرا اختصر فيه كل ما كتب قبله من التفاسير ، وراج رواجا عظيما فى إسبانيا والمغرب . وقد احتذى خطاه القرطبى ، أبو العباس أحمد بن مسعود ، وسار على نهجه ، وألف تفسيرا مازال يتمتع فى المشرق حتى يومنا هذه بشهرة عظيمة .

● **الفقه :**

كان إقبال الطلاب فى إسبانيا الإسلامية على دراسة هذا الفرع من المعرفة ، أكثر من إقبالهم على بقية المواد الأخرى بعامة ، لأنه يتيح لهم الفرصة لكى يتولوا الوظائف العامة ، دينية أو مدنية ، وكانت وظائف المشاورين والمساعدين ، والقضاة ، والكتاب ، وخطباء المساجد ، وغيرها ، وقفا عليهم كلها تقريبا ، وحتى أغلب الوظائف الأخرى غير العسكرية .ومن المعروف عنا نحن الإسبان غرامنا بتولى المناصب العامة فى الدولة ، وكان

---

(١) الضبى ، الترجمة رقم ٥٨٤ .

● أورد المؤلف معنى هذه الفقرة ، وأتيت بنصها كاملا ، وهى فى رسالة فضل الأندلس لابن حزم ، نفح الطيب للقرى ، جـ ٣ ، ص ١٥٦ ، وما بعدها ، طبعة إحسان عباس . (المترجم) .

طلاب الفقه يملأون المساجد ، على أمل أن يحصلوا من مواطنيهم ، عقب إنهاء دراستهم ، على لقب « فقيه » ، وكان ساميا ورفيعا ، وموضع الإجلال ، حتى أنه كان يطلق على بعض الملوك تشريفا لهم .

دراسة الفقه إذن المادة الشائعة بين الطلاب ، طبقا لما يمكن أن نستنتجه ، ويدرسون معها عادة ، فى الوقت نفسه ، المواد الأدبية والعلوم الأخرى ، إذا لم يكتف الطالب بدراسة الفقه وحده .

وفى سنوات الفتح الأولى كان الذين يضطلعون بالفتوى أقل علما ، ولم تكن هناك قواعد ثابتة لإصدار الفتاوى فأخذوا أنفسهم بدراسة الحالات التى تعرض لهم بتعقل ، وعلى مهل ، وطبقا لاجتهاد المفتى الذى يعرض لها ، وهذا الاجتهاد يتم بداهة طبقا لقواعد الشريعة . ولم تكن هناك يومها دراسات فقهية منتظمة ، وعندما بدأ الإسبان يسيرون على المذهب الفقهى الذى اتخذه السوريون فى دمشق ، وهو مذهب **الإمام الاوزاعى** ، نما هنا فى إسبانيا اتجاه يأخذ منه هاديا ، وظل قائما حتى أيام هشام الأول (٧٨٨ – ٧٩٦م) ، حيث بدأ الإسبان العائدون من المشرق يدخلون ومعهم كتب عالم المدينة **الإمام مالك**[١] ، ولم يلبث هذا المذهب أن انتشر سريعا ، بل أصبح وحيدا ، عندما اتخذه أتباع المذهب الأوزاعى ، وساروا عليه ، وتم ذلك دون مقاومة تذكر فيما يبدو .

وسبق أن أشرنا إلى أن المحاولات التى بذلت لإدخال مذاهب أخرى فشلت كلها ، لأن الرأى العام كان معاديا لها ، وبالتالى لم تشغل مكانا مرموقا فى مجال دراسة الفقه فى إسبانيا الإسلامية . وعندما انتشرت مؤلفات الإمام مالك نفسها ، وبدأوا يدرسونها فى المقاطعات الإسلامية المختلفة ، تكونت حولها ثلاث مدارس ، يختلف بعضها عن بعض اختلافا يسيرا : **مدرسة القيروان** ، ويمثلها أرفع علمائها **سحنون** ،**مؤلف المدونة** ، **ومدرسة قرطبة** ومنشئوها الكبار : **عبد** الملك بن حبيب ، ومطرف بن قيس ، وابن الماجشون ، وأصبغ بن خليل ، وقامت المدرسة الثالثة فى العراق ، ولم يهمل الإسبان دراسة كتب مدرسة القيروان ،ولكنهم لم يتقبلوا أبدا آراء المدرسة الثالثة ،لأن علماءها كانوا يستخدمون القياس[٢] . ويجب ألا نلجأ إليه ما دام فى الإمكان تطبيق السنة مباشرة .

---

(١) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، الترجمة ٧٧٤ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، جـ ٢ ص ١٧ ، الترجمة الفرنسية و ص ٤٤٦ ، طبعة المكتبة التجارية بالقاهرة .

وكان **موطأ الامام مالك** الكتاب الرئيسى الذى يدرسه الأساتذة ، ويستخدم نصا فى المدارس طوال الحكم العربى ، ابتداء من جامع قرطبة علوا ، وانتهاء بأصغر مصلى تواضعا ،وكان محور دراسات واسعة قامت حوله ، تفسره أو تشرحه ،أو تعلق عليه ، أو تختصره ، أو توضح غريبه . وألفت معاجم خاصة بأسماء الرجال الذين وردوا فيه ، وحتى أسماء الملابس التى عرض لها ، وهو أمر لا يقود إلى شىء ، وبرهان على الورع الزائد المتطرف وحتى الوثنية التى يدفع اليها التقليد الرتيب .

وفى أواخر الحكم الأموى الإسبانى فحسب ، اتضحت بدقة معالم الآراء والتطبيقات الفقهية للمذهب المالكى فى إسبانيا ، وثبتت ، وهى آراء وتطبيقات لا تزال حتى يومنا هذا موضع الاحترام والاقتداء فى كل شمال أفريقيا :تونس والجزائر والمغرب .

• تحرير الوثائق والشروط والفرائض :

كان يمكن أن تدرس هذه المواد ضمن الفقرة السابقة التى أوقفناها على دراسة الفقه ، لأنها ليست إلا تطبيقا عمليا لمبادىء المذهب الفقهى على بعض الحالات العملية ، ولكن رأينا أن نخصها بدراسة مستقلة لأن العادة جرت أن يقوم على تطبيقها فقهاء متخصصون ، ولها موادها وقواعدها الخاصة بها .

ووظيفة **الموثق** ليست وقفا على الأشخاص الذين تسمح لهم السلطة العامة بمزاولة هذه المهنة ، ومن ثم يمكن أن يمارسها أى شخص موضع ثقة من مواطنيه ، وتنتهى حدود وظيفته عند تحرير الوثيقة التى يوقعها الأطراف المتعاقدون ،والذين يحتفظون بأصول الوثيقة ،دون أن تكون هناك مراسم محددة ، ولكن القاضى لا يقبل أى دعوى أمامه دون أن تتوفر فيها بعض الشروط الضرورية ، وبعض الشروط التى تتضمنها الوثيقة قد تكون غير ذات جدوى ، وفى الوقت نفسه قد تضم من العبارات ما يناقض رغبة المتعاقدين ، أو الأطراف المتنازعة ، ومن ثم أصبح من الشائع جدا ، حتى بين الأفراد المثقفين ، أن يلجأ الراغبون فى التعاقد إلى شخص متخصص ماهر ، لديه الخبرة الكافية ، لكى يحرر لهم وثائقهم وفق القواعد القانونية المطلوبة .

كان هؤلاء الموثقون يمارسون مهنتهم فى بيوتهم ،أو فى المساجد ، أو فى الشارع ، أو فى الأسواق ، أو فى حوانيتهم ، وعلى أبواب المدينة ، حيث يكثر عبور المارة ، ويستطيع الراغبون فى خبرته أن يصلوا إليه فى سهولة . وفى هذا المكان ، كما أتصورهم أنا ،

يجلس فوق سجادة ، أو حصيرة ، أو حتى على الأرض الجافة ، وأمامه الكتاب الذى يضم نماذج الوثائق المختلفة ،وإلى جانب منه مقلمته ، ومحبرته فى الجانب الآخر ، وفوق ركبته اليمنى كراسات من ورق ، أو كواغد ، يضغط عليها بيده .

وبلغت وظيفة **الموثق** فى بعض الأزمان ،ولبعض الأشخاص الأذكياء ، قدرا عاليا ، وحقق أصحابها شهرة واسعة ، وكونوا ثروات عريضة ، وقليلون فحسب يستطيعون أن يبلغوا ما حققوه[1] .

وكانت الكتب التى تدرس هذه المادة ، ويعتمد عليها الموظفون ، تتوزع فصولها بين قسمين : القسم الأول نظرى ، يضم المادة باختصار ويبين شروط العقد وأركانه ، وما يتطلبه وما يبطله . والقسم الثانى عملى ، يتمثل فى مجموعة من النماذج المختلفة ، لأنواع من العقود المتنوعة ، تغطى الحالات المتباينة التى يمكن أن تعرض لهم[2] . وثمة صلة تربط بين القسمين ، لأن الكتب النظرية تضم عادة نماذج لصيغ العقود أيضا ، طبقا للأسلوب الشرعى ، لكى يستخدمها أولئك الذين يقومون بالتوثيق تطوعا ، أو عند الاختلاف واللجوء إلى القضاء .

وأقدم ما لدينا من المؤلفات فى هذا الباب **ديوان ابن الهندى القرطبى** ، فى ثلاث طبعات ، فقد أدخل المؤلف على النسخة الأولى كثيرا من التعديل والتنقيح والزيادة ، « قال ابن عفيف : كان حافظا للفقه ، وحافظا لأخبار الأندلس ، بصيرا بعقد الوثائق ، وله فيها ديوان كبير ، نفع الله المسلمين به .قال ابن مفرج : قرأت على أبى عمر ديوانه فى الوثائق ثلاث مرات ، وأخذته عنه على نحو تأليفه له ، فإنه ألف أولا ديوانا مختصرا من ستة أجزاء ، فقرأتها عليه ، ثم ضاعفه وزاد فيه شروطا وفصولا وتنبيهات ، فقرأت ذلك عليه أيضا ، ثم ألفه ثالثة واحتفل فيه ، وشحنه بالخبر ، والحكم ، والأمثال ، والنوادر ، والشعر ، والفوائد ، والحجج ، فأتى الديوان كبيرا . واخترع فى علم الوثائق فنونا ، وألفاظا ،وفصولا وأصولا ، وعقدا عجيبة ، فكتبت ذلك كله ، وقرأته عليه »[3] . وفيما بعد اختصر **ابن ذنيل** ، أبو القاسم أحمد بن سعيد ، النسخة الكبرى من الديوان

---

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ١٢٤٥ .

(٢) فى الملاحق التى تلى هذه الدراسة توجد بعض النماذج لهذا اللون من الوثائق ، ومنها صورة عقد محرر بين تلميذ ومدرس أو بين مدرسين فحسب .

(٣) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ٢١ طبعة القاهرة .

لتسهيل دراسته ، وجاء مختصره هذا فى خمسة عشر جزءا[1] . ثم كثرت المؤلفات التى من هذا النوع حتى ليصعب علينا أن نعطى عنها فكرة ولو موجزة .

والقسم الخاص بمادة الميراث فى التشريع الإسلامى معقد وصعب ، لاختلاف الحصص التى يستحقها الوارثون فيما خلف المتوفى ، وتباين تطبيقها من ميت إلى آخر ، والتشابك بينها ،مما يفسح المجال عادة لعدم الاستقرار بين أفراد الأسرة الواحدة ، ومن ثم أصبحت هذه المادة مستقلة فى الدراسة ، وهى خليط من التشريع والحساب ، وفرع مستقل فى التطبيق الفقهى . ولأن تقسيم المواريث بين المستحقين لا يتوقف بداهة ، فقد وجد الفقهاء دائما مجالا واسعا ، وعملا كثيرا يمارسون فيه نشاطهم ، فازدهر هذا التخصص ، ونفقت دراسته على نحو ملحوظ .

ومن المؤلفات فى هذا الباب كتاب **ابن ثابت** ، ومختصر القاضى **أبى القاسم الحوفى** ، **ثم الجعدى** ، وكانت تدرس فى إسبانيا الإسلامية كلها . [ووصلتنا رسالة هامة عن « قسم المواريث بين المسلمين على مذهب مالك » ، كانت تستخدم بين الموريسكيين ، وكتبت فى اللغة العجمية aljamiada، ونشرت فى مدريد عام ١٩١٤] [2] .

● **دراسات فقهية أخرى :**

أدت دراسة القرآن والسنة إلى نشأة فروع أخرى أيضا ، وسيكون إسهابا منى أن أمضى فى دراستها مستقلة ، **مثل سياسة إدارة الدولة** ، ولدينا عنها أهم كتاب ألف فى الإسلام ، وهو كتاب **سراج الملوك لأبى بكر الطرطوشى** ، وعلم الكلام ، وهو ثمرة دراسة العقيدة بمنهج المدرسيين والفلسفة الإغريقية ، ولون من محاولة التوفيق بين الدين والعقل ، وكان لهذا الاتجاه من يمثله فى إسبانيا ، علماء محترمون نعم ، ولكن دراساتهم لم يكتب لها الذيوع والانتشار على نحو واسع ، إما لأنها لا تتصل بحياة الناس

---

(١) المصدر السابق ، الترجمة رقم ١٠١ .

(٢) الموريسكيون los Moriscos هم المسلمون الذين تخلفوا فى إسبانيا بعد سقوط دولة الإسلام فى الأندلس عام ١٤٩٢ ، وأكرهوا على اعتناق الكاثوليكية فيما بعد ، ثم طردوا من أسبانيا أخيرا ، وكانوا يكتبون الإسبانية بحروف عربية ، وعرفت لغتهم هذه باسم « الخميادو » ، تحريف لكلمة « العجمية » ، والزيادة من عندى لتوضيح مدى اهتمام المسلمين الإسبان بقوانين المواريث الإسلامية حتى آخر يوم من حياتهم على أرض شبه الجزيرة . (المترجم) .

العلمية ، أو للشبهات التى كانت تثيرها دائما فى أعماق الفقهاء ، حتى ولو اتسمت بالزهد ، كما هو الحال عند الغزالى .

وآثر آخرون حياة الزهد ، والمبادىء التى تدعو إلى الحياة التقية الخاشعة سلوكا ، والميل إلى حياة الخلوة ، وكان لها فى اسبانيا أتباع ومدارس ومنشآت ، **مثل خلوة الجبل لابن مسرة ، ورباط ابن مجاهد الإلبيرى ، ومدرسة ابن أبى زمنين** ، وهو من مدينة إلبيرة أيضا ، وغيرهم ، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يبلغوا حد تكوين حلقات فى المساجد يتولون التدريس فيها ، إلا على نحو عابر وخاطف دائما .وكما كانت حياة هؤلاء الأشخاص ، فرسان العلم والدين المتجولون ، كذلك بدأ ظهورهم سريعا دعاة متحمسين ، يفيض داخلهم غيرة وحمية ، مثل هرطقة منحرفة ، منفصلة كلية عن المذهب الرسمى .

ونعرف من هؤلاء الزهاد الششترى الوادى آشى ، واشتهر فى المشرق بمؤلفاته ، وليس أقل شهرة منه ولا خصوبة محيى الدين بن عربى ، ومن مرسية ، وهى مدينة شهدت فى آخر أيامها الإسلامية ، على ما يبدو ، تأصل مذهب وحدة الوجود ، وامتدت فيها جذوره إلى غور عميق .

وارتبطت بالقرآن أيضا ، وعنه صدرت ، علوم أخرى ، قد لا تبدو فى زماننا مقبولة ، مثل دراسة الفضائل السحرية لبعض الآيات القرآنية ، وعلم تفسير الأحلام ، وما إلى ذلك ، ولكنها فى العصر الذى ندرسه كانت مهمة ، وتدرس فى جدية واقتناع .

● **اللغة العربية ، النحو والمعاجم :**

لم تكن دراسة اللغة العربية فى الأيام الأولى للإسلام الإسبانى ذات منهج ، حتى ولا فى المشرق ، لأن مدرستى الكوفة والبصرة لم تكونا قد انتهتا بعد إلى وضع كتب فى قواعد النحو نفسها ، وكان من الضرورى فى إسبانيا ، كما فى بقية العالم الإسلامى ، أن يتعلم الطلاب القواعد من النصوص نفسها ، دون استخدام كتب خاصة بالنحو ، ثم عرفوا بعد ذلك كتبه ، وكان أول ما ذاع بينهم منها كتاب **الكسائى** ، وكتاب **سيبويه** ، وكتبا أخرى . ثم ظهر بين الإسبان أنفسهم من ألف فى هذا الباب رسائل أو كتبا ، وواءموا بين تعليمه وبين الظروف الخاصة القائمة فى إسبانيا .

وقد ألف **جودى بن عثمان المورورى** كتاب **منبه الحجارة فى النحو** ، [وكان أول من أدخل كتاب الكسائى إلى إسبانيا ، وألف **أبو على القالى** رسالة عن **المقصور والممدود** ،

وأخرى عن الأفعال عنوانها : **فعلت وأفعلت** ، **والبارع في اللغة** ، وهو موسوعة لغوية رتب فصولها على أحرف الهجاء ، وكان يقع فى خمسة آلاف صفحة] . ووضع ابن القوطية كتاب « الأفعال فى اللغة » ، وحرره نقاطا تولى تلاميذه فيما بعد تنقيحها وإكمالها ، وذاع واشتهر بين الدارسين(١) . واتجه **الزبيدى** ، إلى جانب دراساته النحوية ، إلى الكتب الأدبية ، يحاول تنقيتها مما تطرق إليها من « لحن العامة » ، ويرشد الأندلسيين إلى ما ينبغي لهم من العربى الصحيح . وقام باختصار **كتاب العين للخليل** بن أحمد ، واحتل المختصر مكانة مرموقة وخالدة بين علماء وطلاب شبه الجزيرة ، ولهذا السبب ، دون غيره بلا شك ، لا نجد أية مخطوطة له ، فى أى مكان ، إلا فى المكتبات الإسبانية ، حيث تحتفظ منه حتى يومنا هذا بخمس نسخ أو ست ، واثنتان منهما ، توجدان فى المجموعة التى كان يملكها بابلو خيل Pablo Gil، وانتقلت ملكيتها إلى جمعية تشجيع الدراسات ، وأحداهما أقدم النسخ كلها(٢) .

ولكن مسلمى إسبانيا لم يقفوا عند هذا الحد ، ولم يرضوا بالرسائل الموجزة الضرورية ، وإنما أعطوا دراسة النحو اهتماما أكبر ، وكان احترام العالم يتوقف على مدى ما يعرف منه ، ويحفظ من أدق خصائصه ، وأصغر تفاصيله ، وبقدر ما له منها يلقى من الاعتبار ، ومن يريد ألا يعد متأخرا ، أو بليدا ، عليه أن يتصدى للكتب الكبرى التى ألفها المشارقة فيه ، وبخاصة كتاب سيبويه ، وكان موضع العناية أكثر من غيره . والحق أن إسبانيا كانت مهيأة تماما لأن تتم فيها هذه الدراسات على نحو أفضل مما يجرى فى أية مقاطعة إسلامية أخرى ، لأن الصبيان يتلقون مبادئ النحو فى المدرسة الابتدائية ، إلى جانب قصائد من الشعر ، ونصوص أدبية أخرى ، تؤهلهم جيدا للدراسات العالية ، لأنهم يتمكنون فى سن مبكرة جدا من القدرة اللغوية عمليا ، دون أن يحدث لهم ما كان يجرى فى المغرب وتونس ، وحتى أيامنا هذه ، حيث يدرسون القواعد بطريقة نظرية خالصة(٣) .

---

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ٧٥٩ ، طبعة مدريد .

● ما بين الخاصرتين لتوضيح تطور التأليف فى النحو . هذا وقد نشر المستشرق الإيطالى جويدى كتاب الأفعال لابن القوطية عام ١٨٩٤ ، ونشره فى الخمسينيات فى القاهرة أستاذى المرحوم الدكتور فؤاد حسنين على . (المترجم)

(٢) شهدت بعينى نسخة المخطوطة الموجودة فى المكتبة الوطنية فى مدريد سليمة ، وكتبت فى خط جميل للغاية ، وحسنة التجليد والتذهيب ، وعورضت على النسخة التى كتبها الزبيدى بخطه للحكم المستنصر . (المترجم) .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، الترجمة الفرنسية ، جـ٣ ص ٣٤٨ ، وطبعة المكتبة التجارية ، ص٥٣٨ .

وكانت النتيجة أن إسبانيا الإسلامية عرفت دائما مؤلفين يكتبون فى بلاغة عالية ، كما هو عليه الحال فى أى بلد إسلامى آخر ، ووجد بها فى كل عصر أساتذة تميزوا بقدرتهم الرائعة على أن يستخدموا اللغة بمهارة ، وفى أكمل صورها ، من **ابن حيان** إلى **ابن الخطيب** .

وحتى فى الأيام الأخيرة للإسلام الإسبانى ، حين بدأت بعض الدراسات تتدهور ، حافظ علماء النحو على نقاء اللغة فى أدق حالاتها ، وبجهد كبير . « قال ابن مسدى : أملى علينا ابن المناصف النحوى بدانية على قول سيبويه : « هذا باب ما الكلم من العربية » عشرين كراسا ، بسط القول فيها فى مائة وثلاثين وجها »[1] .

ويكفى أن نذكر علماء مدرسة إشبيلية ، عندما خرجوا منها إثر وقوعها فى يد النصارى ، وحملوا معهم إلى المغرب تقاليدهم المتوهجة ، أو أن نشير إلى **أبى حيان** ، وكان يلقب « بشيخ النحاة [لعلمه الغزير فى هذا الباب ، وكان إلى جانب ذلك واسع المعرفة بفروع أخرى من العلوم الإسلامية ، كالتفسير ، والحديث ، والشروط والفروع ، وتراجم الناس وطبقاتهم » ، وغير ذلك . وقد بارح أبو حيان الأندلس فى سنة ٦٧٨هـ - ١٢٨٠م ، وطاف بنواحى المغرب ومصر ، ووصل إلى الحبشة ، ثم حج إلى بيت الله الحرام ، وتوجه بعد ذلك إلى الشام ، وانتهى به المطاف آخر الأمر فى القاهرة » .

« وقد أتقن اللغات الفارسية والتركية والحبشية ، وأبدى فى القاهرة نشاطا عظيما ، وخلف شيخه محمد بن النحاس فى أستاذية النحو ، وكان شيخ المحدثين بالمدرسة المنصورية فى القاهرة ، وكان يقرأ القرآن فى المسجد ، وكان متين الخلق ، حسن العشرة ، ذكيا صاحب أفكار مبتكرة ، وفكاهة مستحبة » ، « ولم يبق لنا من كتب ابن حيان إلا كتابان ، على الرغم من أن الذين ترجموا له يقولون إنه وضع خمسين مؤلفا ، الأول فى التفسير ، وهو مخطوط بمكتبة ليدن ، والثانى فى النحو ، عنوانه : **فضل النحو** ، وهو مخطوط فى مكتبة برلين ، وقد ألف أبو حيان كذلك فى نحو الفارسية والتركية »] .

وحتى اليوم فإن كتب ابن **مالك الجيانى** تتخذ نصا للدرس فى أربعة أخماس العالم على الأقل ، حيث تدرس اللغة العربية ، وتتوالى طبعاتها دون توقف ، وتلتقى بها - مثلا - فى أقصى ركن من الهند المسلمة . [ومن بين مؤلفاته الكبيرة **الكافية الشافية** ، وهى

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ، جـ٤ ص١٤١ ، طبعة احسان عباس .

كتاب منظوم فى النحو ، يقع فى ثلاثة ألف بيت من بحر الرجز ، **والألفية** ، وهى مختصر الكافية ، وتقع فى ألف بيت ، وقد نشرها دى ساسى de Sacy مع شرح وتعليق فرنسيين فى عام ١٨٨٣م ، ونقلها إلى الفرنسية بعد ذلك بنتو Pinto عام ١٨٨٧ ، وجوجوييه Gogyer سنة ١٨٨٨ ، ووضع علماء المسلمين فيما بعد شروحا كثيرة عليها ، وبها قدّم **ابن مالك** خدمة جليلة لدارسى النحو العربى ، على الرغم من قدح خصومه فى عمله ، فقد نسق قواعده ، وبسط معلوماته ، وإن كان يؤخذ عليه الغموض ، وعدم الوضوح ، فى بعض المواضع ، مما لا ينبغى أن يقع فى مؤلف تعليمى .

وفيما يتصل بمادة **المعاجم** يكفى أن نذكر مؤلفات **ابن السيد البطليوسى** العالم اللغوى ، « ومن بينها كتابه **المثلث فى اللغة** » .

وقدمه **ابن خلكان** فى **وفيات الأعيان** على أنه « فى مجلدين أتى فيه بالعجائب ، ودل على اطلاع عظيم »[1] . **أو كتاب العالم** الذى ألفه محمد بن أبان بن سيد **اللخمى** ، وقال **ابن حزم** فى شأنه إنه « نحو مائة سفر على الأجناس ، فى غاية الإستيعاب ، بدأ بالفلك ، وختم بالذرة » ، ويقول **ابن حزم** أيضا : إن أحسن تأليف وضع فى علوم اللغة ، وأوفرها مادة ، وأصحها نصوصا ، هو كتاب معاصره **ابن التيانى** ، أبو غالب تمام بن غالب ، وكان أديبا ذا أنفة واعتزاز بما أدرك من شهرة ، حتى لقد أنف أن يزيد فى مقدمة كتابه المذكور عبارة : « مما ألفه تمام بن غالب لأبى الجيش مجاهد » صاحب دانية ، وكان هذا الأخير قد وجه إليه ألف دينار أندلسية « فرد الدنانير ، وأبى من ذلك ، ولم يفتح فى ذلك بابا البتة ، وقال : والله لو بذل لى الدنيا على ذلك ما فعلت ، ولا استجزت الكذب ، لأنى لم أجمعه له ، بل لكل طالب » .

« وقد ألف أبو عبد الله محمد بن إبراهيم **الحجارى** ، المتوفى سنة ٤٨٩هـ — ١٠٩٦م ، كتابا عن المعاجم ، تحدث فيه عنها بإسهاب . ويكاد **ابن سيدة** ، أبو الحسن على بن إسماعيل ، المتوفى ٤٥٨هـ — ١٠٦٦م ، أن يكون أكبر أصحاب المعاجم الأندلسيين ، وكان رجلا بصيرا من أهل مرسية ، وقد درس على أبيه ، وكان بصيرا كذلك ، وعلى صاعد البغدادى ، وأبى عمر الطلمنكى ، ثم دخل فى خدمة مجاهد صاحب دانية ، وقد وضع مؤلفات كثيرة ، بقى لنا منها شرح ديوان المتنبى ، ومعجمان : الأول هو

---

(١) هذه الفقرة زيادة منى للايضاح . (المترجم)

« المخصص فى اللغة » ، وقد رتب ألفاظه بحسب الموضوعات المتقاربة ، والثانى هو المحكم والمحيط الأعظم فى اللغة . [وهو معجم أبجدى يبدأ بالعين ، وقد سار فى وضعه على نهج يقارب نهج الخليل فى معجمه][1] .

ما أكثر ما يجب على مستشرقينا أن يقوموا به الآن فى هذا المجال ، لكى يبلغوا فى هذه المادة ماحققه أسلافهم ، حتى يحق لهم أن يصبحوا خلفاء جديرين بالانتساب إلى أولئك الأعلام الذين عرفوا كيف يجعلون الأدب الإسبانى العربى يحتل مكانا رفيعا .

● **الأدب :**

كان الإسبان المسلمون يفهمون تحت هذا المصطلح : التاريخ ، والشعر ، والنثر الفنى ، والقصص ، وهذه المعارف بلغت القمة فى إسبانيا تميزا ونضجا ، ومن لا يجيدونها يبذلون جهدا طائلا ، وضائعا ، فى أن يأخذوا بحظ منها ، لكى يحتلوا مكانا عاليا يتجاوز حدود وطنهم ، وليشقوا لأنفسهم طريقا يحصلون فى نهايته على تقدير المجتمع ، وأن يعاملهم بوصفهم أشخاصا ممتازين ، لأن « العالم عندهم معظم من الخاصة والعامة ، يشار إليه ، ويحال عليه ، وينبه قدره وذكره عند الناس ، ويكرم فى جوار أو ابتياع حاجة ، وما أشبه ذلك » . أما الذين يفشلون فيجدون أنفسهم فى نهاية المطاف ولا أحد يهتم بهم ، ولا يرونهم إلا أناسا مزعجين ومملين .

والشعر عندهم موضع التقدير السامى من أى عصر ، جاهلى أو إسلامى ، وفى أى غرض قيل ، حماسة أو مديحا ، هجاء أو رثاء ، خمريات أو غزلا ، وفى أى شكل كانت القصيدة ، تقليدية موحدة البحر والقافية ، أو متنوعة ، فى الفصحى أو جاءت عامية خالصة ، كما هو الحال فى الزجل ، وهو ابتداع إسبانى سرعان ما بلغ مرتبة عالية من الإقبال والتقدير . وكان السجع يستخدم فى الرسائل الرفيعة ، وأحيانا فى العادى منها ، وفى الخطب الجامعة ، والدينية ، أو فى حفلات البلاط ، وفى الكتب الأدبية والتاريخية ، وهو صعب الكتابة ، ويحتاج إلى مراس ، ويتطلب معرفة واسعة عميقة باللغة ، ويشهد لكاتبه بالذكاء والثقافة ، ويدرسه الطلاب فى المدارس .

---

(١) كل ما بين خاصرتين زيادة منى لتفصيل ما جاء به المؤلف فى إجمال شديد ، وهو مقتبس من كتاب تلميذه انخل جونثالث بالنثيا عن الأدب الأندلسى . (المترجم)

وكان التاريخ ثمرة ناضجة في بستان الثقافة الإسلامية ، وموضع الدرس والإقبال من الطلاب ، في مختلف جوانبه ، بدءا بأيام العرب القديمة ، وظلت تروى شفاها بالطريقة التقليدية ، أو المدونات التي تسجل الأحداث شهرا فشهرا ، وعاما فعاما ، وتترجم للأعلام في السياسة والدين والأدب ، أو تختص بتدوين الأحداث التي وقعت في بلد ما ، أو لشعب ما ، أو لجنس ما ، وانتهاء بتلك التي تبلغ قمة الرقي ، فتهتم بدراسة العلاقات الاجتماعية ، وتدخل في دائرة ما يمكن أن **نسميه علم الاجتماع أو فلسفة التاريخ** ، **وأعني بذلك ابن خلدون** بخاصة ، ومع أنه ولد خارج إسبانيا ، ولكنه إسباني الأصل ، وتتلمذ على أساتذة ولدوا وتعلموا في إسبانيا ، وعاش في بلد كان يحس يومها بتأثير الحضارة الإسبانية ، في مختلف جوانب حياته ، قويا وعميقا ، أي أن أروع ما أبدع الإسلام في مجال التاريخ ، يمكن - وبحق ! - أن ننسبه إلى بلدنا .

من المستحيل أن نقدم في مساحة محدودة موجزا عن طرائق التعليم في هذا الجانب ، لأن ذلك يتطلب أن نلقي بأنفسنا كلية في خضم التاريخ الأدبي الزاخر ، وظل في بعض جوانبه ، حتى يومنا ، معتما ومجهولا ، ولما تكتشف كل ذخائره .

كان الشاعر يتمتع بالاحترام الاجتماعي ، ويرى نفسه أهلا للتقدير المادي كذلك ، ويقبض في سخاء إذا استطاع أن يتميز في البلاط ، أو في مجتمع الخاصة ، وحتى بين عامة الشعب أنفسهم ، ولم يكن الشعراء الوطنيون وحدهم مناط التقدير والتكريم ، وتنفق أشعارهم في سوق شبه الجزيرة ، وإنما شمل الشعراء الغرباء أيضا ، في أحايين كثيرة ، يتزاحمون على إسبانيا في جلبة ، تشدهم إليها روائح العطايا والصلات .

وفي الوقت نفسه ، كان التخصص في دراسة الأدب يقود إلى مناصب الكتاب اللامعة في البلاط ، وإلى الوزارة ، والولاية ، والقضاء ، ويحرص كبار رجال الدولة ، عادة ، على أن تحرر الوثائق التي تصدر عنهم في لغة فصيحة عالية ، إن لم تكن سجعا أنيقا ، رقيق الحواشي ، موسيقى الإبداع ، وهذا السجع داء اللغات الوبيل ، ولا يمكن التحرر منه أبدا .

وكان إعداد الطالب في الأدب على نحو جيد يتطلب منه أن يدرس المؤلفات المشرقية ، من دواوين شعراء الجاهلية ، وأمهات الكتب الأدبية ، مثل : كتاب الكامل للمبرد ، ومؤلفات أبي على القالي ، وكتابه النوادر بخاصة ، وديوان المتنبي ، وتاريخ ابن أبي خيثمة ، وغيرهم .

أما المؤلفات الإسبانية فى المجال نفسه فتتراوح بين دراسة **الأساطير التاريخية القديمة، التى نظمت فى بحر الرجز، عن سارة القوطية بدءا، وتنتهى بالمقامات الصعبة التى كتبها أبو طاهر محمد** بن يوسف السرقسطى الإشترقونى، نسبة إلى إشترقونة Estercuna ولا تزال مخطوطة فى مكتبة برلين[1]. ومرورا بالمؤلفات التى حررها أصحابها تقليدا للمشارقة، وفى مقدمتها كتاب **العقد الفريد لابن عبد** ربه، وهبوطا حتى الزجل، وهو أدناها مقاما، وأشدها ابتذالا، ولكنه تمتع فى إسبانيا بشعبية عريضة، وكل لون من هذه الدراسات كان له أساتذته وتلاميذه.

وحتى قصائد الحب والخمر المسرفة، والتى تمنعها الأخلاق الدينية دائما، لأنها خارجة أكثر مما يجب، كان لها على الدوام عشاقها بين أهل الأندلس المرحين، ومثلها الأغانى الشعبية أيضا، وتضم كلمات مبتذلة وقبيحة، ولكنها محببة إلى العامة، ويدفعون فى دراستها، وأحيانا كان المسئولون أنفسهم يشجعون على تعليمها، يروى **ابن القوطية فى كتابه «تاريخ افتتاح الأندلس»**، وهو يعرض لأخبار **أمية** بن عيسى، وكان وزيرا للأمير **محمد الأول** (٨٥٢ - ٨٨٦م): «أنه خطر بدار الرهائن، المجاورة لباب القنطرة (بقرطبة) ورهائن بنى قسى ينشدون شعر **عنترة**، فقال لبعض الأعوان إيتنى بالمؤدب، فلما نزل فى فراش المدينة، وأتاه المؤدب، قال لولا أنى أعذرك بالجهل لأدبتك، تعمد إلى شياطين قد شجى الخلفاء بهم، فترويهم الشعر الذى يزيدهم بصيرة فى الشجاعة، كف عن هذا، ولا ترويهم إلا خمريات **الحسن** بن هانىء، وشبهها من الأهزال»[2].

وكان الإملاء الأسلوب المتبع عادة فى تعليم هذه المواد[3]، وإنشاء قصائد الشعر التى يمكن أن تفهم عادة دون حاجة إلى شروح واسعة، وأما الشعر الجاهلى فكانت هناك حاجة ماسة دواما إلى هذه الشروح، حتى بين أصحاب الثقافة الواسعة، فى كل العصور وعند كل الشعوب الإسلامية، وكان على الإسبان المسلمين أن يأخذوا بالمنهج الذى أدخله **صاعد البغدادى**، وهو شاعر مشرقى، وفد إلى إسبانيا فى عصر **المنصور** بن أبى عامر،

---

(١) وله مخطوطة أخرى فى مكتبة لاله لى، ولها مصور بمعهد المخطوطات العربية، ميكروفلم، رقم ٧١٤. (المترجم)

(٢) ص ١٠٧ طبعة مدريد.

(٣) المقرى، نفح الطيب، جـ٢ ص٢٥٧ وما بعدها، طبعة أوربا، وانظر أيضا الوثائق الملحقة بهذا البحث.

وأصبح شاعر بلاطه ، وعماد منهجه أن يقرأ التلميذ الشعر ، ويسأله الأستاذ عن معانى الكلمات ، ويشرحها التلميذ ، بعد أن يكون قد عاد إليها فى كتب المعاجم ، وأعد بها قائمة[1] .

● **الطب :**

يعترف العرب أنفسهم بأن معرفتهم بلغتهم وأدبها ، وبالعلوم الشرعية نفسها ، ارتبطت كلها بدءا بالقرآن والسنة . أما بقية العلوم الأخرى فقد تعلموها من الشعوب التى افتتحوها ، أو كانوا على صلة بها ، وأنهم تمكنوا من العلوم القديمة التى تخلفت عن الحضارات التى سلفت . والطب ليس أعلاها فى مجال الفكر والتأمل ، ولكنه أكثرها أهمية فى مجال العمل والتطبيق ، وعن تعليمه سوف أتحدث :

إن المعارف المنهجية الأولى لهذا العلم ، والتى تتجاوز التجارب الأساسية التى يعرفها أى شعب حتى فى أشد الظروف تخلفا وهمجية ، استمدها العرب من الفرس . وكان الأطباء الذين يخدمون الأمراء الأمويين أنفسهم فى المشرق من المسيحيين ، ويستخدمون فى تدريس المادة الترجمات من الفارسية ، أو اليونانية ، أو الهندية ، وغيرها من اللغات .

وعرفت إسبانيا الإسلامية أطباء مسلمين ، ومن المسيحيين واليهود ، حقق بعضهم شهرة عريضة ، وأولئك وهؤلاء اعتمدوا فى الجانب الأكبر من دراساتهم الأولية على المبادئ التى انتهى إليها أندادهم فى المشرق ، وجئ بها إلى شبه الجزيرة ، بواسطة الأطباء المشارقة الذين وفدوا إلى هنا ، أو عن طريق الإسبان الذين ذهبوا إلى المشرق ليدرسوا هناك . [فقد وفد على الأندلس **يونس أحمد الحرانى** ، قادما من المشرق ، فى إمارة **محمد** بن عبد الرحمن ، واستقر هنا ، وأن **عمر بن حفص بن برتق** درس فى **القيروان** على **ابن الجزار** ، فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى ، وأخذ عنه كتاب **زاد المسافر** فى علاج الأمراض ، وهو كتابه الرئيسى ، وهو الذى أدخله إلى الأندلس . ومن أطباء الأندلس الذين رحلوا إلى المشرق **محمد بن عبدون الجبلى** ، رحل إلى المشرق ، عام ٣٤٧هـ -٩٥٨م ، ودخل البصرة ومصر ، ودبر مارستانيهما ، وتمهر فى الطب ونبل فيه ، وأحكم كثيرا من فصوله ، وعانى صناعة المنطق عناية صحيحة ، ثم رجع إلى الأندلس عام ٣٦٠هـ - ٩٧١م ، فخدم الحكم المستنصر بالله ، وهشام المؤيد بالله ،

---

(١) ابن الابار ، التكملة ، الترجمة رقم ٤٠٣ .

وكان قبل أن يتطبب مؤدبا فى الحساب والهندسة ، وله فى التكسير كتاب حسن . وأخيرا ، من المؤكد أن التيار المشرقى تعمق وتأصل ، وقضى تماما على أى أثر لكل التقاليد الإسبانية القديمة التى سبقت الإسلام .

وكان معقولا أن يحدث هذا ، على الأقل فى العصور الأولى ، لأن أقصى ما يمكن أن يحققه طالب الطب فى إسبانيا الإسلامية أن يدرس كتب هذا العلم تحت إشراف طبيب متمكن ، وربما صحبه فى زياراته العادية للمرضى من زبائنه ، أو أن يحضر الفحوص التى يجريها فى منزله ، حيث تعود بعض الأطباء أن يستقبلوا المرضى الفقراء مجانا ، على حين أن مجال الملاحظة فى مدن الشرق أرحب اتساعا ، فمنذ أيام الإسلام الأولى كانت هناك مستشفيات كبرى ، ومن السهل على الطالب أن يجد الأستاذ الذى يدرس عليه ، فقد كان عدد الأطباء الذين يعملون فى المستشفى الواحد كبيرا ، ويبلغون العشرين أحيانا ، وإلى جانب أن المرضى كثيرون ، وأمراضهم متنوعة ، ومن ثم يتاح للطالب أن يرى عملا ، فى أى وقت ، ما كان قد درسه نظريا فى الكتب . وأما فى إسبانيا فكان ينقص الطلاب ، رغم ما هم عليه من ذكاء واهتمام ، الملاحظات والتجارب العملية ، أو قلتها[١] .

ومع ذلك لدينا ما يهدى إلى الطريقة التى يتم فيها تعليم الطب ، فى مخطوطة لمحمد التميمى الطليطلى تحتفظ بها مكتبة الإسكوريال ، وتحتوى على بعض المذكرات التطبيقية التى كتبها أحد الطلاب ، ويرى ميخائيل غزيرى أنها مذكرة لامتحان عملى ، وكان يعتقد دون شك أن الطب يومها كان يدرس فى المدارس العالية ، وهى تعرض لنا الخطة التى كانت متبعة فى الدراسة العملية للطب فى إسبانيا ، وطبقا لما نستخلصه من بعضها ، وتبلغ الخمسين لو كان الكتاب كاملا ، فإن الطريقة المعتادة تتم على النحو التالى :

يفحص الطبيب المريض عندما يعرض عليه ، ويسأله عن كل ما يعتقد أنه مفيد فى تحديد المرض ومعرفته ، ثم يدعو الطالب لكى يفحصه أيضا ، وخلال تبادل الأسئلة والملاحظات بين الأستاذ والطالب تتم عملية الإعداد ، وفى النهاية يكتب الطبيب العلاج . ويحدث كثيرا أن يسأل الأستاذ الطالب عما يعرفه عن المرض موضع الفحص والدراسة ،

(١) ليس لدى أخبار عن مستشفيات فى إسبانيا العربية ، فى حدود ما أعرف ، وقد أفدت من كتاب ليكلرك Leclerc عن « تاريخ الطب العربى » بخاصة ، فى تحرير هذه المادة ، وكل ما أورده خبر عن مستشفى وحيد كان قائما فى الجزيرة الخضراء فى القرن الثانى عشر الميلادى .

ومدى معلوماته عنه ، ويفسر له ما غمض عليه فى الفحص قبل أن يلقي الدرس ، على نحو ما يحدث الآن فى المحاضرات ، فهى تعطى بعد مشاهدة المرضى ، وأى شيء يواجه الطالب فى التشخيص أو العلاج ، ويصعب عليه فهمه ، ولا يدرك كنهه ، يسأل الأستاذ تفسيرا له ، ولن يبخل عليه هذا بالجواب .

ومع أننا لا نعرف شيئا عن المناهج القديمة ، فإن ذلك لا يقلل من قيمة المعلومات المثيرة التى تضمنتها هذه المخطوطة ، وخاصة فيما يتصل بالدراسة العملية فى تلك الأيام .

ونقص الوسائل المتاحة للدراسة العملية فى إسبانيا يفسر لنا ، ربما ، ظاهرة حرص بعض الأسر على أن تتوارث مهنة الطب ، وأن يتخصص أفرادها فيه ، لأن قلة فحسب هى التى يتاح لها ما يتاح لابن الطبيب نفسه ، من التدريب الجيد ، والدراسة العلمية المتواصلة ، فهو يصحب والده دواما ، فهكذا نرى أسرة **المذحجى** فى قرطبة ، وقد جاء جدهم الوليد من المشرق ، وأصبح الطبيب الخاص **لعبد الرحمن الداخل** ، وأورث مهنته لخلفه من بعده ، حتى الجيل السابع فيما نعرف[١] . والشيء نفسه يقال عن أسرة **يونس** بن أحمد الحرانى ، وبنى زهر ، وابن الرومية ، وآخرين[٢] .

وكان الأطباء وحدهم يدرسون علم النبات ، والأحياء ، والعلوم الطبيعية الأخرى ، إذ كان عليهم أن يقوموا فى الوقت نفسه بعمل الصيدلى ، وأن يعدوا الدواء من الأعشاب والعقاقير . ويذكر **ابن جلجل** ، أنه رأى اثنى عشر صبيا من الصقالبة ، مهمتهم تحضير الأدوية للطبيب أحمد بن يونس .

لا أظن المكان هنا مناسبا لكى نشير إلى المؤلفات العظيمة التى كتبها كبار الأطباء الإسبان ، مثل مؤلفات الطبيب والجراح العظيم **أبو القاسم** الزهراوى[٣] ، وعرف عند الأوربيين فى العصور الوسطى وما تلاها باسم Abulcacis، [وأهمها كتابه **التصريف لمن عجز عن التأليف** ، وقد طار ذكره بين أهل الشرق والغرب ، ويعتبر بحق موسوعة طبية عظيمة ، وقد ترجمه إلى اللاتينية **جيراردو الكريمونى** ، وطبعت الترجمة اللاتينية على

---

(١) التكملة لابن الأبار ، الترجمة رقم ١٥٢٠ ، طبعة مدريد .

(٢) لا أظن الأمر يعود إلى ما رأى العالم الجليل فقط ، لأننا نلتقى بهذه الظاهرة بين أسر الفقهاء أيضا ، يورثون أبناءهم علمهم ، فهناك بنو يحيى بن يحيى الليثى ، وبنو بقى بن مخلد، وبنو سعيد بن منذر البلوطى ، وغيرهم (المترجم) .

(٣) نسبة إلى مدينة الزهراء ، وعن الزهراء انظر : فون شاك ، تاريخ الفن العربى فى إسبانيا وصقلية ، الطبعة الثانية ، ص ٤٢ ، ترجمة د . الطاهر أحمد مكى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥ .

مراحل ، ففى عام ١٤٧١م طبع منها جزء كثر استعماله ، بعنوان « كتاب الخادمين Liber servitoris » ، وموضوعه تحضير الأدوية المفردة ، وقد انتفع به الناس كثيرا ، وفى عام ١٥١٩م ، طبع منه جزء بعنوان « كتاب النظر والعمل Liber theoricae et practicae أما الجزء الثلاثون فقد نشر باسم الجراحة Chirugia . وكان أهم وأذيع كتاب فى تاريخ الطب كله ، وارتفع به الزهراوى فى أعين الناس إلى طبقة أبقراط وجالينوس ، وهو يحوى رسوم آلات الجراحة ، وأول مؤلف جعل من الجراحة علما قائما بذاته ، مستقلا عن الطب ، وأقامها على أساس من العلم بالتشريح] ، وكذلك مؤلفات ابن رشد ، وابن باجة ، والمؤلفات القيمة التى كتبها علماء الطبيعة المشهورين ، أمثال ابن جلجل ، وابن البيطار ، وأبى العباس بن الرومية الإشبيلى ، ويكفى لتحقيق غايتنا أن نشير إلى أن كتاب التيسير لعبد الملك بن زهر ، [وقد أهداه إلى ابن رشد ، ويعتبر خير ما ألف المسلمون فى الطب العملى ، وتحرر فيه من كل ما كان يقيد غيره من آراء نظرية ويأخذ بما تؤدى إليه الملاحظة المباشرة ، مفضلا ذلك على متابعة جالينوس وغيره من القدماء . وكان يأنف من الفصد والجراحات ، رغم أنه لجأ إليها أحيانا ونجح فيها ، ويرى أنه لا ينبغى للطبيب أن يقوم بتحضير الأدوية ، فسبق بهذا إلى مفهوم الطب الحديث من فصل الجراحة عن الطب الباطنى ، وعن الصيدلة] . وكان كتابه « التيسير » المرجع الرئيسى الذى تقوم عليه الدراسة فى مدارس الطب الإسبانية فى العهود الأخيرة من حياة الإسلام .

● **الفلسفة ، والفلك ، وغيرها :**

جمعنا بينهما فى الدرس ، ولو أن كل واحد منهما يختلف عن الآخر تماما ، ورغم أن الأول منهما لم يجد الرضى والقبول بعامة ، مثل بقية فروع المعرفة الأخرى التى عرضنا لها من قبل ، ولم نفصل بينهما لأنهما مضيا سويا ، وكان حظهما من التعاسة والنكسات واحدا .

لم تكن الفلسفة يوما موضع الرضا من عامة المسلمين ، وكانوا يرمون بالزندقة أولئك الذين يضعفون أمامها ، فيغرمون بها ، ويقبلون عليها ، وقد اعتنق عامة الإسبان الإسلام فى صدق ، وحرصوا على تنفيذ أحكامه فى دقة وتأثروا فى هذا الجانب بالتيارات التى كانت سائدة بين الفقهاء ، ولكن الطبقة العليا منهم ، وأسلموا رجاء أن يحتفظوا بإقطاعياتهم التى يملكونها فى هدوء ، لا أملا فى دخول الجنة ، ودون أن يفكروا فى الآخرة ، والذين يتعلمون حبا فى العلم نفسه ، لا رغبة فى مناصب يشغلونها ، أولئك وهؤلاء :

كيف يفضلون العلم التقليدى ، والعمل الآلى ، فيحشون ذواكرهم بما فى كتب الفقه الضخمة ، المليئة بالفتاوى والأحكام ، وأسماء الرواة ، على الدراسة التى تروى غلة طموح أسمى ما فى الروح ؟ . ومن ثم كان فى هذه الطبقات دائما تقاة وهواة ، يمارسون تقواهم علنا ، واحتفظوا بهواهم للفلسفة سرا ، حتى لا يفارقهم الناس مرعويين إذا شموا رائحة هوايتهم هذه ، ويدعون التعامل معهم خائفين ، وقد يصبح الفيلسوف ، إذا افتضح أمره ، موضع السخرية المبتذلة والحقيرة من العامة ، وقد تبلغ الشبهة بصاحبها أن تعطى خاتمة حياته شكلا مأسويا .

وهذا الخوف جعل من المستحيل أن تأخذ دراسة الفلسفة طابعا شعبيا ، وإذا قدر لها أن تأخذ طريقها إلى المدارس ، تم ذلك على نحو عابر وفى حذر شديد .

يروى أن شخصا من أسرة بنى زهر الشهيرة رأى ذات يوم كتابا فى المنطق بين يدى أحد طلابه الذين يترددون على بيته لدراسة الطب ، فأخذ الأستاذ الكتاب ، وألقى به في جانب من القاعة ، وجرى وراء الطلاب فى عبوس غاضب ، وقرر أن يعاقبهم ، وتسلل الطلاب الغلابى واحدا وراء آخر ، وغابوا عن الدرس عدة أيام ، ثم استجمعوا شجاعتهم أخيرا ، وذهبوا إلى الأستاذ ، واعتذروا له بأفضل الطرق عن جرأتهم فى إحضار كتاب ممنوع . وتظاهر ابن زهر بتصديقهم ، وتابع إلقاء دروسه فى الطب ، وخصص لهم بعض الوقت لدراسة علوم القرآن والسنة ، وطلب منهم أن يعنوا بالمحافظة على شعائر الدين بخاصة ، وأن يتعمقوا فى الإحاطة بالمفاهيم الإسلامية ، واستجاب الطلاب لنصائح أستاذهم راضين ، فلما اقتنع بأنهم أصبحوا مهيئين تماما ، أحضر نسخة من كتاب المنطق الذى سبق أن منعهم من قراءته ، وقال لهم : « الآن وقد أصبحتم مستعدين لا أرى مانعا من شرحه لكم ، وبدأ يشرح لهم ذلك الكتاب »[1] .

يمثل موقف ابن زهر الرأى الذى كان يسير عليه أكثر الناس فطنة ، عادة ، فى عصره ، إما تظاهرا حتى لا يعرف عنهم هذا الإتجاه ، وإما صادقين دينا فى ترددهم ، لأنهم يدركون تجربة ما يمكن أن تحدثه دراسة الفلسفة فى نفوس الشبان من أذى ، إذا لم يكن فهمهم قد كمل نضجا ، ويرون أنها علم يلائم الروح تماما ، إذا تعمق الإنسان

(١) لم يذكر المؤلف المصدر الذى اعتمد عليه ، ونقل عنه هذه القصة ، ولم أستطع الاهتداء إليه بدورى وأنا أقوم بالترجمة ، فترجمته حرفيا عن الأصل الإسبانى .

دينا ، وقوى عقيدة ، وأصبح إيمانه أثبت من أن يهزه علم يعطى كل اهتمامه للعقل الإنسانى ، ويعتمد على الفهم ، ويدير ظهره للأمور التى تعتمد على الوحى فحسب .

لا تحتاج الفلسفة ، لحسن الحظ ، أن يهتم العامة بمصيرها ، وعلى الرغم من كراهية العامة لها كان فى إسبانيا دائما من يهواها ، منذ أيام **ابن مسرة** ، وعاش فى خلوة مع تلاميذه ومريديه ورفاقه ، فى القرون الأولى من تاريخ إسبانيا الإسلامية ، حتى دعاة **وحدة الوجود** من صوفية مرسية فى أيام الإسلام الأخيرة على بطحاء شبه الجزيرة ، وتوهجت فى سمائها ، خلال أفضل أيامها ، ثلاثة كواكب عظيمة : **ابن باجة** ، **وابن طفيل** ، **وابن رشد** .

ولأن الفلسفة لم تستطيع العيش علانية لم يتح لها أيضا تكوين تقاليد علمية فى تدريسها ، وكل ما هنالك أننا ندرك من الطريقة التى سار عليها ابن رشد فى الشرح العظيم الذى قام به لمؤلفات أرسطو ، وحرره طلابه أولا خلال الشرح الشفوى الذى كان يقوم به فى الدرس ، أنه كان يحتذى نهج المفسرين فى تفسير القرآن الكريم : يكتب نص الكتاب الفلسفى كما تلقاه ، ثم يقدم للمادة شرحا يضطلع به نفسه .

وكان الفلك ، كما رأينا ، يعانى من ضغط العامة أيضا ، وجاءت فترات من الوقت كان تدريسه ممنوعا ، إلا ما لابد منه لتحديد اتجاه القبلة فى المساجد ، وتعيين مواقيت الليل والنهار على مدار العام لتعرف أوقات الصلاة ، والاستيثاق من مواعيد الأهلة ، فإذا تجاوز الإنسان هذه المطالب من العلم فقد غرر بنفسه . « ونتيجة لهذا كان الناس يرمون بالزندقة كل من تجشم السير فى أوعار هذا الطريق ، ومع هذا فقد كان جمهور الناس يتجاوزون عن المنجمين والعرافين ، ومن يستخرجون الفأل ، والمتنبئين والسحرة ، وصناع الأحجبة والطلاسم ، وأما الفلك فقد كان محرما ، رغم أنه أقرب إلى العقل » .

ولم ينتشر هذا العلم على نحو واسع أيضا ، لصعوبة فهمه ، وارتفاع موضوعه ، ولأن ممارسته مهنة لا تدر مالا ، ولا يجنى صاحبها من ورائها مستقبلا ، وليس وراءها غير سوء ظن الناس بمن يشتغل به .

ولكن الأيام دول ، والزمن لا يمضى سيئا على الدوام ، وحتى فى الأيام السيئة أتاحت حرية التعليم وسطا مهيأ لأن يسخر من رقابة السلطة ، وأن يتجافى نظرات الشعب المعادية ، وعرفت هذه المواد علماء مشهورين يتمثلون فى مدرسة **مسلمة المجريطى** [وهو

من أقدم علماء المسلمين ذوى الأهمية فى إسبانيا ، ومن بين مأثور كتبه **رسالة الاسطرلاب** ، و« **ثمار العدد** » ، ونشر وصحح جداول النجوم ، أو الزيجات ، التى وضعها الخوارزمى ، وهى أول جداول ألفها مسلم ، وعدل أساسها من عصر يزد جرد الفارسى إلى عصر الإسلام ، ووضع أوساط الكواكب فيه لأول تاريخ الهجرة ، وله ترجمة لكتاب **قبة الفلك لبطليموس** ، وقد نشرت ترجمته اللاتينية فى بازل بسويسرة عام ١٥٣٦م] ، ونبغ فى مجال الفلك أيضا ابن برغوث ، محمد بن عمر ، وتخرجت على يديه طائفة زاهرة من الرياضيين ، [وظهر **الزرقالى** ، أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى ، وهو أعظم أهل الفلك من العرب ، ومن كبار علمائه فى العصور القديمة ، وقد وضع جداول فلكية ، وركب اسطرلابا ، واخترع أجهزة دقيقة « كالزرقالية » ، و« الصفيحة » ، وهذه الكلمة دخلت إلى اللغات الأوربية فى صورة asafea وابتكر فى الفلك نظريات جديدة هامة عن الكواكب السيارة ، والحركات الدائرية للنجوم] ، وابن حى ، وغير هؤلاء كثيرون ، وبعضهم أصابه سوء الحظ فى إسبانيا ، فوجد العزاء والتقدير عند أمراء ممتازين فى أقصى المشرق ، أفاضوا عليه الإجلال والتكريم(١) .

أما بقية العلوم الرياضية الأخرى ، مثل الحساب ، والجبر ، والهندسة وغيرها ، فكان تدريسها لذاتها أحيانا ، أو لتطبيقها فيما تتطلبه الحياة الاجتماعية واليومية من حساب ، فى التجارة ، وتقسيم الأراضى ، والخراج والضرائب وما إلى ذلك .

وكان تدريس هذه المواد يتم فى رسائل ألفها علماء إسبان ، وشاع استخدامها فى المدارس ، [وأول من اشتهر فى الأندلس بعلم الأوائل والحساب والنجوم ، **أبو عبيدة** مسلم بن أحمد ، المعروف بصاحب القبلة ، لأنه كان يشرق فى صلاته ، وكان عالما بحركات الكواكب وأحكامها ، وكان صاحب فقه وحديث ، دخل المشرق ، وسمع بمكة ومصر .

« ومنهم يحيى بن يحيى المعروف **بابن السمينة** ، من أهل قرطبة ، وكان بصيرا بالحساب والنجوم ، والنحو واللغة والعروض ومعانى الشعر ، والفقه والحديث ، والأخبار والجدل ، ودخل المشرق ، وقيل إنه كان معتزلى المذهب »](٢) .

---

(١) التكملة لابن الأبار ، الترجمة رقم ٧٧ .

(٢) الزيادة من نفح الطيب ، جـ ٣ ص ٣٧٥ ، طبعة إحسان عباس .

ومنهم **ابن السمح** ، أبو القاسم أصبغ الغرناطى [« وكان متحققا بعلم العدد والهندسة ، متقدما فى علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم . وكانت له مع ذلك عناية بالطب ، وله تواليف حسنة منها : « المدخل إلى الهندسة » ، فى تفسير كتاب إقليدس ، ومنها كتاب « ثمار العدد » المعروف « بالمعاملات » ، ومنها كتاب « طبيعة العدد » تقصى فيه أجزاء من الخط المستقيم والمقوس والمنحنى ، ومنها كتاباه فى الآلة المسماة بالاسطرلاب ، أحدهما فى التعريف بصورة صنعتها ، وهو مرتب على مقالتين ، والآخر فى العمل بها ، والتعريف بجوامع ثمارها ، وهو مقسم على مائة وثلاثين بابا . ومنها زيجه الذى ألفه على أحد مذاهب الهند المعروف « بالسند هند » ، وهو كتاب كبير مقسم على جزئين أحدهما فى الجداول ، والأخرى فى رسائل الجداول] (1) .

[وأبو القاسم بن الصفار ، وكان عالما بالهندسة والعدد والنجوم وله زيج مختصر على مذاهب « السند هند » ، وله كتاب فى عمل الاسطرلاب ، موجز العبارة ، قريب المأخذ .

« ومنهم أبو الحسن **الزهراوى** ، وكان عالما بالعدد والطب والهندسة ، وله كتاب شريف فى المعاملات على طريق البرهان » .

« ومنهم أبو الحكم عمر **الكرمانى** ، من أهل قرطبة من الراسخين فى علم العدد والهندسة ، ودخل المشرق ، واشتغل بحران ، وهو أول من دخل برسائل إخوان الصفا إلى الأندلس » .

« ومنهم **أبو مسلم ابن خلدون** ، من أشراف إشبيلية ، وكان متصرفا فى علوم الفلسفة والهندسة والنجوم والطب ، وتلميذه **ابن برغوث** ، وكان عالما بالعلوم الرياضية ، وتلميذه أبو الحسن مختار **الرعينى** ، وكان بصيرا بالهندسة والنجوم ، **وعبد الله بن أحمد السرقسطى** ، كان نافذا فى علم الهندسة والعدد والنجوم ، **ومحمد بن الليث** ، كان بارعا فى العدد والهندسة وحركات الكواكب ، **وابن حى** ، قرطبى بصير بالهندسة والنجوم ، وخرج عن الأندلس سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ، ولحق بمصر ، ودخل اليمن ، عارف بالهندسة والمنطق والزيوج »] (2) ، وغيرهم ممن يطول تعدادهم .

(1) الزيادة من كتاب صاعد الطليطلى ، طبقات الأمم ، ص ١٠٧ وما بعدها ، طبعة السعادة ، القاهرة .

(2) الزيادة التى بين الخاصرتين من نفح الطيب ، جـ ٣ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ ، وهى إيجاز طيب لحركة دراسة الرياضيات ، والمؤلف اكتفى ببعض الأسماء . (المترجم)

• **الموسيقا :**

يقول **ابن خلدون** : لم تجد الموسيقا فى إسبانيا تقديرا كبيرا ، وكان الفنانون محتقرون ظنا بأنهم يمارسون مهنة واطية وعامية[1] . وهو رأى مبالغ فيه ، وربما أدى إلى هذا الخطأ أن ابن خلدون زار إسبانيا الإسلامية فى فترة انحطاطها ، أو أنه تأثر بفكرة كانت شائعة فى بعض الأوساط الاجتماعية . نعم ، كان المغنون والموسيقيون من الجوارى ، أو عامة الشعب ، أو الأجانب ، ولم تكن نظرة الطبقة العليا إليهم تنطوى على التقدير أو الاحترام ، وكان اعتراض الفقهاء شديدا على ما فى أغانيهم من الميوعة والخلاعة والمجون ، وعد الأتقياء الطيبون هذا الفن الجميل شيئا غير كريم . ولكن ذلك كله لا يعنى أن الشعب الإسبانى فى جملته لم يكن يقدر الفنانين الذين يستحقون الإجلال والتقدير ، أو أنه تخلى عن حب الموسيقا الجميلة ، حتى لو كانت خطيئة مغتفرة . ولدينا الدليل واضحا جليا فيما حدث لأعظم فنان عرفته تلك العصور ، أصالة فى فنه ، وعمقا فى معارفه ، وصنع مجيئه إلى إسبانيا عصرا ، وحدد تاريخا ، ويمكن أن يعتبر بحق مؤسس المدرسة الوطنية الإسبانية فى الموسيقا والغناء ، تدريسا وممارسة ، وذلك الفنان هو : **زرياب** .

ما كاد زرياب يخاطب الحكم الأول حتى سر هذا « بكتابه ، وأظهر له من الرغبة فيه ، والتطلع إليه ، وإجمال الموعد ما تمناه ، فسار زرياب نحوه بعياله وولده ، وركب بحر الزقاق إلى الجزيرة الخضراء ، فلم يزل بها حتى توالت عليه الأخبار بوفاة الحكم فهم بالرجوع إلى العدوة ، فكان معه **منصور اليهودى** المغنى رسول الحكم إليه ، فثناه عن ذلك ، ورغّبه فى قصد القائم مقام الحكم ، وهو **عبد الرحمن** الأوسط ولده ، وكتب إليه بخبر زرياب ، فجاءه كتاب عبد الرحمن يذكر تطلعه إليه ، والسرور بقدومه عليه ، وكتب إلى عماله على البلاد أن يحسنوا إليه ، ويوصلوه إلى قرطبة ، وأمر خصيا من أكابر خصيانه أن يتلقاه ببغال ذكور وإناث وآلات حسنة .

---

(١) نص ابن خلدون لا يعطى هذا المعنى تماما ، فهو يقول ، بصدد زرياب : « فأورث الأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف ، وطما منها بإشبيلية بحر زاخر ، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العدوة بأفريقية والمغرب ، وانقسم على أمصارها ، وبها الآن صبابة على تراجع عمرانها ، وتناقص دولها ، وهذه الصناعة آخر ما يحصل فى العمران من الصنائع ، لأنها كمالية فى غير وظيفة من الوظائف ، إلا وظيفة الفراغ والفرح ، وهو أيضا أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه » ، المقدمة ، ص ٤٢٨ ، طبعة المكتبة التجارية .

« فدخل هو وأهله البلد ليلا صيانة للحرم ، وأنزله في دار من أحسن الدور ، وحمل إليها جميع ما يحتاج إليه ، وخلع عليه ، وبعد ثلاثة أيام استدعاه ، وكتب له فى كل شهر بمائتى دينار راتبا ، وأن يجرى على بنيه الذين قدموا معه – وكانوا أربعة : عبد الرحمن ، وجعفر ، وعبيد الله ، ويحيى – عشرون دينارا لكل واحد منهم كل شهر ، وأن يجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار ، منها لكل عيد ألف دينار ، ولكل مهرجان ونوروز خمسمائة دينار ، وأن يقطع له من الطعام العام ثلاثمائة مدى ، ثلثاها شعير وثلثها قمح ، وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوم بأربعين ألف دينار .

« فلما قضى له سؤله ، وأنجز موعوده ، وعلم أن قد أرضاه ، وملك نفسه استدعاه ، فبدأ بمجالسته على النبيذ وسماع غنائه ، فما هو إلا أن سمعه فاستهو له ، واطرح كل غناء سواه ، وأحبه حبًا شديدًا ، وقدمه على جميع المغنين ، وكان لما خلا به أكرمه غاية الإكرام ، وأدنى منزلته ، وبسط أمله ، وذاكره فى أحوال الملوك ، وسير الخلفاء ، ونوادر العلماء ، فحرك منه بحرا زخر عليه مده ، فأعجب الأمير به ، وراقه ما أورده ، وحضر وقت الطعام فشرفه بالأكل معه هو وأكابر ولده ، ثم أمر كاتبه بأن يعقد له صكا بما ذكرناه آنفا ، ولما ملك قلبه ، واستولى عليه حبه ، فتح له بابا خاصا يستدعيه منه متى أراد »[1] .

لو أن مظاهر التقدير هذه كانت الوحيدة التى تلقاها ، لوصفنا العمل بأنه إسراف مقيت ، من أمير متقلب الأهواء . لا يمتد إلى بقية الشعب ، لكن الواقع أن الموسيقى الموهوب ، ذا الحديث العذب ، والسلوك الأنيق ، كان موضع الترحيب من الجميع ، حتى أصبح القدوة لأنماط ما يرتدون من أزياء فى تلك الأيام ، واتخذ الناس منه مثلا فى شكل ملابسه ، ونوع قماشه ، وتسريحة شعره ، وأثاث بيته ، وغير ذلك كثير ، وبعض المبتدعات الجديدة التى أدخلها أصبحت تقاليد قومية ، واستمرت قائمة حتى آخر أيام الإسلام الإسبانى وما بعدها .

وفيما يتصل بفنه حدث ولا حرج ! ، فقد تجلت أصالته فى كل شىء ، فزاد « فى أوتار عوده وترا خامسا اختراعا منه ، إذ لم يزل العود ذا أربعة أوتار على الصنعة القديمة التى قوبلت بها الطبائع الأربع ، فزاد عليها وترا خامسا أحمر متوسطا ، فاكتسب به عوده

(١) نفح الطيب ، جـ ٣ ص ١٢٤ – ١٢٥ ، طبعة إحسان عباس .

ألطف معنى وأكمل فائدة ، وذلك أن الزير صبغ أصفر اللون ، وجعل فى العود بمنزلة الصفراء من الجسد ، وهو فى الغلظ ضعف الزير ، ولذلك سمى مثنى ، وصبغ الوتر الرابع أسود ، وجعل من العود مكان السوداء من الجسد ، وسمى البم ، وهو أعلى أوتار العود ، وهو ضعف المثلث الذى عطل من الصبغ وترك أبيض اللون ، وهو من العود بمنزلة البلغم من الجسد ، وجعل ضعف المثنى فى الغلظ ، ولذلك سمى المثلث ، فهذه الأربعة من الأوتار مقابلة للطبائع الأربع تقضى طبائعها بالاعتدال ، فالبم حار يابس يقابل المثنى وهو حار رطب وعليه تسويته ، والزير حار يابس يقابل المثلث وهو حار رطب ، قوبل كل طبع بضده حتى اعتدل واستوى كاستواء الجسم بأخلاطه ، إلا أنه عطل من النفس ، والنفس مقرونة بالدم ، فأضاف زرياب من أجل ذلك إلى الوتر الأوسط الدموى هذا الوتر الخامس الأحمر الذى اخترعه بالأندلس ، ووضعه تحت المثلث وفوق المثنى ، فكمل فى عوده قوى الطبائع الأربع ، وقام الخامس المزيد مقام النفس فى الجسد »[1] .

« وأوتارى (الأول والثانى منها) من حرير لم يغزل بماء سخن يكسبها أناثة ورخاوة ، وبمها ومثلثها اتخذتهما من مصران شبل الأسد ، فلها فى الترنم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف مالغيرها من مصران سائر الحيوان ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها »[2] .

« وهو الذى اخترع بالأندلس مضراب العود من قوادم النسر ، معتاضا به من مرهف الخشب ، فأبرع فى ذلك للطف قشر الريشة ونقائه ، وخفته على الأصابع ، وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه »[3] .

ولدينا تفصيلات لا بأس بها عن منهجه فى التدريس ، « وكان إذا تناول الإلقاء على تلميذ يعلمه أمره بالقعود على الوساد المدور المعروف بالمسورة ، وأن يشد صوته جدا إذا كان قوى الصوت ، فإن كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة ، فإن ذلك مما يقوى الصوت ، ولا يجد متسعا فى الجوف عند الخروج من الفم ، فإن كان ألص[4] الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق ، راضه بأن يدخل فى فيه

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٣ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٦ .
(٤) تقارب أضراسه حتى لا يرى بينها خللا . « المترجم »

قطعة خشب عرضها ثلاثة أصابع ، يبيتها فى فمة ليالى حتى ينفرج فكاه ، وكان إذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أمره أن يصيح بأقوى صوته : يا حجام ، أو يصيح : آه ، ويمد بها صوته ، فإن سمع صوته بهما صافيا نديا قويا مؤديا ، لا يعتريه غنة ولا حبسة ولا ضيق نفس ، عرف أنه سوف ينجب ، وأشار بتعليمه ، وإن وجد خلاف ذلك أبعده »[1] .

ولكن الابتداع الأهم ، والجوهرى ، والذى جعل من زرياب أستاذا عظيما ، ماهرا ومثقفا ، منهجه الممتاز فى تعليم الغناء ، فقد كان الأساتذة الفنانون قبله يغنون منذ البدء كما لو كانوا فى حفلة موسيقية ، ويحاول التلاميذ أن يقلدوهم ، وبقوة التكرار فحسب يصل أولئك وهؤلاء إلى النتائج التى يبتغونها . أما زرياب فقد قسم العمل إلى ثلاث مراحل : الأولى تعليم الإيقاع ، فيبدأ بالنشيد « بأى نقر كان » ، والمرحلة الثانية تعليم الإيقاع فى بساطته ، دون أن يضيف إليه أى طبقة ، والمرحلة الثالثة : أن « يختم بالمحركات والأهزاج »[2] . ومعها تعود أن يضفى على الغناء تعبيرا وحركة ولطفا ، وبها تتضح مهارة الفنان .

استطاع زرياب بهذا المنهج ، وبفرقة تتكون من أجمل المغنين صوتا ، بين مجموعة كانت تبلغ عشرة آلاف فيما يقال ، أن يبلغ شهرة شعبية واسعة النطاق ، وأرسل إلى زوايا النسيان كلا من علون وزرقون ، وهما أول من دخل الأندلس فى أيام الحكم الأول من المغنين المشارقة ، فنفقا عليه وصارا من أبرز الموسيقيين[3] ، وأخمل بشهرته مغنيات المدينة الثلاث : فضل وعلم وقلم . [وكانت فضل « حاذقة بالغناء ، كاملة الخصال ، وأصلها لإحدى بنات هارون الرشيد ، ونشأت وتعلمت فى بغداد ، ودرجت من هناك إلى المدينة ، ثم اشتراها الأمير عبد الرحمن الأوسط صاحب الأندلس ، مع صاحبتها علم المدنية ، وصواحب غيرها ، واليهن تنسب دار المدنيات بالقصر ،

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٨ – ١٢٩ .

(٢) هكذا فهمت الفقرة الواردة فى نفح الطيب ، جـ ٢ ص ٨٨ ، طبعة أوربا « جـ٣ ص ١٢٨ ، طبعة إحسان عباس » وهذه الفقرة لم ترد فى ترجمة جاينجوس لنفح الطيب إلى اللغة الانجليزية ، لأنها لم تكن فى المخطوطة التى اعتمد عليها .

(٣) نفح الطيب ، جـ ٢ ص ٨٩ ، طبعة أوربا ، جـ ٣ ص ١٣٠ إحسان عباس .

وكان يؤثرهن لجودة غنائهن ، ونصاعة ظرفهن ، ورقة أدبهن . وتضاف إليهن جارية يقال لها قلم ، وهى ثالثة فضل وعلم فى الحظوة عند الأمير المذكور ، وكانت أندلسية الأصل ، رومية من سبى الباسك ، وحملت صبية إلى المشرق ، فوقعت بمدينة النبى ﷺ ، وتعلمت هناك الغناء فحذقته ، وكانت أديبة ذاكرة ، حسنة الخط ، راوية للشعر ، حافظة للأخبار ، عالمة بضروب الأدب] [1] .

وانتشرت آلات الموسيقا على نحو واسع ، فكانوا يستخدمون منها : القانون ، والرباب ، والعود ، والمعزف ، وآلات أخرى من ذوات الأوتار ، والناى ، والمزمار ، والصفارة ، والبوق ، وآلات أخرى من ذوات الصفير ، والدف والطنبور ، وغيرها من أدوات القرع . وكثير من هذه الآلات كان يصنع فى إسبانيا ويصدر إلى شمال أفريقيا .

وكان لنظرية الموسيقا أساتذتها أيضا ، وإذا تحدثنا عن المؤلفين كان ابن فرناس أول من درس كتبا فى هذه المادة[2] . وظلوا يدرسون كتب الفارابى إلى أن ألف ابن باجة أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ السرقسطى ، رسالته فى الموسيقا .

[ولد ابن باجة فى سرقسطة قريبا من نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، واشتغل طبيبا فى بلدته ، ولكنه نزح إلى إشبيلية وشاطبة بعد سقوط مدينته فى يد النصارى عام ١١١٨م ، ثم ذهب إلى فاس بالمغرب ، وصار وزيرا فى البلاط المرابطى ، فكاد له أحد أعدائه ، ودس له السم .

« وكان ابن باجة كثير التأليف ، وصلنا مالا يقل عن أربعة وعشرين كتابا من كتبه فى الطب ، والفلسفة ، والعلوم الطبيعية ، وكان إلى جانب مواهبه التى لا نظير لها فى هذه العلوم « متقنا لصناعة الموسيقى ، جيد اللعب بالعود » ، ويصفه ابن خلدون بأنه « صاحب التلاحين المعروفة ، « وإليه تنسب الألحان المطربة بالأندلس التى عليها الاعتماد ويشهد له خصمه الفتح بن خاقان بأنه « أقام سوق الموسيقى »[3] .

---

(١) نفح الطيب ، جـ ٢ ص ٩٦ ، طبعة أوربا ، جـ ٣ ص ١٤٠ طبعة احسان عباس .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٢٥٥ ، طبعة إحسان جـ ٣ ص ٣٧٤ .

(٣) الزيادة من نفح الطيب ، فى أمكنة مختلفة من الجزء الثالث طبعة إحسان عباس . وانظر أيضا : تاريخ الموسيقى العربية لفارمر ، ترجمة د . حسين نصار ، ص ٢٦٢ ، المترجم .

واشتهر ابن باجة على نحو واسع كملحن ومبدع ، ويقول ابن سعيد المغربى : « هو فى المغرب بمنزله أبى نصر الفارابى بالمشرق » . ولسوء الحظ لم يصلنا شيء من كتابات هذا المؤلف والمفكر العظيم عن الموسيقا] .

ومن بين المدن الإسبانية التى احتفظت بتقاليد مدرسة زرياب أفضل من غيرها ، تجىء إشبيلية فى المقام الأول دون أدنى نقاش ، وعنها صدرت الموسيقا التى تغنى وتدرس فى تونس والمغرب ، وحتى يومنا هذا فإن إشبيلية لم تتراجع عن مكانتها ملكة للغناء الأندلسى ، رغم التغييرات التى أصابتها بفعل الزمن[1] .

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، الترجمة الفرنسية ، جـ ٢ ص ٤٢٢ ، وطبعة التجارية ، النص العربى ، ص ٤٢٨ . وانظر : فرانسيسكو سلفادور ، الموسيقا العربية وصلاتها بالموسيقا الإغريقية ، والغناء الجريجورى ، ص ٥ و ٦ .

أساتذة التعليم العالى

● **مكانتهم :**

الازدراء الذى رافق مدرس التعليم الابتدائى فى كل مكان من العالم ، وأصاب المواد السهلة التى يدفع التلاميذ نفقات تعليمها ، لم يتجاوزهم فى إسبانيا إلى الذين ينهضون بالتعليم العالى ، وعلى النقيض ، كانت هذه المهنة تؤدى إلى رفع الذين يعملون فيها درجات عالية أمام عامة الجماهير ، توازى تلك التى بلغها آخرون عن طريق أسرهم العريقة ، أو لمكانتهم الدينية ، أو للمناصب العليا التى يشغلونها ، مدنية أو عسكرية ، وما كان لأحد أن يفكر أن **دحون** ، حبيب بن الوليد بن حبيب ، ويرتبط مع الأسرة الإسبانية المالكة بسبب ، يتناسى وضعه الطبقى العريق ، بعد أن رحل ، وحج ، ولقى أهل الحديث فكتب عنهم ، وقفل بعلم كثير ، فيذهب إلى المسجد الجامع فى قرطبة ، ويحيط نفسه بحلقة من الطلاب يرتوون من فيض علمه الغزير ، أو أن الأئمة ، والقضاة ، والحكام ، والوزراء ، يتواضعون فتكون لهم حلقهم ، وحولهم يتجمع الشباب المتحمس ، فيلقون عليه دروسهم آخرة النهار ، بعد أن أمضوا أوله فى مكاتبهم ، يصرفون مهام وظائفهم الرسمية[١] .

وقبل ذلك كله ، نلحظ أيضا أن إناسا ينتمون فى طبقات متواضعة ، وفى الوقت نفسه يتمتعون بذكاء يقظ ، يتعرف الناس عليهم بدءا فى حلقات الدرس ، ومنها تنطلق شهرتهم ، ويصبحون موضع الثناء من عامة الناس ، وكل هؤلاء هم الذين يشيرون على رئيس الدولة بالمرشحين الذين يتولون المناصب الكبرى الشاغرة[٢] ، وعليه أن يستجيب لهم ، لأنه يود أن يختار شخصيات ذات شعبية وهيبة ، وليس أمامه من سبيل إلا هذا الطريق ، حيث لا توجد مجالس سياسية يمكن أن يلمع فيها المرء ، ولا جمعيات علمية ، ولا هيئات تجرى فيها المناقشات علنا وفى حرية ، وليست هناك أية وسيلة أخرى غير التدريس فى المساجد . ومن جانب آخر ، لم يكن لدى الأدباء الذين ذاع صيتهم ،

(١) الإحاطة ، جـ ٢ ، الورقة ١١٠ ، مخطوطة الاسكوريال .

(٢) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ١٢٧٦ ، طبعة مدريد .

وعمت شهرتهم ، ووسائل مناسبة تعينهم على نشر إبداعهم ، وإذاعة مؤلفاتهم ، غير الدروس العامة والتعليم ، وهو ما يفسر الأسلوب الذى كان يتبع فى هذه الدروس ، مثل دروس **ابن فطيس** ، وهو شخصية تنتمى إلى **أعرق أسر قرطبة** ، **وأعرضها ثراء** ، **وأمالى أبى على القالى** ، **ودروس ابن سعيد** ، وآخرين غيرهم . ولم يكن يختلف إلى هذه الدروس شباب الدارسين من الطلاب فحسب ، وإنما تجذب أيضا زهرة المجتمع القرطبى وصفوته .

ولم يكن ينقص القائمين بهذه المهنة النبيلة الزهو والاعتداد بأنفسهم ، ويقص علينا أحد تلاميذ **أبى وهب** بن الأعلى يقول : كان أستاذى يقيم قريبا من مقبرة قريش فى قرطبة ، فى بستان له يقوم على غرسه بنفسه ، وذات يوم ، بعد أن قدم طعام الغداء لتلاميذه ، جاء من يطلب الإذن بالدخول ، وكان القادم الوزير **هشام** بن عبد العزيز ، وأقرب الناس إلى الأمير ، وقد رحب به الأستاذ ، وعندما دخل وجدنا نتناول خضرا مطبوخة ، وهى مما غرس فى الحديقة ، وقد ارتبك صاحب البيت قليلا قبل أن يدعوه ، خشية أن يكون الطعام دونه ، ولكن هاشما بادره : ألا تدعونى لمشاركتهم ، أو تخاف أن آتى على المائدة بأجمعها ؟ فقال : هى دونك . فقال : ولماذا فشمر عن ساعده ، واقتحم المائدة معنا ، وبعدها انتحى به جانبا ، فاستشاره فى بعض القضايا الفقهية ، وتلقى رأيه ، وعندما خرج هممنا بالوقوف تحية ، ولكن الأستاذ أشار إلينا فى قسوة أن أجلسوا ، وبعد أن ودعه عاد فعتب علينا فى شدة أننا أسرفنا فى الأدب والمجاملة ، ولم نكن عادیین[1] .

[ويروى المقرى فى كتابيه نفح الطيب ، وأزهار الرياض ، **أن عبد الرحمن الناصر** لما أعذر لأولاد ابنه أبى مروان عبيد الله ، اتخذ لذلك صنيعا عظيما بقصر الزهراء ، ولم يتخلف أحد عنه من أهل مملكته ، وأمر أن ينذر لشهوده الفقهاء المشاورون ، ومن يليهم من العلماء ، والعدول ، ووجوه الناس ، فتخلف من بينهم المشاور **أبو إبراهيم** ، افتقد مكانه لارتفاع منزلته فسأل الخليفة الناصر فى ذلك ، إذ **أبو إبراهيم** من أكابر علماء المالكية الذين عليهم المدار ، ووجد الناصر بسبب ذلك على أبى إبراهيم ، وأمر ابنه ولى العهد الحكم بالكتاب إليه ، والتفنيد له ، فكتب إليه الحكم رقعة نسختها :

(١) التكملة ، الترجمة رقم ١٢٠٠ ، طبعة مدريد .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، حفظك الله وتولاك ، وسددك ورعاك .

« لما امتحن أمير المؤمنين مولاى وسيدى - أبقاه الله - الأولياء الذين يستعد بهم وجدك متقدما فى الولاية ، متأخرا عن الصلة ، على أنه قد أنذرك - أبقاه الله - خصوصا للمشاركة فى السرور الذى كان عنده ، لا أعدمه الله توالى المسرة ، ثم أنذرت من قبل إبلاغا فى التكرمة ، فكان منك على ذلك كله من التخلف ما ضاقت عليك فيه المعذرة ، واستبلغ أمير المؤمنين فى أفكاره ومعاتبتك عليه ، فأعيت عليك عنك الحجة ، فعرفنى - أكرمك الله - ما العذر الذى أوجب توقفك عن إجابة دعوته ، ومشاهدة السرور الذى سر به ، ورغب المشاركة فيه ، لنعرفه - أبقاه الله - بذلك ، فتسكن نفسه العزيزة إليه إن شاء الله تعالى » .

فأجابه أبو إبراهيم :

« سلام على الأمير سيدى ورحمة الله .

« قرأت - أبقى الله الأمير سيدى - هذا الكتاب وفهمته ، ولم يكن توقفى لنفسى ، إنما كان لأمير المؤمنين سيدنا أبقى الله سلطانه ، لعلمى بمذهبه ، وسكونى إلى تقواه ، واقتفائه لأثر سلفه الطيب رضوان الله عليهم ، فإنهم يستبقون من هذه الطبقة بقية لا يمتهنونها بما يشينها ، ولا بما يغض منها ويطرق إلى تنقيصها ، يستعدون بها لدينهم ، ويتزينون بها عند رعاياهم ، ومن يفد إليهم من قصادهم ، فلهذا تخلفت ولعلمى بمذهبه توقفت ، إن شاء الله تعالى » .

« فلما أقرأ الحكم أباه الناصر لدين الله جواب أبى إبراهيم إسحاق أعجبه ، واستحسن اعتذاره ، وزال ما بنفسه عليه] [1] .

ويروى الفقيه أبو القاسم بن مفرج : « كنت أختلف إلى الفقيه أبى إبراهيم - رحمه الله تعالى - فيمن يختلف إليه للتفقه والرواية ، فإنى لعنده بعض الأيام فى مجلسه بالمسجد المنسوب لأبى عثمان ، الذى كان يصلى به قرب داره ، بجوفى قصر قرطبة ، ومجلسه حافل بجماعة الطلبة ، وذلك بين الصلاتين ، إذ دخل عليه خصى من أصحاب الرسائل ،

---

(١) اكتفى المؤلف بإيراد القصة التالية لهذا العالم الجليل وضممت إليها هذه القصة لأبين : كم هان علماؤنا على أنفسهم فهانوا على الناس .

والقصة فى جـ١ ص ٣٧٦ - ٣٧٧ ، وأزهار الرياض ، جـ٢ ص٢٨٢ . (المترجم)

جاء من عند الخليفة الحكم ، فوقف وسلم ، وقال له : يا فقيه ، أجب أمير المؤمنين أبقاه الله ، فإن الأمر خرج فيك ، وها هو قاعد ينتظرك ، وقد أمرت بإعجالك ، فالله .. الله !

« فقال له : سمعا وطاعة لأمير المؤمنين ، ولا عجلة ، فارجع إليه ، وعرفه ، وفقه الله عنى ، أنك وجدتنى فى بيت من بيوت الله تعالى ، مع طلاب العلم ، أسمعهم حديث ابن عمه رسول الله ﷺ ، فهم يقيدونه عنى ، وليس يمكننى ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم فى رضا الله وطاعته ، فذلك أوكد من مسيرى إليه الساعة ، فإذا انقضى أمر من اجتمع إلىّ من هؤلاء المحتسبين فى ذات الله ، الساعين لمرضاته ، مشيت إليه إن شاء الله تعالى . ثم أقبل على شأنه .

« ومضى الخصى يهينم متضاجرا من توقفه ، فلم يك إلا ريثما أدى جوابه ، وانصرف سريعا ساكن الطيش ، فقال له : يا فقيه ، أنهيت قولك على نصه إلى أمير المؤمنين أبقاه الله ، فأصغى إليه ، وهو يقول لك : جزاك الله خيرا عن الدين ، وعن أمير المؤمنين وجماعة المسلمين ، وأمتعهم بك ، وإذا أنت أوعيت فامض إليه راشدا إن شاء الله تعالى ، وقد أمرت أن أبقى معك حتى ينقضى شغلك وتمضى معى .

« فقال له : حسن جميل ، ولكنى أضعف عن المشى إلى باب السدة ، ويصعب على ركوب دابة لشيخوختى ، وضعف أعضائى ، وباب الصناعة الذى يقرب إلى من أبواب القصر المكرم أحوط وأقرب وأرفق بى ، فإن رأى أمير المؤمنين – أيده الله تعالى – أن يأمر بفتحه ، لأدخل إليه منه ، هون على المشى ، وودع جسمى ، وأحب أن تعود وتنهى إليه ذلك عنى ، حتى تعرف رأيه فيه ، وكذلك حتى تعود إلى فإنى أراك فتى سديدا ، فكن على الخير معينا .

« ومضى عنه الفتى ، ثم رجع بعد حين وقال : يا فقيه ، قد أجابك أمير المؤمنين إلى ما سألت ، وأمر بفتح باب الصناعة وانتظارك من قبله ، ومنه خرجت إليك ، وأمرت بملازمتك ، مذكرا بالنهوض عند فراغك . وقال : افعل راشدا .

« وجلس الخصى جانبا ، حتى أكمل أبو إبراهيم مجلسه كأفسح ما جرت به عادته ، غير منزعج ولا قلق ، فلما انفضضنا عنه قام إلى داره فأصلح من شأنه ، ثم مضى إلى

الخليفة الحكم فوصل إليه من ذلك الباب ، وقضى حاجته من لقائه ، ثم صرفه على ذلك الباب فأعيد إغلاقه على إثر خروجه .

« قال ابن مفرج : ولقد تعمدنا فى تلك العشية ، إثر قيامنا عن الشيخ أبى إبراهيم ، المرور بهذا الباب المعهود إغلاقه بدبر القصر لنرى تجشم الخليفة له ، فوجدناه كما وصف الخصى مفتوحا ، وقد حفه الخدم والأعوان منزعجين ، ما بين كناس وفراش ، متأهبين لانتظار أبى إبراهيم ، فاشتد عجبنا لذلك ، وطال تحدثنا عنه » .

ويعلق المقرى على الرواية مأخوذا بروعة هذا الكبرياء : « فهكذا تكون العلماء مع الملوك ، والملوك معهم ، قدس الله تلك الأرواح » ![1] .

وقد قصد المظفر ، عبد الملك ابن أبى عامر ، زيارة **المشكيالى** ، محمد بن إبراهيم ، من أهل طليطلة ، « وكان له ورع وزهد وتواضع ، متقللا من الدنيا ، عاملا بالعلم ، ثقة ، لا تأخذه لومة لائم فى صدعه الحق بالحق ، إثر صلاة جمعة ، وكان الشيخ قد لزم داره ، وكان يسمع عليه فيها ، فلما استأذن المظفر ، وعلم بذلك الشيخ ، قال لمن حوله من طلبة العلم : لا تقوموا . فامتثلوا أمره ، فدخل المظفر عليه فأكرم مثواه . ثم استنفره الدعاء ، فقال محمد بن إبراهيم : اللهم أدخل فى قلوب رعيته الطاعة ، وأدخل لهم فى قلبه الرأفة والرحمة ، ثم انصرف »[2] .

ويروى **ابن الأبار** فى معجمه ، عن أبى بكر بن ليلى ، كاتب **الأمير إبراهيم** بن يوسف بن تاشفين : « كنت يوما عند القاضى **أبى على الصدفى** ، إذ جاء **وزير ابن تاشفين** : يعنى هذا ، فقال : إن الأمير أبا اسحاق يريد أن يسمع عليك الحديث ، يعرض له بالمشى إليه ، فقال له : لهذا جلست ، فكرر ذلك عليه ، فأجابه بمثله ، ثم رغب إليه بعد أن تكون له منه دولة فى منزله ، فأسعفه ، على أن يصل بعد الفراغ من إسماع أصحابه ، والقيام من مجلسه » . وكان الذى حققه الأمير كما نرى أن يجىء إلى الأستاذ فى بيته ، ليأخذ درسا خاصا ، فى ساعة محددة ، غير تلك التى يحضر فيها الطلاب .

---

(١) نفح الطيب ، جـ١ ص٢٤٤ ، طبعة أوربا . و جـ١ ص٣٧٧ - ٣٧٩ ، طبعة إحسان عباس ، وأزهار الرياض ، جـ٢ ص٢٨٥ ، طبعة القاهرة .

(٢) ابن بشكوال ، الترجمة ١٠٥٢ ، طبعة القاهرة ، وفى الأصل خطأ فى ذكر رقم الترجمة . (المترجم)

وحين انحدرت إسبانيا الإسلامية إلى هاوية الضعف والتخلف كان لابد أن ينحط أمر التعليم ، وأن ينظر الناس إلى المعلم نظرة احتقار شديدة ، وهو ما نجده « فى آخر صورة ظهر فيها أدب الأندلسيين المسلمين ، وهى آثارهم التى كتبوها باللغة الإسبانية ، ويطلق عليها اسم **الخميادية** , al jamiada وهى تحريف إسبانى للفظ العجمية التى كانت تطلق عليها ، وهو يصور حالة الرعب التى كان الموريسكيون[1] ، أصحاب هذه الكتابات ، يعيشون فى ظلالها بعد سقوط غرناطة فى يد النصارى ، وخاصة عندما وجدوا أنفسهم مضطرين إلى التنصر ، وتتعقبهم محاكم التفتيش وقد انقطعت انقطاعا يكاد يكون تاما الأسباب بين معارفهم الضئيلة عن علوم الإسلام وما كان لأجدادهم الأمجاد من تقاليد علمية رفيعة ، ولكنهم لم يتخلوا قط عن أحرف الهجاء العربية ، واستمروا يكتبون بها ما لديهم من المعارف للحفاظ على عقيدتهم من ناحية ، ولتعمية متعقبيهم عن فحوى ما يكتبون من ناحية أخرى . ومن الطبيعى أن نجد موضوعات هذه الكتابات المستعجمة وروحها إسلامية خالصة ، ولم نتوصل إلى الكشف عن سرها وحل رموزها إلا فى القرن التاسع عشر .

« وأكثر هذه الكتب التى تضمها خزائن الموريسكيين ذات موضوعات دينية ، أو خرافية أو تشريعية . وعندما أخذ الإسبان ينفذون سياسة طرد بقايا المسلمين من البلاد عمد أصحابها إلى إخفائها وسترها عن العيون ، ثم أخذت تظهر بعد ذلك شيئا فشيئا ، ولا نزال نعثر على أطراف منها حتى الآن . ومن أجل مؤلفيها الذين وقفنا على أسمائهم **عيسى بن جابر** ، فقيه المسجد الجامع فى شقوبية Segovia ، ويرد اسمه فى كتب المستعجمين على صورة Iça de Gabir وأهم كتبه « مختصر فى السنة » ، واشتهر باسم « الكتاب الشقوبى » ، وهو موجز فى الأخلاق والشريعة ، ولابد أنه كان كثير التداول بين الموريسكيين ، لأننا وجدنا منه نسخا عديدة .

« وفاتحة الكتاب عربية الروح والسياق ، رغم أنها باللغة القشتالية (الإسبانية) ، ويقع فى فصول كثيرة عن الإيمان وما هو وما ينبغى على المسلم الاعتقاد به ليصح دينه ، والوضوء والطهارة ، وما يتطهر به ، والتيمم ، والصلاة ومواقيتها ، وهو يصف طريقة الصلاة ، وما يجب أن يجهر به الإنسان فيها ، وما يجب أن ينطق به سرا ، ويكتب

---

(١) الموريسكيون ، تطلق على المسلمين الذين تخلفوا فى إسبانيا بعد سقوط دولة الإسلام ، وأكرهوا على اعتناق الكاثوليكية ، ثم طردوا نهائيا عام ١٦١٣ . (المترجم)

المصطلحات بالعربية ، ويرسمها بحروف لاتينية تدلنا على الطريقة التى كان مسلمو الأندلس ينطقون بها العربية فى أواخر أيامهم ، ويذكر فى فاتحة الكتاب أنه ألفه استجابة لطلب رجل تونسى ، يدعى سيدى أبو القيس Citi Bulgaiz[1] .

يرى **عيسى بن جابر** هذا أن أساتذة التعليم العالى أقل احتراما من التجار والحرفيين[2] ، وأرفع قليلا من العمال اليدويين والناس الحقراء . ويقول فى كتابه مختصر السنة : إن العالم ينهض على اثنتى عشرة طبقة ، ويحكم بها : الخليفة ، والمفتى ، والقواد ، والفقهاء ، والأعيان والتجار ، والحرفيون ، والمدرسون الذين يعلمون القرآن والسنة والتوحيد والفلسفة والمنطق والطب وغيرها ، والطلاب الذين يدرسون الفقه أو العلوم والفنون ، والعمال اليدويون كالحمالين والحفارين والريفيين وغيرهم ، وحقراء الناس كاللصوص والقوادين والقرصان ومن إليهم ، وتأتى المرأة أخيرا .

● الصفات المطلوبة فى الأستاذ :

لكى تكون أستاذا يجب أن تكون عالما ، وهو شرط فهمه المسلمون منذ اليوم الأول ، وكان **الإمام مالك** رضى الله عنه يقول : « أدركت بهذا البلد مشيخة لهم فضل وعبادة يحدثون ، ما سمعت من واحد منهم حديثا قط ، قيل له : ولم يا أبا عبد الله ؟ قال : لم يكونوا يعرفون ما يحدثون » . « وروى عنه أيضا أنه قال : إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم ، فقد أدركت سبعين ممن يقول : قال فلان قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين – وأشار إلى أساطين مسجد رسول الله ﷺ – فما أخذت عنهم شيئا ، وإن أحدهم لو أؤتمن على بيت مال لكان أمينا ، لم يكونوا من أهل هذا الشأن ،

---

(١) جاءت عبارة المؤلف فى الفقرة التالية شديدة الإيجاز ، ومعها يبدو للقارئ أن عيسى بن جابر هذا عاش خلال الحكم الإسلامى ، والواقع أنه عاش مسلما تحت الحكم الكاثوليكى ، وعانى ورفاقه فى الدين أهوالا مريعة ، وقد أتيت بما بين الخاصرتين نقلا من كتاب أنخل جونثالث بالنتيا ، « تاريخ الأدب الأندلسى » ، وكان المؤلف تلميذا أثيرا عند ريبيرا ، وذلك توضيحا للقضية ، ووضعها فى مناخها الطبيعى .

(٢) شيء كهذا ، أو قريب منه ، يحدث بيننا الآن واقعا ، وإن لم يأخذ شكل نظرية ، فيا يتصل بالثقافة والمثقفين عموما ، يعملون فى التعليم أو خارجه . (المترجم)

ويقوم علينا ابن شهاب[١] . فكنا نزدحم على بابه[٢] . « فلا تتعلموا إلا على أولئكم الذين درسوا وحضروا مجالس العلماء الذين يعلمون »[٣] .

ولبلوغ هذه الغاية حرصت إسبانيا الإسلامية منذ أيامها الأولى ، وفيما بعد ، على أن تتلقى العلم على يد أساتذة من المشرق ، يجيئون إليها للتدريس فى معاهدها ، أو فى الأقل على يد إسبانيين ذهبوا إلى هناك للحج ، أو لمجرد الرحلة ، ودرسوا على كبار علمائه ، لأن المشرق مهد الثقافة العربية ، فمن أراد أن يرتوى من ينابيعها عليه أن يردها فى مصادرها الأولى .

وما إن يبلغ هؤلاء الإسبان الراحلون أرض وطنهم عائدين ، ومعهم ما درسوا وعرفوا من كتب جديدة فى المشرق ، حتى يتزاحم حولهم الطلاب ، وحول أولئك الذين بلغوا قدرا عاليا من العلم ، وذاعت شهرتهم بين الناس ، حتى ولو لم يرحلوا ، يطلبون ما عندهم من معرفة ، ولم يكن أولئك وهؤلاء يستجيبون فى سهولة لما يطلب منهم ، غير أنهم ازاء كثرة الإلحاح وشدة الإصرار ، قد يسلمون لهم فى نهاية الأمر بما يريدون ، ولو لعدد محدود من الطلاب لا يتجاوز عدة أفراد من معارفهم المقربين ، وسوف ينتهى بهم الأمر فى نهاية المطاف أعلاما ينشرون العلم ويشيعونه بين الناس .

وحدث فى إسبانيا الإسلامية يومها ما يحدث فى أى بلد متخلف يستجمع كل قواه ليبلغ من التقدم ما حققه آخرون ، ومن ثم عملت جاهدة على أن تستفيد بأقصى ما فى ذرعها ، وبكل ما فى طاقتها ، من الأساتذة الذين استقدمتهم لكى يقوموا بالتدريس ، فاتسمت حلقاتهم بطابع الجدية والحرص الشديدين ، حتى ولو كانوا فى بلادهم الأصلية موضع السخرية والإعراض . [**ويروى ابن الفرضى فى كتابه تاريخ علماء الأندلس أن : أحمد** بن الفضل الدينورى ، قدم الأندلس فى شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة ، وكان يخبر أن مولده بالدينور ، وأنه تحول إلى بغداد ، وأنه أقام برهة لا يكتب ،

(١) هو محمد بن مسلم ، المعروف بابن شهاب الزهرى ، ولد سنة ٥٠ هـ وتوفى عام ١٢٤ هـ وقال عنه الليث بن سعد : ما رأيت عالما قط أجمع من الزهرى ، يحدث فى الترغيب فتقول لا يحسن غيره ، وان حدث عن العرب والأنساب قلت : لا يحسن إلا هذا ، وإن حدث عن القرآن والسنة فكذلك . وكان أستاذا للإمام مالك رضى الله عنهما . (المترجم) .

(٢) فهرسة ابن خير ، ص ١٩ ، طبعة مدريد .

(٣) تكملة الصلة ، ص ١٢ .

ثم تعلم الكتابة بالدامور ، فكان يكتب كتابا ضعيفا يخل بالهجاء ... وكانت عنده مناكير ، وقد تسهل الناس فيه ، وسمعوا منه كثيرا ، وحدث عنه جماعة من شيوخنا ، وقال لى أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى لقد كان الدينورى بمصر يلعب به الأحداث ، ويتغامزون عليه ، ويسرقون كتبه ، وما كان ممن يكتب عنه محلل ، ثم قدم الأندلس فانجفل الناس اليه ، وازدحموا عليه ، أو كما قال] [1] .

وكان الطلاب يتجمعون حول تجار جهال من مقاطعات أخرى ، **أخذوا « حماما » سطحيا من التنوير** ، [ومن هؤلاء محمد بن عيسى بن رفاعة ، المعروف بالقلاس ، من أهل رية ، كان الناس يرحلون اليه من قرطبة وغيرها للسماع منه ، ثم استقدم إلى قرطبة يحدث فيها بمدينة الزهراء ، ثم انصرف عنها ، بعد أن نسب إليه الكذب وثبت عليه[2] .

وكان مسعود **بن خيران** ، من أهل بجانة ، وسكن قرطبة ، ورحل إلى المشرق تاجرا ، وسمع هناك سماعا كثيرا ، ولما انتقل إلى قرطبة دخلنا عليه لنكتب من حديثه فوعدنا أن يتفرغ لذلك ، ورأينا له كتبا كثيرة ، فتوفى وما علمت أن أحدا كتب عنه ، ولم يكن من أهل العلم ، إنما كان تاجرا] [3] .

وكل هذا أتى على الهيبة التى رفع عمدها علماء أخيار على امتداد الزمن ، وأقاموها حجرا فوق حجر .

وظلت الأمور تمضى على هذا النحو حتى عصر **الحكم المستنصر** (٩٦١-٩٧٦ م) **والمنصور** بن أبى عامر (٩٧٦ - ١٠٠٢ م) من بعده ، ومع أيامهما (الأول خليفة والثانى حاجبا حاكما) بدأت إسبانيا الإسلامية تشعر بأن فى ذرعها أن تستغنى بنفسها ، فقد أقام أبناؤها بذكائهم ، وصفاء ذهنهم ، ومهارتهم ، صرح الثقافة القومية عاليا ، ثم غمرهم الزهو أخيرا حين أحسوا بأنهم يطاولون المشرق علما ، وعندما أدركوا تفوقهم الواضح بدأوا يثأرون لأنفسهم ، ويردون على الاتهامات المزرية التى كان المشرق يوجهها اليهم فى الأعصر الأولى من تاريخهم ، **حين كان يصم الأساتذة الإسبان بأنهم جفاة غلاظ**[4] .

---

(١) ابن الفرضى ، الترجمة ٢٠٣ .

(٢) المصدر السابق ، الترجمة ١٢٤٥ .

(٣) المصدر السابق ، الترجمة ١٤٢٧ .

(٤) دوزى ، أبحاث فى أدب العصر الوسيط ، ط ٣ ، جـ ١ ، ص ٣٣ .

وأعاد أمراء المشرق مع علماء إسبانيا سيرة الأمويين الأندلسيين مع علماء المشرق من قبل ، فاتخذوا منهم أساتذة لأنفسهم ، ومؤدبين لأولادهم ، وأقاموا لهم المدارس يتولون التدريس فيها[1] . ومن أبرز هؤلاء الحافظ **أبو الخطاب ابن دحية** ، الظاهرى المذهب ، الأندلسى ، كان من كبار المحدثين ، ومن الحفاظ الثقات الأثبات المحصلين ، وأحفظ أهل زمانة باللغة ، وأيام العرب وأشعارهم ، وصنف كتبا كثيرة مفيدة جدا ، وروى بالمغرب ومصر والشام والعراق وخراسان وعراق العجم ، وكل ذلك فى طلب الحديث ، وسمع بالأندلس ، وببغداد ، وبأصبهان ، وبنيسابور ، وحصل الكتب والأصول ، وحدث وأفاد ، وكان من أعيان العلماء ، وولى قضاء **دانية** مسقط رأسه ، ثم حج وعاد إلى مصر ، فاستأدبه الملك **العادل** لولده **الكامل** ، وأسكنه القاهرة فنال بذلك دنيا عريضة ، ثم زادت حظوته عند **الكامل** ، وأقبل عليه إقبالا عظيما ، وكان يجله ، ويحترمه ، ويعتقد فيه الخير ، ويتبرك به ، ويسوى له مداسه حين يقوم ، **وبنى له دار الحديث الكاملية بين القصرين فى القاهرة** ، ولما عزله عنها رتب مكانه أخاه أبا عمر ، فلم يزل بها إلى أن توفى عام ٦٣٤ هـ .

أما أبو الخطاب فقد سبق أخاه إلى الدار الآخرة بعام ، إذ توفى « فى انفجار الفجر ، ليلة الثلاثاء ، رابع عشر ربيع الأول ، سنة ٦٣٣ هـ ، ودفن كلاهما بسفح المقطم بالقاهرة ، وشغل المنصب أندلسى آخر ، بعد وفاة ابن سهل القصرى القائم عليها عام ٦٤٢ هـ ، **وهو ابن سراقة** الشاطبى ، أبو عبد الله محمد ، « وهو أحد الأئمة المشهورين بغزارة الفضل ، وكثرة العلم ، والجلالة والنبل ، وأحد المشايخ الصوفية ، له فى ذلك إشارات لطيفة مع الدين والعفاف والبشر والوقار ، والمعرفة الجيدة بمعانى الشعر ، وكان صالح الفكرة فى حل التراجم ، مع ما جبل عليه من كرم الأخلاق ، واطراح التكلف ، ورقة الطبع ، ولين الجانب » ، « تولى مشيخة دار الحديث البهائية بحلب ، ثم قدم مصر وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة ، وبقى بها إلى أن توفى بالقاهرة فى شعبان عام ٦٦٢ هـ - ١٣٦٣ م ، ودفن بسفح المقطم »[2] .

---

(١) التكملة لابن الأبار ، الترجمة ١٨٣٢ ، والمعجم ، لابن الأبار ، الترجمة رقم ٢١٥ ، طبعة مدريد .

(٢) أورد المؤلف هذه الفقرة موجزة جدا فى الهامش ، ثم أحالنا على المصدر الذى اعتمد عليه ، وجئنا بالنص كاملا ، مع شىء من التصرف ، أنظر : المقرى ، نفح الطيب جـ ٢ ص ٩٤ وما بعدها ، طبعة إحسان عباس ، والجزء نفسه ص ٦٣ - ٦٤ . (المترجم) .

وكان أبو حيان الغرناطى أشهر هؤلاء جميعا ، [خرج من الأندلس عام ٦٧٩ هـ - ١٣٨٠ م ، واستوطن القاهرة بعد حجه ، وأصبح إمام النحاة بالديار المصرية ، وشيخ المحدثين بالمدرسة المنصورية ، وتولى التفسير بها أيضا ، والإقراء بالجامع الأقمر[1] . انتهت إليه رياسة التبريز فى علم العربية واللغة والحديث ، « وله التصانيف التى سارت وطارت ، وانتشرت وما انتثرت ، وقرئت ودريت ، ونسخت وما فسخت ، أخملت كتب الأقدمين ، وألهمت المقيمين بمصر والقادمين ، وقرأ الناس عليه ، وصاروا أئمة وأشياخا فى حياته ، وهو الذى جسر الناس على مصنفات ابن مالك رحمه الله تعالى ، ورغبهم فيها وفى قراءتها ، وشرح لهم غامضها ، وخاض بهم لججها ، وفتح لهم مقفلها ، وكان يقول عن مقدمة ابن الحاجب : هذه نحو الفقهاء ، وكان التزم ألا يقرىء أحدا إلا إن كان فى كتاب سيبويه ، أو فى التسهيل لابن مالك ، أو فى تصانيفه .

« وكان شيخا حسن العمة ، مليح الوجه ، ظاهر اللون ، مشربا بحمرة ، منور الشيبة ، كبير اللحية ، مسترسل الشعر فيها ، ولم تكن كثة ، عبارته فصيحة بلغة الأندلس ، يعقد حرف القاف قريبا من الكاف ، على أنه لا ينطق بها فى القرآن إلا فصيحة ، وسمعته يقول (الضمير يعود على الصفدى) : ما فى هذه البلاد من يعقد حرف القاف » .

« وكان فيه - رحمه الله تعالى - خشوع ، يبكى إذا سمع القرآن ، ويجرى دمعه عند سماع الأشعار الغزلية ، ويقول : إذا قرأت أشعار العشق أميل إليها ، وكذلك أشعار الشجاعة تستميلنى ، وغيرهما ، إلا أشعار الكرم ما تؤثر فى » وخدم النحو « مدة تقارب الثمانين ، وسلك من غرائبه وغوامضه طرقا متشعبة الأفانين ، وتوفى رحمه الله تعالى بمنزله خارج باب البحر بالقاهرة ، فى يوم السبت بعد العصر ، الثامن والعشرين من صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، ودفن من الغد بمقبرة الصوفية ، خارج باب النصر »] [2] .

لم تكد المؤسسات التعليمية تنشأ فى المشرق حتى تولى الأساتذة الإسبان أمر التدريس فيها ، وخلفوا وراءهم ذكرى عطرة وشهرة مستفيضة ، فى حلب[3] ، وفى دمشق[4] ،

(١) مسجد الحاكم بأمر الله ، وهو الذى جددته طائفة البهرة بالهند على نفقتها هذا العام . (المترجم) .

(٢) الصفدى ، أعيان العصر وأعوان النصر ، نقلا عن نفح الطيب ، جـ ٢ ص ٥٣٧ وما بعدها . (المترجم) .

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٣ ص ٨٨٠ ، طبعة أوربا .

(٤) ابن جبير ، ص ٢٧٣ .

وفى الإسكندرية والقاهرة ، وغيرها . وبلغ الأمر أن عالما إشبيليا متحمسا أقسم متحديا أن يذهب إلى البصرة حيث ألف سيبويه عالم النحو الشهير كتابه الذائع الصيت فى النحو ، لكى يبرهن لهم على أن بين الإسبان المسلمين من يستطيع أن يدرس اللغة العربية خير من أى إنسان فى العالم ، وأوفى بوعده[1] . وهو يشبه ما يمكن أن يقوم به الآن عالم من شيلى ، أو بيرو ، أو المكسيك ، يجيء إلى مدريد وينشىء مدرسة ليبرهن على أنه قادر على تعليم اللغة الإسبانية أفضل من أى أستاذ إسبانى .

والصفة الثانية التى يجب أن تشيع فى الأستاذ تدينه ، والتدين بداهة ليس شرطا فى القدرة على التدريس ، ولكنه ضرورى ، لأن عملية التعليم نفسها تتطلب أن يكون هناك من يرغب فى التعلم ، ومجرد الشك فى تدين الأستاذ يذهب بالطلاب بعيدا عنه ، وإذًا فلكى تكون أستاذا لابد أن يتوفر لك هذا الشرط الخارجى ، وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذونه »[2] .

ولا يكفى أن تكون مستقيما وعلى مذهب أهل السنة فحسب ، بل من الضرورى أن تجمع إليهما العمل بالمذهب المالكي ، وهو المذهب القومى للدولة ، وما أكثر الذين جاءوا من المشرق ، يفيضون حماسة وأملا ، ويزهون بما حملوا من جديد تعلموه ، وعلى وعد مع أنفسهم بأن يجعلوا منه مصابيح مضيئة ، فلما بدأوا دروسهم ، واستشف الطلاب اتجاههم ، أصبحوا وحدهم لا يجدون من يسمع منهم .

وقد سكن **عبد الله بن وهب الطليطلى** « مكة أحد عشر عاما ، وأكثر من الرواية عن رجالها وعن المصريين ، مؤلفا لمن قدم عليه مكة من آفاق بلاد المسلمين ، من طلاب العلم والعبادة ، حتى كان لا يشك أنه أعلى من يدخل الأندلس من أهلها ، فقدم الأندلس ، ولم يلبث أن مال إلى الدنيا ، فأمسك الناس عن الأخذ عنه لذلك »[3] .

ورحل خليل بن عبد الملك **بن كليب** ، المعروف بخليل الفضلة ، إلى المشرق ، وكان يعلن بالاستطاعة ، مشهورا بالقدر لا يتستر ، وكان فى بدء أمره صديقا لمحمد بن وضاح ، ثم لما تبين أمره هجره ، ويروى عن أحمد بن بقى قال : سمعت أبا عبيدة يقول : حضرت

---

(١) ذكرت من العلماء من وقعوا فى ذاكرتى فحسب ، لأن القائمة طويلة لا تنتهى ، ودراسة تأثير الأساتذة الإسبان المسلمين فى البلاد الإسلامية خارج وطننا من الموضوعات المحببة إلى نفسى ، وأود دراستها يوما .

(٢) ابن خير ، ص ١٨ .

(٣) ابن الفرضى ، الترجمة ، ٢٦٢ ، طبعة الدار المصرية .

الشيخ ، يعنى بقيا ، وقد أتاه خليل ، فقال له بقى : أسألك عن أربع ، فقال : ما هى ؟ ، قال : ماتقول فى الميزان ؟ قال : عدل الله ، ونفى أن تكون له كفتان ، فقال له : ماتقول فى الصراط ؟ ، فقال : الطريق ، يريد الإسلام فمن استقام عليه نجا . فقال له : ماتقول فى القرآن ؟ فلجلج ولم يقل شيئا ، وكأنه ذهب إلى أنه مخلوق . فقال له : فما تقول فى القدر ؟ فقال : أقول : ان الخير من عند الله ، والشر من عند الرجل . فقال له بقى : والله لولا حالة (هكذا) لأشرت بسفك دمك ، ولكن قم ، فلا أراك فى مجلسى بعد هذا الوقت . ولما توفى أتى أبو مروان بن عيسى وجماعة من الفقهاء ، وأخرجت كتبه وأحرقت بالنار إلا ما كان فيها من كتب المسائل[١] .

والشىء نفسه حدث لعبد الله بن محمد بن قاسم **بن هلال** ، من أهل قرطبة ، فقد رحل إلى العراق ، ولقى أبا سليمان داوٌد بن سليمان القياسى ، فكتب عنه كتبه كلها ، وأدخلها الأندلس ، وغلب عليه المذهب الظاهرى ، فأخلت به عند أهل وقته[٢] .

ورحل إلى المشرق **أيوب بن سليمان** ، وجده الأعلى بلكايش بن إليان القوطى ، ودخل العراق فسمع بها ، وعاد ومعه كثير من كتب العراقيين ، وكان مائلا فى مذهبه إلى الحجة ، لهجا بالنظر ، لا يرى التقليد ، وكانت له وجاهة بعلمه ، وشرف أوليته ، المأثور بدخول الإسلام أرض الأندلس على يد جده إليان ، ومع ذلك انصرف عنه الطلاب ، فلم يستطع أن يدرس لأحد غير ابنه[٣] . وعاد محمد بن مفرج ويعرف بالفانى ، من أهل قرطبة ، يحمل كتبا جديدة ، وعلما وفيرا ، « وكان يعتقد مذهب ابن مسرة ويدعو إليه » فترك الناس الأخذ عنه[٤] . وأصبح بلا طلاب .

وأخيرا يجب أن نتذكر ما حدث لبقى بن مخلد[٥] ، وابن حزم[٦] ، وغيرهم .

---

(١) المصدر السابق ، الترجمة ٤١٩ .

(٢) المصدر نفسه ، الترجمة ٦٥٥ .

(٣) ابن الفرضى ، الترجمة ٢٧٠ ، طبعة الدار المصرية .

(٤) المصدر السابق ، الترجمة ١٣٣١ .

● وفى الأصل رقم الترجمة ١٥٢٩ وهو خطأ « المترجم » .

(٥) انظر الصفحة ٣٢ من هذا الكتاب .

(٦) لمعرفة الصراع العنيف الذى دار بين ابن حزم وبقية الفقهاء يمكن العودة إلى :

● د. الطاهر أحمد مكى، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة القاهرة١٩٧٨، الطبعة الرابعة، مكتبة دارالمعارف .

● مقدمة «الأخلاق والسير» لابن حزم ، تحقيق د . الطاهر أحمد مكى دار المعارف الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٩٢ .

وعلى النقيض من ذلك ، كل من تميز بأنه عدو لدود لكل تجديد ، وكل من فاضت حماسته بمكنونها ، فشتم ، أوضايق بقية الفرق الأخرى ، وبرهن على تمسكه بمذهب أهل السنة ، وقال كلاما مرعبا عن بقية المذاهب ، أو كتب يشهر بها ، ويلقى التهم جزافا على أتباعها ، مثل هذا العالم يمتلىء درسه بالطلاب ، تجذبهم إليه هالة تحيط به من الاستقامة والنزاهة ، وأحيانا لا ترى العامة فضائل إيجابية للعالم إلا من خلال العنف الذى يلاحق به أولئك الذين يخالفون مذهبم ، ولا يحظى بهذا اللقب عندهم إلا من اضطهد الآخرين ، واحتقر آراءهم ، دون نظر إلى فضائله الذاتية نفسها .

وبعض العصور تتسم بلون من الهدوء والسلام ، فتخف معه حدة ملاحقة أصحاب المذاهب المعارضة ، غير أن هذه الهدنات كانت قليلة فى إسبانيا الإسلامية ، أولا :لأن الحاجة ماسة للحفاظ على العمل موحدا ، والعقيدة واحدة ، فى مواجهة المسيحيين واليهود الذين يعيشون بينهم ، وفيما بعد لجمع شمل المقاطعات التى انفصلت على شعور واحد ، يستطيع أن يحملهم على العمل معا جميعا ، لإنقاذ أنفسهم من الخطر المشترك متمثلا فى تفوق البلاد المسيحية حربيا واجتماعيا على نحو مخيف ، وبدأت تستولى على المدن الإسلامية واحدة إثر أخرى ، والموقفان ، وكلاهما صعب ، لا يتيحان لهم الهدوء والاستقرار الذى يؤدى إليه النظام الداخلى المحكم ، والأمن من التهديد الخارجى ، وهما أمران لم تتمتع بهما إسبانيا الإسلامية إلا فى فترات قصيرة .

وفضلا عن هاتين الصفتين الجوهريتيين : العلم والدين ، كانت هناك صفات أخرى موضع التقدير الكبير فى الأستاذ ، ومنها تحرى الصدق ، حتى فى الأمور التى لا تتصل بالعلم ، لأن افتقاده يمكن أن يؤدى إلى نتائج سيئة ، وألا يكون صاحب عادات سيئة تؤخذ عليه ، فمثل هذا لا يمكن أن يوكل إليه أمر قيادة الشبيبة فى اطمئنان ، وكان مالك رضى الله عنه يقول :« لا تأخذوا العلم عن أربعة ، وخذوا عمن سواهم :لا يؤخذ من سفيه ملعن بالسفه وإن كان أروى الناس ، ولا من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه ، ولا من كذاب يكذب فى أحاديث الناس وإن كنت لا تتهمه بكذب على رسول الله ﷺ ، ولا من شيخ له عبادة وفضل إذا كان لا يعرف الحديث »[1] .

وعلى الأستاذ أن يكون فى درسه بشوشا ، واجتماعيا ، سخيا فى ملاحظاته ، وأن يتوقى التدليس فى الرواية ، وأن يتزين بالتقوى ، وأن يبتعد عن التلاهى فى الأمور لئلا

(١) فهرسة ابن خير ،ص ١٩ .

تنفر نفوس طلبة الحديث منه ، ويزهدون فى الحمل عنه ، وأن يحرض الطالب ، ويرغبه فى العلم[1] وأن يكون معه ما يكونه الأب لابنه ، أو الاخ لأخيه ، وأن يكون له المثل الأعلى[2]. وأدى هذا فى واقع الحياة إلى وجود علاقات ود حنون ، ومودة صادقة ، بين الأستاذ وطلابه .

وما يمكن أن نقوله عن الطرق التربوية المستخدمة قليل ، ولكننا نعرف أن الأساتذة كانوا يستخدمون الوسائل الذكية واللطيفة كى يحببوا طلابهم فى الدرس ، ويثيروا فيهم روح المنافسة ، ويحركوا فيهم عوامل الفهم والفكر والاستنباط ، ويسهلوا لهم التعليم[3] . ولكن الأمر لم يبلغ حد المنهج الواضح السوى ، وإنما هى العادات والتقاليد التى تحدثنا عنها ، ولا تجاوز ، فيما أعتقد ، الطرق التى يمكن أن يهتدى إليها المرء من خلال تجربته الشخصية ، نعم إن الذين عرضوا للقضية فى رسائلهم ، وقالوا ما فيه الكفاية ، أو جزوا كل ما يرونه فى فضيلة تربوية واحدة، امتدحوها، وأثنوا عليها فى إصرار شديد : الصبر !

● **السن ، والملابس ، والمرتبات ، وغيرها :**

فيما يتصل بالسن التى يستطيع فيها المرء أن يمارس مهنة التدريس لم يكن ثمة قانون يحددها ، ولا قاعدة تحكمها ، وكل من يرى فى نفسه الكفاءة ليكون أستاذا يمكن أن يمارس المهنة فى الحال ، والطلاب وحدهم يقررون حظه من الفشل والنجاح ، وحتى الطلاب أنفسهم يستطيعون أن يتبادلوا الدروس فيما بينهم ، وأن يصبح بعضهم أستاذا للآخرين وإذا كان احتراف التدريس لا يتوقف على سن محدودة ، فهو أيضا لا يتطلب أية إجازة علمية ، وحتى إذا طالب بهذه متشكك أو متردد فمن السهل تقديمها له ، مادام المدرس قد حضر دروس المادة على أى أستاذ ، لأن الأساتذة هم الذين يمنحون الإجازات لطلابهم عندما ينتهون من دراسة المادة ، أو الكتاب المحدد ، ولكن العادة جرت بألا يكون للأستاذ حلقة معروفة يتردد عليها طلاب كثيرون إلا عندما ينضج سنا ، وينال مع الزمن شهرة مستفيضة ، ويتردد اسمه فى الأسماع وعلى الألسنة ، ويقتنع جيل بأكمله بفضائل شخصه تدريجا . والحق أن أغلبيه الأساتذة فى التعليم العالى لم يكونوا يقدمون على

---

(١) فهرسة ابن خير ، ص ٤٠

(٢) ابن بشكوال، الصلة ، الترجمة ١٢٦٤ طبعة مدريد ، والتكلملة لابن الأبار ، الترجمة ٨٣٦ ، طبعة مدريد .

(٣) ابن بشكوال ، الصلة ، الترمة ١٢٦٤ ، والتكملة ، الترجمة ١٥٥٩ .

اقتحام عبابه إلا أن تتقدم بهم السن ، وحتى بعد أن تدركهم الشيخوخة ، وبعضهم ينتهى به المطاف أستاذا بعد أن طوف بعدد من الوظائف العامة زمنا .

وتدريس بعض المواد مثل الفقه والتوحيد يتطلب وقارا أزيد ، على نحو ما , كأن يضحك المشيب برأس الأستاذ أو لحيته ، لأن من خصائص الشباب سهولة انزلاقه إلى دعوات التجديد ، ولم يكن لقب « شيخ » يطلق على المدرسين إلا عندما يبلغون الخمسين من عمرهم .

يمكن أن نتخذ من أبى على الشلوبينى ، النحوى الشهير ، مثلا على نضج الأستاذ قبل الأوان المعتاد ، وبلوغ هذه المكانة فى زمن مبكر ، وممارسة المهنة طوال أعوام كثيرة ، فقد تولى التدريس وهو فى العشرين من عمره ، ثم واصله على امتداد ستين عاما ، حتى حرمته منه علل الشيخوخة[1] .

وحتى مع تقدم السن لم يكونوا شيوخا يلف ذكاءهم ضباب معتم ، لأن التقاعد يصيبهم فى اللحظة المناسبة التى لا تخطىء أبدا ، فهو لا يصدر به قرار وزارى ، ولا يتم بناء على طلب صاحبه ، وإنما يحدد الطلاب ساعته حين يلحظون تراجع الصفاء العقلى لأستاذهم أمام الشيخوخة الزاحفة ، دون أن يرتبط الأمر بأية إشارة تومىء إلى عجز الأستاذ ، فلم تكن ثمة لائحة يجب السير عليها ، وإنما الفائدة وحدها هى القاعدة ، فإذا غابت انسحبوا فى هدوء ، واحدا وراء آخر ، إلى أستاذ ثان يجدون عنده ما يبتغون .

ولم يكن للأساتذة زى محدد يميزهم عن غيرهم ،وإن جرت العادة أن الأشياخ المعظمون وحدهم ، من بين كل الخاصة والعامة ، هم الذين يضعون الطيلسان على رءوسهم ، وأنهم وحدهم الذين يرخون الذوائب أيضا ، ولا يصرفونها بين الأكتاف ، وإنما يسدلونها من تحت الأذن اليسرى[2] . ولكن ذلك كما نرى يشمل العلماء الأساتذة مثل عبد الملك بن حبيب ، وكان يجلس للإقراء فى ملابس غالية ، بعضها من « السعيدى » ، وهو حرير ينسج فى اليمن ، وكان يرى ذلك توقيرا وإجلالا للعلم الذى يقرئه . ومهما يكن فإن أفضل زى يرتديه الأستاذ من الحرير فى كل زمن أن يكون فى رأسه شىء يقوله للطلاب .

---

(١) التكملة ، الترجمة رقم ١٨٢٩ .

(٢) ابن سعيد المغربى ، فى نفح الطيب ، جـ ١ ص ١٣٧ ، طبعة أوربا وجـ ١ ص ٢٢٢ ، إحسان عباس .

قلنا إن التعليم العربى كان فى البدء دينيا خالصا ، وعندما انتشر الإسلام بين البلاد المفتوحه أصبحت معرفة العربية واجبا ملحا بين الذين اعتنقوه . كيف حدث لهم أن ذلك يمكن أن يثابوا عليه فى الدنيا ؟ . ولكن ما إن انتشرت العقيدة الإسلامية حتى أصبح واجبا أخلاقيا أن يتعلم الناس ، ومع الإحساس بالواجب جاءت المكافأة على التعليم ، وعرف المدرسون الرواتب . وقد احتاجت إسبانيا الإسلامية أكثر من غيرها ،كنقطة تلتقى عندها الحدود مع دول أخرى ، أن تعطى المثل ، وأن تكون القدوة ، فى جذب الناس إلى العقيدة الإسلامية وفى الدفاع عنها ، ومر زمن طويل ظل فيه التعليم مجانا ، وطالت هذه الفترة فيها أكثر مما طالت فى أى بلد إسلامى آخر ، دون أن تتحول إلى مهنة ، أو يتلقى عنها القائمون أجرًا أو مكافأة .

وقد عرضت كتب الفقه المالكى للقضية ، وسبق أن أشرنا إلى أن مبادىء المذهب المالكى تأصلت فى إسبانيا ، وناقشت فى إفاضة : هل يباح للمدرس أن يقبض على دروسه أجرا أم لا . والأجر فى مهنة التدريس ، كان رأيهم ينصرف فى المقام الأول إلى تعليم القرآن الكريم بوصفة واجبا دينيا ، ولكنهم أباحوه فيما يتصل بمواد التعليم الأخرى غير الدينية ، لأن معرفتها ليست فرضا على الجميع ، ومع ذلك فهم يتفقون جميعا على جواز قبول العطايا والهبات فيما يتصل بتدريس القرآن الكريم ، بل يبيحون أن يحدد المدرس سلفا كل الشروط التى يمكن تصورها ، وفى صالحه ، وترفع من شأنه . وفيما يتصل بتدريس الفقه ، والفرائض ، والنحو ، والشعر ، والبلاغة ، خلاف كبير ، ونقاش طويل ، وتردد وعدم حسم ، هل يجرى عليها ما يجرى على القرآن الكريم أم لا . ولذلك تفسير تاريخى فيما رأى : لقد بدأ المسلمون بتعليم القرآن أولا ، فأصبح تعليمه مهنة قبل غيره من بقية المواد ، يدفع عنه الطالب أجرا ، ويقبض المدرس راتبا ، فلما تكونت المذاهب الفقهية وجدت نفسها مضطرة إلى إباحة الأجر عن تعليم القرآن الكريم ، طبقا للتقاليد السائدة ، غير أنها ترى القيام به واجبا ، وتدعو إلى تدريسه مجانا ، واعتبرت قبض الأجر حراما فى تدريس بقية المواد الأخرى .

ولكن شدة التمسك بالأخلاق فى مجال التعليم بدأت تتراخى شيئا فشيئا ، فانتهى الحال بالفقهاء أخيرا إلى إباحة قبول العطايا ، لا فى تعليم القرآن الكريم فحسب ، وإنما أيضا فى تدريس الفقه ، وكتابة الرسائل ، والتاريخ ، وغيرها . وهذا الرأى الذى انتهيت إليه يمكن أن تطمئن له إذا قرأت صيغ الوثائق ، وما أتيت به منها فى الملحق دليلى فى

هذا المقام ،وفى رأيى أنها مادة تاريخية ممتازة ، أفضل مما ورد فى كتب الفقه ، لأن الأولى تتصل بالتطبيق العلمى ، والاستعمال الجارى ، والثانية ، وأعنى بها كتب الفقه ، تتقف عند التنظير ، والشروط التى تعرضها قد لا تنفذ أحيانا ، ومن ثم يجب أن نتناولها بحذر شديد قبل أن نفيد منها ، أو نعطيها قيمة تاريخية . ومن المؤسف أن تبقى مثل هذه الوثائق دون نشر . لأنها تفيدنا أحيانا أكثر مما تفيدنا المدونات التى عنيت بالملوك[١] ، ويمكن البرهنة على ما انتهيت إليه فى دراستى بما كان يحدث فى إسبانيا فعلا .

نحن نعرف أن الأساتذة القدامى فى إسبانيا الإسلامية ، وحتى الذين بلغوا منهم شهرة مستفيضة ، كانوا يمارسون مهنة ما ، أو عملا يدويا يتعيشون منه ، إذا لم يكن لهم فيما ورثوا عن أسلافهم ما يعينهم على العيش ، وإن أحدهم ليبذر الحب فى حقله ، ومقطفه معلق بكتفه ، بينما الطلاب على مقربة منه ، ينشدون الشعر ، أو يقرأون فى الكتب ، وثان يوجه التلاميذ دون أن يترك عمله فى المصنع ، وآخرون كثيرون يدرسون فى المساجد ، بعد أن أمضوا سحابة نهارهم يكافحون بعرق جبينهم من أجل لقمة العيش[٢] . وكان قبول الأجر يومها يعتبر خدشا للحياء .

وكان عبد الأعلى بن وهب بن عبد الأعلى رجلا عاقلا ، حافظا للرأى ، مشاركا فى علم النحو واللغة ، متدينا زاهدا ، ينسب إلى القدر ، ويذهب إلى أن الأرواح تموت ، وبينما ذات يوم فى حديقته ، جالسا فى سرير مرضه الذى حمله إلى الموت ، وحوله تلاميذه ومريدوه ، وبينهم فتى يعمل فى قصر الخلافة يدعى عبد الرحيم ، بدأ الأستاذ يأسى لعلل الشيخوخة من ضعف وإنهاك ، وقال لهم : أرى الموت حق ، ولكن ما يحزننى أننى عاجز كل العجز عن رد مبلغ اقترضته ، وسأموت وفى نفسى غصة ومرارة من عدم سداده . وعندما سمع الطلاب كلامه بدأوا يدعون له ، ويصلون من أجله ، ولكن الفتى عبد الرحيم انتهرهم قائلا : يدهشنى موقفكم ، وما أنتم عليه من علم يعود فضله إليه ، حضرتم درسته ، واغتنمتم علمه ، وتسمعون أسفه لعجزه عن سداد دينه ، وترون ما يسبب له ذلك من حزن وألم ، وكلكم مقتدرون ، تستطيعون دفعه دون تضحية ، ومع ذلك لا تصنعون له شيئا غير الصلاة والدعاء ، ثم توجه إلى أستاذه قائلا : أنا كفيل

(١) كان ذلك طبعا فى الزمن الذى كتب فيه ريبيرا دراسته هذه فى نهاية القرن الماضى ، أما فى هذا القرن فقد قطع المستشرقون الإسبان شوطا .

(٢) ابن بشكوال ، الترجمة ٥١ ، وابن الفرضى ، الترجمة ١٥٩٥ .

بسداده ، وتركهم وذهب ليدفع ٥٠٠ دينار إلى صاحبها ، وهى قيمة الدين الذى كان على الأستاذ[١] .

ويروى تلميذ **لأبى على الغسانى** ، « أنه سمع عليه يوما ، ودفع إليه جملة من المال جزاء على ذلك ، فأخذه ووضعه على رأسه ، وقال : لا آخذ على هذا شيئا أبدا ، ولو أخذت من أحد لأخذت منك »[٢] .

ومن المؤكد أن كثيرين كانوا يلقون دروسهم مجانا ، بعضهم لكى يجذب الطلاب ، ويشيع اسمه بين الناس ، وبعضهم صلاحا وتقوى ، وحمية دينية ، وآخرون تسلية وحبا . **فابن وضاح اللخمى** ، **محمد** بن إبراهيم ، من أهل غرناطة ، رحل حاجا فأدى الفريضة ، ودرس القراءات بمكة ، ودخل بغداد ، وأقام فى رحلته نحوا من تسعة أعوام ، وقفل إلى الأندلس ، فنزل جزيرة شقر من أعمال بلنسية ، وأقرأ بها القرآن نحوا من أربعين سنة لم يأخذ من أحد أجرا ، ولا قبل هدية ، وكان رجلا صالحا ، زاهدا يشار إليه بإجابة الدعوة ، معروفا بالورع والانقباض[٣] .

وكان عبد الله **بن الزيات** القرطبى ، فى أول أمره ، تاجرا ذا ثروة ، فتصدق بماله ، ورغب فى الزهد ، واعتزل أهله ، وأقبل على قراءة القرآن ، وطلب العلم والدرس إلى أن توفى[٤] . وعلى بن هذيل البلنسى ، لا يجد أية متعة إلا فى التفاف الطلاب حوله ، يحملهم إلى ضيعته ، بعضهم يقرأ صامتا ، وآخرون فى صوت مرتفع ، وهو يقوم على توجيههم ، ويمضى معهم الحياة على هذا النحو سعيدا . كيف يقبض مثله على درسه أجرا ؟ ذلك المسرف الذى لا يتوقف خلاف زوجته معه ، لأنه يتصدق بكل ما يقع فى يده ، ويوشك أن يترك أولاده على بابِ الله الكريم ![٥] .

ولكن المثل الأروع فى هذا الجانب ضربه لنا ابن كوثر سعيد الطليطلى ، يقول أحد تلاميذه : « كنت آتى إليه من قلعة رباح ، وغيرى من المشرق[٦] . وكنا نيفا على أربعين

---

(١) التكملة لابن الأبار ، الترجمة ١٦٦٠ ، وهى لا توجد إلا فى طبعة مدريد ، ولم يتيسر لى فى القاهرة ، ولذلك ترجمت النص من الإسبانية . « المترجم » .

(٢) المعجم لابن الأبار ، الترجمة ١٢٢ .

(٣) التكملة ، الترجمة ٨٢٨ [ونفح الطيب ، ١٦٠/٢ طبعة إحسان عباس] .

(٤) التكملة ، الترجمة ١٢٥٩ ، طبعة مدريد [ت ١٩٢٢ طبعة مصر] .

(٥) المصدر السابق ، الترجمة ، ١٨٥٨ ، طبعة مدريد .

(٦) مشرق الأندلس طبعا . « المترجم » .

تلميذا ، فكنا ندخل فى داره فى شهر نونبر ، ودجنبر ، وينير ،[1] . فى مجلس قد فرش بيسط الصوف مبطنات ، والحيطان باللبود من كل حول ، ووسائد الصوف ، وفى وسطه كانون فى طول قامة الإنسان مملوء فحما ، يأخذ دفئه كل من فى المجلس ، فإذا فرغ الحديث أمسكهم جميعا ، وقدمت الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان بالزيت العذب ، وأيام ثرائد اللبن بالسمن أو الزبد ، فنأكل تلك الثرائد حتى نشبع منها ، ويقدم بعد ذلك لونا واحدا ، ونحن قد روينا من ذلك الطعام ، فكنا ننطلق قرب الظهر مع قصر النهار ، ولا نتعشى حت نصبح إلى ذلك الطعام الثلاثة الأشهر ، فكان ذلك منه كرما وجودا وفخرا ، لم يسبقه أحد من فقهاء طليطلة إلى تلك المكرمة »[2] .

ولابد من الإشارة إلى أن عادة رفض العطايا والهبات كانت متأصلة تماما فى إسبانيا الإسلامية فى العصور الأولى ، وحتى فيما بعدها بزمن طويل ، وحدث أن جمهرة من الطلاب الإسبان المسلمين سافرت إلى مصر للدراسة على كبار فقهاء المالكية فيها ، فوجدت **ابن أخى ابن وهب أسهل** ، فجمعوا له الدنانير ، وأعطوه إياها ، فقرأ لهم موطأ عمه وجامعه ، فصار فى نفس **محمد بن فطيس** شىء من ذلك ، وكان أحدهم ، يقول : « فأردت أن أسأل **ابن عبد**الحكم عن ذلك ، وكنت أقرأ عليه رأى **أشهب** ، فخشيت إن سألته فى أول المجلس عن ذلك أن يحرج على ، إذ كانت فيه حدة . فلما قرأت عليه بعض الكتاب قلت له : أصلحك الله ! ، العالم يأخذ الأجرة على قراءة العلم . قال : فضرب الدفتر الذى كان بيدى من أسفله حتى ارتفع إلى وجهى، وشعر فيما ظهر لى إنما سألته عن ابن أخى ابن وهب ، فقال لى: جائز عافاك الله ! ، أن لا أقرأ لك إلا ورقة بدرهم، ومن أخذنى أن أقعد معك طول النهـــار، وأدع ما يلزمنى من أسبابى ونفقة عيالى[3] .

وهذه الحادثة تبرهن على أن عادة عدم دفع الأجور والأتعاب للأساتذة جعلت الطلاب أنفسهم يرون أن هذا حقا لهم ، وأنه يجب على المدرسين ، فى بعض الحالات على الأقل ، أن يعطوا دروسهم مجانا دون مقابل .

---

(١) أشهر نوفمبر ، وديسمبر ، وينابر ، على التوالى . « المترجم » .

(٢) ابن يشكوال ، الصلة ، الترجمة ٧١ ، طبعة الدار المصرية .

(٣) الضبى : بغية الملتمس ، الترجمة ٢٥٢ ، طبعة أوربا .

وفى مثل هذا الجو من السخاء لم تكن مهمنة التدريس تبشر بمستقبل مرموق ، وربما كان ابن عبد البر يشير إلى مثل هذه الحالة فى هذه الأبيات من شعره :

إذا جمعت بين أمرأين صناعة ... فأحببتَ أن تدرى الذى هو أحذقُ

فلا تتأمل منهما غير ما جرت ... به لهما الأرزاق حين تفرقُ

فحيث يكون الجهلُ فالرزق واسعٌ ... وحيث يكون العلمُ فالرزق ضيقُ(1)

ولكن مثل هذه البطولة لا يمكن أن تكون عامة أو لا يتأتى لها أن تدوم ، وإنما أصبح العادى قبول العطايا أو الأتعاب فى شكل هدايا ، ودون تحديدها مقدما ، سواء بالتعاقد أو بأى وسيلة أخرى معروفة بين الطلاب والأساتذة ، ثم جاء الوقت الذى لم يكن ينقص من قدر العالم أن يعمل مؤدبا للملوك والأمراء .

[فاختار الخليفة الحكم المستنصر الفقيه القسطلى ، أحمد بن محمد بن يوسف ، لتعليم ولده الأمير أبى الوليد هشام ، وأحسن وصاته به ، ورسم له فى تعليمه وتدريجه رسوما أقاده عليها ، ولم يعد عنها ، نفع الله الولد بها ، وكان قد أمر بتطرية الدار المعروفة بدار الملك بقصر الزهراء وتنجيدها ، وإقامة كل ما يحتاج إلى إقامته وإعداده بها ، وفى الطريق إليه ، وفتح « باب غربى » فى فصيل الفتيان بها ، ليقترب عليه الخروج منها إلى هذه الدار ، فيكون قعوده مع مؤدبه المذكور فى المجلس الشرقى منها ، بأيمن طائر ، فقضى ذلك كله ، وأحكم شأنه ، فكان جلوس الأمير أبى الوليد مع معلمه فى المجلس المذكور ،من الدار المحدودة ، يوم الخميس لخمس خلون من شهر رمضان (سنة إحدى وستين وثلاثمائة هجرية) واستخف الخليفة الحكم السرور بما هيأه الله من ذلك ، إلى أن برز إلى هذا المجلس نهاره هذا ، لتقع عينه على ابنه ، وتشاهد كيف صبره على الثقاف الذى لزه ، فعاين من ركانة مجلسه ، وطلاقه وجهه ، إقباله على معلمه ، وسكون جأشه . ما قرات به عينه ، وتجلدت مع سرته ، فبادر بإخراج مال واسع إلى صاحب الشرطة والسوق أحمد بن نصر بعينه ، ليفرقه على الضعفاء والمساكين وأبناء السبيل ، شكرا لله على جليل منته عليه ، فى قرة عينه ، وسلالة مجده ، وعهد بعقد استئمار الفقيه أحمد بن يوسف معلم الأمير أبى الوليد هشام بإجراء الرزق عليه : الراتب والحملان والعلوفة ،

(1) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ١٣٢٠ .

وعهد بإقامة علوفة للأمير أبى الوليد محدودة العدد ، موصوفة الأطعمة ، تقدم إليه وإلى من معه من صبيانه كل يوم بموضع حضارة ذلك ، وأمر بتقديم ذكاء ، الوصيف الكبير الخصى ، ناظرا للأمير أبى الوليد ، قيوما على جميع صبيانه ، متكفلالشأنه »] [1] .

[وكان الرباحى ، محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدى النجوى ، « فقيها ، إماما ، موثوقا ، أخذ كتاب سيبويه رواية عن ابن النحاس ، وكان جيد النظر ، دقيق الاستنباط ، حاذقا بالقياس ، نظر الناس عنده فى الإعراب ، وأدب عند الملوك ، وأستأدبه أمير المؤمنين الناصر ، رضى الله عنه ، لابنه المغيرة ، ثم صار إلى خدمة المستنصر بالله فى مقابلة الكتب ، وتوسع له فى الجراية »] [2] ، وقد سلك الأغنياء الموسرون هذا الطريق أيضا ، وهكذا أصبح التدريس وسيلة ناجعة إلى حياة طيبة[3] .

وكان الأساتذة أحرارا فى اختيار المكان الذى يدرسون فيه ، يقيمون حيث يشاءون ، ويدرس الواحد منهم ما يرى نفسه كفئا للقيام به ، ويعتقد أنه يجيده ، وكان لبعضهم مقر ثابت ، وآخرون لا يستقرون فى مكان ، فهم يلقون دروسهم فى قرى مختلفة[4] .

ولأنه لم تكن هناك مؤسسات قائمة يتنوع فيها الأساتذة المربون ، أو يتغيرون فيذهب بعضهم ويجىء آخرون ، بين حين وآخر ، ولأن المدرس الواحد يقوم بتدريس مواد عديدة لتلميذ واحد ، فقد تأصلت العلاقة بين الاثنين ، الأستاذ والطالب ، واتسمت بالود الحنون ، والحنان الصادق فى الدرس وبعيدا عنه .

وكانت وفاة الأستاذ تعنى موت مؤسسة ، ومن ثم فإن تلاميذه يكون ذهابه فى حرقة صادقة ، وحزن عميق ، ويعبرون عن حبهم له فيحملون نعشه على أكتافهم ، ويجسدون مشاعرهم فى قصائده من الرثاء ، ومعها يدخل اسم الأستاذ أحيانا عالم الخلود .

(١) اكتفى المؤلف بالإشارة إلى هذا النص ، وأحالنا على مصدره ، وجئت به كاملا لأهميته ، فهو يلقى ضوءا كاشفا على طريقة تأديب الأمراء ومعاملة مدرسهم ، فى هذه الحقبة البعيدة من تاريخ التربية فى الإسلام ، فى أواخر القرن العاشر الميلادى ، انظر : ابن حيان ، المقتبس ، الجزء الذى نشره الدكتور عبد الرحمن على الحجى عام ١٩٦٥ ، ص ٧٦ ، ٧٧ ، وقد رجع إليه ريبيرا مخطوطا .

(٢) ابن الفرضى ، الترجمة ١٢٩٢ ، طبعة الدار المصرية .

(٣) ابن الفرضى ، الترجمة ١٣١٦ ، والرقم خاطىء ولم أستطع الاهتداء إلى الصواب ، والتكملة ، الترجمة ١١٦٦ .

(٤) التكملة ، الترجمة ٥١٧ .

الطــــلاب

● إجلال العلم فى الإسلام :

بين الكثير من الجمل التى انتقلت إلينا من عصر إلى عصر فى مدح وإطراء المعرفة ، تجىء الأحاديث النبوية فى المقدمة ، يقول ﷺ والسلام فى جملة من أحاديثه : « **لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير من أن تصلى مائة ركعة** » و « **باب من العلم يتعلمه الرجل خير من الدنيا وما فيها** » **وفى حديث أبى ذر رضى الله عنه** : « **حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة ، وعيادة ألف مريض ، وشهود ألف جنازة . فقيل يا رسول الله : ومن قراءة القرآن ؟ فقال : وهل ينفع القرآن إلا بالعلم** » . **وفى حديث آخر** : « **إن الله وملائكته وأهل سماواته وأرضه ، حتى النملة فى جحرها ، وحتى الحوت فى البحر ، ليصلون على معلم الناس الخير** » و « **يستغفر للعالم ما فى السموات وما فى الأرض** » و« **العلماء ورثة الأنبياء** » ، وغيرها كثير مما أورده الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين » ، **فى باب فضيلة العلم ، واعتمدت فى نقلها على** ما ورد منها فى مختصر الإحياء الذى قام به العبيدى ، وهو مخطوط تملكه جمعية تشجيع الدراسات .

ورغم أن هذه الأفكار انتشرت عبر كل البلاد التى اعتنقت الإسلام لم يكن لها دور فعال فى بعث حب المعرفة ، والإقبال على الدرس ، لأن جذوة الحضارات القديمة فيها قد انطفأت ، وحل مكانها لون من شبه الهمجية ، يتجلى فى حب القبيلة أو الأسرة فحسب ، مما يحول بين المرء وبين الارتفاع اعتمادا على مواهبه وحدها ، وعلى قيمة شخصه . وكان الأمر على النقيض فى إسبانيا ، ذلك أن ذبالة من تأثير الحضارات الإغريقية والرومانية والمسيحية ظلت مضيئة ، كما أن تجاور عناصر مختلفة ومتعددة واختلاطها أتى سريعا على ذكريات الأسرة والقبيلة والجنس ، واصبح الرجال من أى عنصر كانوا أو إلى طيقة انتموا ، يجدون التقدير طبقًا لما يتمتعون به من مواهب شخصية ، وأدى ذلك إلى إشاعة الرغبة فى الدرس ، وحب الناس للثقافة ، ولم يقتصر الأمر على العلوم ذات الطابع الفقهى الخالص ، وتجىء فى القمة تقديرا وإقبالا ، وإنما شمل كل فروع المعرفة الأخرى .

نعم ، كان الإحساس العنصرى متمكنا فى النفوس خلال أيام الإسلام على أرض إسبانيا ، فأصبحت مناصب الدولة الهامة وقفا على رءساء القبائل الكبرى ، ولكن عندما جاء الأمويون إلى هنا وجدوا أنفسهم فى حاجة لأن يعتمدوا بالتناوب على البربر آونة ، وعلى العرب أخرى ، وأن يجذبوا إليهم بقية الشعب من أهل الذمة مسيحيين ويهودا . وتجاوزوا حتى من حولهم فاستجلبوا لأنفسهم أعدادا هائلة من أوربا رقيقًا ، يقومون على حراستهم وخدمتهم الشخصية ، ولم يقصروا ثقتهم على طائفة بعينها ، أو على أفراد معينين لا يتجاوزونهم ، وأى إنسان يمكن أن يصبح موضع التقدير ، إلى أى عنصر انتهى ، ما دامت تؤهله لذلك صفاته ومواهبه ، فالمقاتل للحرب ، والعالم للسلام ، وساد الأمن وعم الهدوء ، وبسط ظلاله على كل الناس أواخر أيام الدولة الأموية ، وأدى ذلك إلى ازدهار التعليم ، وكان حتما على الجميع أن يتعلموا ، يستوى فى ذلك الشريف الذى ينتسب فى أعرق الأسر ، والعادى من غمار الناس ، الأول لكى يحتفظ بأمجاد أسرته ، والثانى كى يبلغ فى المجتمع مكانة رفيعة ، ومن ثم لا أحد يستطيع أن يتخلى عن هذا الواجب .

وهكذا رأينا بين أمراء الأسرة الأموية نفسها ، وبين ملوك الطوائف ومن بعدهم ، من تميزوا بحبهم للمعرفة ، وفاقوا غيرهم من رعاياهم ، وقدموا لنا مثلا قليل النظير بين الأمم ، فكان بين أمراء الأسر الملكية فى بطليوس ، وطليطلة ، وسرقسطة ، ودانية ، والمرية ، وإشبيلية ، وغيرها ، من وقفوا أنفسهم على دراسة العلم ، وفى وقت واحد تقريبا . [وكان لكل أمير من أمراء الطوائف ميزة اختص بها دون جيرانه ، فامتاز **المتوكل** صاحب **بطليوس** بالعلم الغزير ، وامتاز ابن ذى النون صاحب طيطلة بالبذخ البالغ ، وفاق **ابن رزين** صاحب **السهلة** أنداده فى الموسيقا ، واختص المقتدر **بن هود** صاحب سرقسطة بالعلوم ، وبز **ابن طاهر** صاحب **مرسية** أقرانه بالنثر الجميل المسجوع ، أما الشعر فكان أمرًا مشتركا بينهم جميعًا ، يلقى منهم كل رعاية ، ولكن عناية **بنى عباد** أصحاب **إشبيلية** به كانت أعظم وأشمل] [1] .

يحكى أن **ابن حزم** ناظر **أبا الوليد الباجى** ، فقال هذا له : « أنا أعظم منك همة فى طلب العلم ، لأنك طلبته وأنت معان عليه ، تسهر بمشكاة الذهب ، وطلبته وأنا

(١) التفصيل زيادة منى . نقلا عن كتاب الشعر الأندلسى للمستشرق الإسبانى إيمليو غرسية غومث . « المترجم » .

أسهر بقنديل بائت السوق[1] ، فقال ابن حزم : هذا الكلام عليك لا لك ، لأنك إنما طلبت العلم وأنت فى تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالى ، وأنا طلبته فى حين ما تعلمه وما ذكرته ، فلم أرج به إلا علو القدر العلمى فى الدنيا والآخرة ، فأفحمه »[2] .

هذا الحوار بين ابن حزم وابى الوليد الباجى صورة واضحة على أن التنافس فى العلم بين مختلف الطبقات فى إسبانيا الإسلامية لم يخطىء طريقه ، وبين من يقبل عليه تسلية ، ومن استغرق عليه حياته ، ظهر طرف ثالث يحصد ثمرة الخلاف ، والمشهد مثير : فبينما الحكام والسياسيون العرب يتناقشون حول قضايا الفكر والأدب ، أو يستحثون القوى الإفريقية العون والغوث فى قصائد أنيقة ، كان النصارى فى الشمال يواصلون الاستيلاء على المدن الإسلامية واحدة وراء أخرى ، لأن الأدب وسيلة رائعة ، ومناسبة تمامًا ، لكى يحمل فردًا أو شعبًا إلى محراب الشهرة ، ولكنه يعجز عن إنقاذ مدينة يطوقها محاصرون أحكموا تنظيما وتدريبًا .

كان المستقبل اللامع ، والوظيفة الجذابة ، تنتظر الشاب فى اللحظة التى يبدأ فيها تعلّم مبادىء الفقه والنحو والأدب ، ما دام يجتهد ويأخذ بأسباب الطلب ، فالطريق إلى الوظائف مفتوح أمام الناس جميعا ، ويستطيع أى فرد أن يحقق طموحه بالعمل ، كأن يصبح إماما فى مسجد ضيعته أو رئيس الوزراء فى أمته ، ونستطيع أن نذكر حالات عديدة لأفراد من أشد الأسر تواضعًا ، واصلوا سيرهم صعدا حتى أصبحوا رؤساء الدولة ، وبخاصة فى عصر الطوائف ، ولهذا يقول ابن خلدون : أى شخص فى الأندلس يعتقد أنه قادر على أن ينشىء دولة ، وأن يؤسس مملكة[3] .

يبدأ الشاب الدراسة العليا عندما تتاح له الفرصة ، وتكون لديه الرغبة فى الاستفادة من التعليم ، ثم تجىء الرحلة إلى المشرق ، يتجهون إليه بكل الوسائل ، ومن كل أطراف إسبانيا ، لكى يحضروا دروس أساتذته المشهورين ، الذين يتحدث عنهم كل الناس ، وتبلغ شهرتهم الخافقين فى سرعة لانكاد نصدقها الآن ، إذا أخذنا فى الحسبان صعوبة وسائل المواصلات فى ذلك الزمان ، ويستخدم المؤرخون عادة صيغًا معينة للإشارة على

(١) يريد أنه يسهر على قنديل الدراب ، وهو الحارس الليلى ، وسماه « بائت السوق » لأنه يبيت فيه للحراسة .
(٢) نفح الطيب ، جـ١ ص ٥١١ طبعة أوربا ، جـ ٢ ص ٧٧ طبعة إحسان عباس .
(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، الترجمة الفرنسية ، جـ ١ ص ٦٣ .

الأساتذة الذين يجذبون الطلاب إليهم فى المدن التى يقيمون فيها ، فيقولون عنهم : « وكانت الرحلة فى وقته إليه » أو « كثر الراحلون إليه »[1]

ومع كل هذا لا أعتقد أنهم كانوا يعفون من رسوم المرور ، أو تخفض لهم أجور الخانات والفنادق ، أولهم أى امتياز آخر مما تتضمنه القوانين الجامعية فى أوربا ، ويهدف إلى تشجيع الدراسة فى المؤسسات التربوية التى تقيمها الدولة ، مدنية أو ذات طابع دينى ، وإنما كان طالب الدراسات العليا شأنه شأن غيره ، كأى مواطن عادى ، دون أى تفضيل ، أو قانون خاص يميزه عن غيره .

ولكن العون الشخصى كان يلعب دورًا كبيرًا فى تشجيع الطلاب ومساعدتهم فى غالب الأحوال ، فثمة أتقياء كثيرون تعودوا أن يدفعوا نفقات الدراسة للمحتاجين من الطلاب المجتهدين ، [ويروى الضبى مثلا ، فى بغية الملتمس ، أن على بن محمد بن على بن هذيل فقيه فاضل ، زاهد مقرىء ، متقلل من الدنيا ، معظم عند أهلها ... وكان ورعا يخدم بيده ، ويعين الطالب المحتاج ، ولم يزل يقرئ كتاب الله وحديث رسوله إلى أن توفى فى سنة ٥٦٣هـ] [2] .

وكثيرون من الطلاب كانوا يمارسون مهنا أخرى يتعيشون منها ، فهم يعملون فى نسخ الكتب ، أو كتابة الرسائل والوثائق ، أو تعليم الصبيان القراءة والكتابة ، أو الخدمة فى المساجد ، وغيرها ، فإذا وقف بهم الربح عندما هو ضرورى فحسب ، فمرد ذلك سوء الحظ وحده ، لأن أبا حيان النحوى الإسبانى يقول : « يكفى الفقير فى مصر أربعة أفلس : يشترى له بائتة بفلسين ، وبفلس زبيبا ، وبفلس كوز ماء ، ويشترى ثانى يوم ليمونا بفلس يأكل به الخبز »[3] . هذا إذا لم يجد أستاذا كابن كوثر الطليطلى الذى أشرنا إليه من قبل ، يعلم طلابه ويقوم بالإنفاق عليهم .

ولم تكن هناك مجموعة معينة من المواد ، ولا وقتا محددا لبدء العام الدراسى أو انتهائه ، فهو يبدأ حين يفتتح الأستاذ درسه ، ويأخذ فى تعليم طلابه ، ويستمر حتى يستوعب

---

(١) الصلة لابن بشكوال ، الترجمة ١١٢٣ ، والتكملة لابن الأبار ، الترجمة ١٨٦٣ ، طبعة مدريد .

(٢) الضبى ، بغية الملتمس ، الترجمة رقم ١٢٠٠ .

(٣) نفح الطيب ، جـ ٢ ص ٥٤٣ طبعة إحسان عباس .

هؤلاء مادته ، الصيف والشتاء فى ذلك سيان ، كل ساعات النهار صالحة للبدء والاستمرار ، ويحدد الأستاذ وطلابه وقته فى حرية كاملة .

أما الإجازة السنوية على النحو الذى نعرفه الآن فكانت مجهولة تماما ، ومن المؤكد أن أيا منهم لم يكن بوسعه أن يتخيل أن يوما سوف يجىء وتوقف فيه الدراسة قرابة مائتى يوم فى العام .

وكان من المعتاد والشائع أن يقوم بتدريس المادة الواحدة نفسها أكثر من أستاذ ، وهى طريقة أثنى عليها ابن خلدون ، لأنها تعود الطلاب أن يميزوا بين ما هو جوهرى وما هو عارض فى العلوم[1] .

وعدد السنوات التى تحتاجها الشهادة ، متروك لاختيار الطالب والوسائل المتاحة له ، وقدراته الذهنية ، وإقباله على الدرس . ويمكن أن نستنتج من جملة لابن خلدون أن الحد الأدنى لها فى إسبانيا ، والمقاطعات التى تحذو حذوها ، كان يتراوح بين خمس سنوات كحد أدنى ، وخمسة عشر عاما كحد أقصى فى المغرب حيث التقاليد ومناهج التعليم سيئة . ومع ذلك كان هناك أفراد أمضوا حياتهم كلها بين قاعات الدرس ، طلبا لثواب الله ومرضاته .

وبعد أن يكمل الطلاب دراستهم فى شبه الجزيرة يذهب الكثيرون منهم إلى المشرق ، ويظلون هناك عامين أو ثلاثة ، أو حتى عشرة أو أكثر لكى يتعمقوا فى دراساتهم ، ويصححوا معارفهم .

وقد أدى طابع المدارس ، وهى خاصة ، والتنافس بينها ، وهو قائم وقوى ، إلى فقدان الشعور بروح الجماعة ، أو إشاعة روح الزمالة بين جمهرة الدارسين ، والذى يأخذ أحيانًا شكل مظاهر صاخبة فى الجامعات الأوربية . ومن المؤكد إنه تكن هناك اضطرابات مدرسية ، لأن الطلاب لم تكن تحكمهم لائحة خاصة ، ولأن جلهم ممن يدرسون الفقه وعلم الكلام ، وهم أناس طبائعهم هادئة ومعتدلة ، وأخيرا فلأنهم يحرصون جميعا على ألا يشعر الشعب بأن المساجد قد تحولت إلى ميدان فسيح لشيطنة الطلاب ، وكل ما نعرف فى هذا المجال أن مشاجرة واحدة وقعت بين عدد منهم فى جامع قرطبة ، وهم

(١) ابن خلدوم ، المقدمة ، الترجمة الفرنسية ، جـ ١ ص ٤٤٣ .

يسمعون درس وهب بن مسرة ، أورد لنا خبرها ابن بشكوال ، ولم تدم أكثر من الوقت الذى سمح بوصول حرس المسجد ، ولوح بالدرة بين من كانوا السبب ، وليس لها من الأهمية إلا أنها ألهمت ابن هذيل الشاعر ، وشهد الواقعة ، أبياتا من الشعر ثالها على البديهة :

إن وَهْبَ بن مَســرّة　　بين أهــل العلم دُرّه

كان فى مجلسه اليـو　　مَ على العَلـــم مَعرّه

إذ عـــلا القيّمُ رأ　　سَ البثرلى بــدرّه[1]

وعندما ينهى الطلاب الدراسة ، ويعودون إلى الأرض التى شهدت مجيئهم إلى الحياة ، ينوءون بالشهادات والكتب والمذكرات ، حيث ينتظرهم مواطنوهم فرحين بهم ، وبخاصة فى القرى الصغيرة ، ويخرجون لاستقبالهم وتهنئتهم[2] . ولكن الحظ لا يحالف الجميع دائمًا ، فهناك على الرغم مما قلنا من لا يستقبلهم أحد على الإطلاق ، فيدفع بهم الإهمال الذى تعرضوا له إلى مقت العالم وكراهيته ، وكان الأمل فى أمجاده وراء جدهم ، وحرصهم على الدرس والتحصيل ، ومع الإحساس المرير بخيبة الأمل ينسحبون من الحياة تدريجا ، ويقفون أنفسهم على خدمة الله وحده ، وهو يقدر كل فضيلة قدرها .

[يروى الضبى فى كتابه بغية الملتمس ، أن أحمد بن عبد الملك بن عميرة ، ابن عم أبيه ، من أهل لورقة ، كان عالما عاملا زاهدًا فاضلا ، متقللا من الدنيا ، درس فى مرسية ، ورحل إلى قرطبة ، وفيها قرأ على ابن رشد وغيره وانصرف إلى مالقة وسمع علماءها ، وعندما عزم العودة إلى مسقط رأسه كتب إلى من فيها كى يلقـوه ، يقول : « فلما وصلت لم يلقنى أحد ، ولا رأيت من الناس ما عهدت ، فكان لى فى ذلك موعظة ، ورجعت إلى نفسى فقلت : يا أحمد ، فكأنك إنمـا رحلت فى طلب العلم ، وسهرت الليل ليعظمك الناس ، لقد خبت وضل سعيك ، فعكفت على ما ينفعنى ، ولزمت بيتى ، ولم أتعرض لغرض دنياوى ، وسلكت سـبل القوم لعل الله أن يجعلنى

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ٢٦ طبعة مصر .

● البثرلى أحد الطلبة الذين اشتركوا فى المشاجرة .　　« المترجم » .

(٢) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ٨٧ ، طبعة مدريد .

منهم ، ويكتبهم انتفعت » . وكان رحمه الله إماما فى طريقة التصوف ، وكنت لا تراه من الليل إلا قائما ، وكان أكثر دهره صائمًا ، توفى وقد أناف على التسعين] [1] .

(١) اكتفى المؤلف بإحالتنا على المصدر ، وجئت بالنص فى شىء من التصرف ، لأهميته فى تصوير إحساس الطالب بخيبة الأمل ، حين لايجد ممن حوله تقديرًا . الضبى ، البغية الترجمة ٤٤١ . طبعة مدريد . « المترجم » .

المحاضرات والدروس

● فى المساجد :

إذا عرفنا أن التعليم كان خاصا كله خلال كل الحكم العربى باستثناء فترة من الزمن هناك فى أواخر أيام مملكة غرناطة ، وحتى خلال هذه كان التعليم الخاص يواكب التعليم الرسمى ، أصبح من السهل علينا أن نتصور التنوع الذى كانت عليه الأمكنة المخصصة لإلقاء الدروس ، وبخاصة عندما يكون التعليم مجانا ، وعلى الأساتذة أن يحترفوا إلى جانبه مهنة أخرى يتعيشون منها ، فهم فى هذه الحالة يلقون دروسهم حيثما اتفق ، فى حجرة من البيت ، أو فى ركن من المصنع ، أو فى جانب من الحانوت ، أو إلى جوار شجرة فى البستان ، وغيرها من الأمكنة . أما التعليم الدينى فبطبيعته ، وللشخصيات التى تقوم على تدريسه ، كان المسجد الموضع المشترك لدروسه ، وفيه يلتقى الأساتذة بالطلاب ، ويرى ابن خلدون أن الأساتذة يجب أن يعطوا دروسهم فى المسجد ، فإذا كان يتبع السلطان مباشرة فلابد من استئذانه ، أما المساجد العادية فلا تحتاج إلى استئذان[1] .

لم تكن رسالة المسجد فى يوم من الأيام مقصورة على الصلاة فحسب ، ففيه يجتمع المسلمون للتشاور فى الأمور السياسية ، والقضايا ذات الأهمية المحلية ، وفيه تعلن أوامر عاهل الدولة ، وهو – أخيرا – مكان مفتوح للخدمات العامة . وفضلا عن ذلك يقدم للطلاب مكانا متسعا ومهيأ عندما يزيد عددهم ، ويمكن القول أن الدروس يمكن أن تعطى فى أى مكان ، ولكن المساجد كانت مكانها المعتاد ، سواء لتحفيظ الأطفال القرآن الكريم ، أو للدراسات العليا فى المواد العربية ، على حين ظلت البيوت بعامة مكانا لعلوم الأوائل ، أعنى الفلسفة والرياضيات وما يتصل بهما ، ولدروس الأساتذة الذين لا يودون أن يخرجوا على النظام الذى يفرضه تردد الناس على المساجد ، ويسهر على تنفيذه القائمون على شئونها .

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، جـ١ ص ٤٤٨ ، الترجمة الفرنسية .

وتأخذ الدروس فى البيوت ألوانا مختلفة ، تتوقف إلى حد كبير على قدرة الأستاذ وذوقه ، ابتداء من فراغ متواضع تعلو الحصيرة أرضه ، ويكفى بالكاد لجلوس الأستاذ وطلابه ، وانتهاء بالقاعات الفخيمة فرشت بالسجاد والبسط ، وتمتد حول جدرانها الأرائك المريحة ، وتقوم المدفئة فى جانب منها خلال أشهر الشتاء القارسة ، كما فى دار ابن كوثر الطليطلى .

ويختلف المسجد عن بقية الأمكنة فى شىء بسيط ، وهو أن كل إنسان يمكن أن يتخذ المكان الذى يستريح إليه ، مع مراعاة ألا يزعج الجالسين فى درس آخر عندما يبدأ درس درس جديد ، إذا توافقا فى الساعة والمكان .

● **نظام الدراسة :**

ومظاهر الدرس ليست فخيمة ولا كثيرة الأبهة ، فليس هناك كرسى ضخم يجلس عليه الأستاذ ، ويحيط به حاجز يفصله عن بقية الطلاب[1] ، وإنما يجلس الأستاذ على الأرض كالآخرين ، ومن الصعب تمييزه إذا لم يكن يحتل وسط الحلقة أو ما يقرب منها ، وحوله يلتف الطلاب ، وقد يفضل أن يواجه الطلاب ، وأن يسند ظهره إلى جدار أو عمود[2] ، والتلاميذ فى أكمل استعداد ، محابرهم أمامهم ، فيها القلم والدواة ، يكتبون ما يملى عليهم ، فى كراسات يسندونها على ركبهم ، أو يتابعون القراءة فى كتب يحملونها .

فإذا ألقيت النظر على الدرس وجدت فتيانا فى الخامسة عشرة من عمرهم ، وإلى جانبهم رجال متفاوتون فى أعمارهم ، ولكنهم فى زهوة نضجهم ، وبينهم من بلغ الخمسين أو تجاوزها ، عندما تكون مادة الدرس أو شهرة الأستاذ القائم على تدريسها اشتهرا على نحو لا يستطيع معه الفقهاء ولا علية القوم التخلف عن حضورها .

وكانت أعداد التلاميذ متفاوتة . تبدأ من التلميذ الفرد ، فأيوب بن إليان لم يكن يقبل على درسه أحد غير ابنه لأسباب ذكرناها من قبل[3] ، ثم تمضى صعدا حتى تبلغ ألف طالب ، على نحو ما كان فى **حلقة ابن عائذ** ، وكان هناك آخرون أيضا تضم دروسهم

---

(١) كان أحد الأساتذة فى مدينة فاس ، فى القرن الثامن الهجرى ، يستخدم هذا المقعد .

(٢) الإحاطة ، جـ ٣ ، الورقة ٥ .

(٣) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، الترجمة رقم ٢٦٨ .

أعدادا غفيرة من الطلاب ، مثل درس ابن أسد التميمى ، عبد الملك بن زيادة الله ، [وكان « من أهل بيت جلالة من أهل الحديث والأدب ، إمام فى اللغة ، شاعر ، وله سماع بالأندلس » ، وكانت له رحلتان إلى المشرق ، و« لما رجع إلى قرطبة أملى ، فاجتمع إليه فى مجلس الإملاء خلق كثير ، فلما رأى كثرتهم أنشد :

إنى إذا احتوشتنى ألفُ محبرةٍ يكتبن حدّثنى طورا وأخبرنى

نادت بعقوتىَ الإقلامُ معلنةً هذى المفاخر لاقعبان من لبن][1]

وكذلك الحال فى درس يحيى بن عبد الله بن يحيى ... الليثى ، [« ورحل إليه الناس من جميع كور الأندلس » ، وسمع منه « جماعة من الشيوخ والكهول وطبقات من الناس » ، وأمير المؤمنين المؤيد بالله][2] . ولا تظن أن هؤلاء المستمعين يجذبهم إلى الدرس مجرد المتعة بسماع خطيب مفوه ، بليغ العبارة ، مجنح الخيال ، يعرض لقضايا مثيرة ، ذات طابع سياسى أو اجتماعى أو دينى ، وإنما الحرص على دراسة كتاب معين ، ربما كان أكثر الكتب شيوعا فى المدارس ، مثل كتاب « الموطأ » للإمام مالك .

وكان جلوس الطلاب وانتظامهم فى الدرس متروكا لسلوكهم الشخصى ، وأدبهم الذاتى ، وحسن تقديرهم ، وما يحبون أن يكونوا عليه فيما بينهم ، وفى كل الحالات يستطيع أول من يصل أن يختار المكان الأقرب إلى الأستاذ ، وهو المكان المفضل دائما ، لا لكى يثبت حضوره ، وإنما حتى لا تفلت منه شاردة ولا واردة ، وحتى يستطيع أن يتوجه بالسؤال فى سهولة إذا ما شك فى شىء ما .

ويسبق الدرس عادة ، كما هو الحال فى أمر هام ، التوجه بالدعاء قليلا إلى الله ، وتلاوة بعض الآيات القرآنية المناسبة ، فإذا انتهوا منها بدأ صوت الأستاذ يرن فى أبهاء المسجد وبين الطلاب . وفى كثير من الدروس كان هناك قارئ من الطلاب[3] .

● **لغة التدريس :**

ومن الأهمية بمكان أن نحدد اللغة التى كانت تستخدم فى الشرح خلال الدرس ، ذلك أن إسبانيا الإسلامية كانت فى وضع يشبه إلى حد ما ما كانت عليه الحال فى أوربا

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ٤٧٤ ، طبعة الدار المصرية .

(٢) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، الترجمة ١٥٩٧ ، طبعة الدار المصرية .

(٣) التكملة لابن الأبار ، الترجمة ١٤٦٣ ، ١٥٠١ ، والمعجم له أيضا ، التراجم ١٧ و١٠٨ ، ١٧٤ ، طبعة مدريد .

اللاتينية ، فالعلماء والأدباء يحررون كتبهم فى لغة فصيحة ودقيقة ، على حين يستخدم الناس فى الحديث العادى لهجة عامية ، تختلط فيها كل اللهجات اللاتينية المتحدثة فى شبه الجزيرة مع اللهجات العربية التى جاء بها جمهرة الفاتحين والوافدين ، وهم يختلفون قبائل وأنسابا وألوانا ، بين بربر ومصريين وسوريين ويمنيين ، وآخرين . وفى هذه اللهجة فإن الجملة العربية بالكاد حافظت على بنائها ، بينما شغلت الألفاظ اللاتينية النصف من معجمها تقريبا ، وأخذ جرسها ، ونطق الحروف ، وإيقاع الجملة وضعا وحيدا فى بابه ، حتى أن المشرقى يجد عسرا فى فهمها ، [ويذكر المقدسى ، وهو جغرافى غير أندلسى من القرن العاشر الميلادى ، أنه التقى فى مكة بحجاج أندلسيين ، « لغتهم عربية ، غير أنها منغلقة ، مخالفة لما ذكرنا فى الأقاليم ، ولهم لسان آخر يقارب الرومى »] (١) .

لقد اختاروا فى أوربا اللاتينية الكلاسية ، وعرضوها لأن تصبح نسيجا خشنا تعسا ، ولكن الإسبان كانوا أكثر فطنة منهم ، آثروا أن يستخدموا اللغة العربية ، وأن يلتزموا بكل قواعد النحو والصرف ، حين يرتلون القرآن الكريم ، أو يخطبون فى المجامع أو ينشدون الشعر ، أو يقرأون الرسائل الأدبية ، وغير ذلك . أما فى الحديث العادى ، حتى بين الطبقات العالية والمثقفين ، وفى شرح النصوص التى تقرأ فى الدرس ، فاستخدموا اللهجة الأندلسية ، لأنها بالنسبة لهم أسهل استخداما ، وأوضح بيانا .

وحتى النحويون أنفسهم ، وهم أحرص من غيرهم بحكم ثقافتهم على اللغة التى يعلمونها ، كان عليهم أن يوائموا بين رغبتهم وبين عادة الناس وذوق العصر ، ونحن نعرف أن الشلوبينى العالم النحوى الشهير ، ألف عديدا من كتب النحو التى نالت شهرة واسعة ، وحملت اسمه إلى كل أطراف العالم الإسلامى ، كان يتحدث بهذه اللهجة الأندلسية فى دروسه ، ولو أن واحدا من العرب سمع كلامه وهو يقرىء درسه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذى فى لسانه ، لأنه كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب ، وأخذ يجرى على قوانين النحو ، استثقلوه واستبردوه ، ولكن ذلك مراعى عندهم فى القراءات والمخاطبات بالرسائل .

ومع ذلك ، لست أرى الأمر مضحكا ، ولا مزريا ، ولا مدعاة إلى السخرية ، ومهما كان وقعه على نفس البدوى ، لأن الشلوبينى كان يعرف أن اللهجة الإسبانية وسيلة

---

(١) مكتبة الجغرافيين العرب ، نشر دى خويه ، المقدسى ، ص٢٤٣ .

● وانظر كتابنا : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، ص٢٤ وما بعدها ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٣ .
« المترجم » .

معينة ، إذا نظرنا إليها من جانب النحو ، ولكنه يتكلم بها كي يفهم تلاميذه . أما المضحك حقا فهو أن يبذل الأستاذ جهده في أن يتحدث اللغة الفصحى ، ليتجنب سخرية « العربى » ، السعيد بأنه يملك وحده أسرارها ، دون أن يكون فى ذرعه تفادى موجة من الضحك تنفجر بين تلاميذه ، لأنه لا يستطيع أن ينجو من الخطأ ، إلا بمعجزة ، وسوف يدرك هذا أشد الطلاب سذاجة .

لقد كان واجب الأستاذ أن يعمل على إنقاذ التعليم من العقبات التى تعترض طريقه ، وتحول دون نشره ، وتقف دون أن يصبح شعبيا ، من غير أن يرتفع بالعامية إلى مستوى الأعمال الأدبية ، أو أن يهبط بهذه فلا تصبح أهلا لأن تقف إلى جانب مثيلاتها فى المشرق ، دقة لغة وصفاء أسلوب ، لأن البساطة فى الشرح ، والتسامح فى الحوار ، لا يتناقض مع الحرص على قواعد اللغة ، والحفاظ على الأسلوب ، وانتقاء الألفاظ ، والاعتناء بكل ما هو مكتوب .

ويعنى ذلك أيضا أن الأستاذ يستجيب لرغائب الطالب ، وتنحصر فى فهم الشرح ليستفيد من الدرس ، فإذا فجأه متحذلق بخطبة فخيمة الألفاظ ، طنانة التعبير ، هدفها الوحيد أن يلمع معها وليس أن يعلم بها ، فسوف يقع ذلك فى ذهن الطالب فورا ، وإذا وعى أنه لن يخرج بأية فائدة من هذا الكلام الطويل ، وهو لا يذهب إلى الدرس طبقا للائحة ملزمة ، فلن يضيع وقته آسفا ، وسوف يمضى إلى أستاذ غيره ، فى مكان آخر . وإذا استمر الأستاذ فى تقعره فسيكون عليه بعد أيام قليلة أن يستمتع مبتهجا ، ووحيدا بأن يشرح درسه للأعمدة والجدران ، وسوف تردد وراءه صدى كلماته .

● الأسئلة والأجوبة :

ليس من الضرورى أن تحكم الدرس صرامة مصطنعة ، فيكون الجسم متوترا ، واللسان خافتا ، وإنما المهم إقبال الجميع عليه ، وهم يهتمون لصالحهم بالمحافظة على النظام في شتى مظاهره . فإذا أملى الأستاذ ولم يسمع الطالب الكلمة بوضوح طلب من الأستاذ أن يعيدها ، فإذا شك فى إملائها ، أو كانت اسم علم غريبا أو نادرا استشاره ، وإذا لم يفهم جملة رجاه أن يعيدها أو يوضح معناها ، وكل هذا دون أن يختل النظام ، ولأن شرح الأستاذ ليس وعظا خلقيا ، ولا خطبة مثيرة ، سياسية أو دينية أو فلسفية ، يمكن أن تفقد عذوبتها إذا توقف المتكلم أثناءها فجأة ، فإنه يتسع للمقاطعة دون أدنى حرج ، ويستطيع الأستاذ بعدها أن يواصل الدرس بلا توقف ، فى هدوء جامعى صادق ،

من أستاذ يقول أشياء كى يتعلمها الآخرون . وقد سأل طالب **أستاذه ابن سكرة** السرقسطى ، عن كلمة التبست عليه فى كتاب كانوا يقرأون فيه ، فأجابه الأستاذ بكل تواضع : أنه لا يملك جوابا حاضرا لسؤاله ، ووعده بأن يدرس الأمر على مهل ، ليرضى رغبته على نحو أفضل ، رغم أنه كان واحدا من أشهر علماء عصره(١) .

ولكن هذا لا يعنى أن الأستاذ كان خاضعا لأهواء الطلاب ، وبخاصة إذا كان إنسانا مستقلا ، وذا شخصية علمية مرموقة ، ولديهم الأمثلة على دروس لا يسمع بها أحد ، كما هو الحال فى أيامنا هذه . وثمة أساتذة آخرون يضيقون بالأسئلة والأجوبة ، ولكن المعاصرين أنفسهم يعتبرونه شيئا غير عادى ، لأن الأساتذة الإسبان المسلمين لم يتعودوا أن يفعلوه(٢) .

وكان احترام الطلاب لاستاذهم وتقديرهم له صادقا وعفويا ، لحرية الاختيار التى يتمتعون بها ، وفضلا عن ذلك لم يكن يخالطهم شىء من الخوف الذى يجتاح الطلاب حين يقفون أمام الأساتذة ليؤدوا الامتحان ، فلم تكن ثمة امتحانات ولا درجات ، وبالتالى لا يعانون من الدوافع التى تجعل من أدبهم واحترامهم شيئا نفعيا وموقوتا .

● **وقت الدرس :**

ويمتد الدرس الوقت الذى يراه الأستاذ وطلابه مناسبا ويتنوع على نحو شديد ، يبدأ من الاستشارة التى تعودها البعض ، وقد لا تستغرق لحظة ، ويمكن أن يمتد ساعات طوالا ، وإذا وعينا نصيحة **ابن خلدون** ، وهو رجل كون أفكاره فى هذا الجانب من خلال دراسته لواقع النظم التعليمية الإسبانية ، أدركنا أن زمن الدرس كان قصيرا عادة ، يتراوح بين ساعة وساعتين حتى لا يمل الطالب أو يشعر بارهاق . والدروس يومية ومتوالية ، لا يفصل بينها أى فاصل ، ما عدا أيام الجمع والأعياد ، وحين يهطل المطر غزيرا ، وبعض الإجازات الأخرى المتفرقة ، مثل يوم سان خوان (القديس يوحنا) ، وكان الإسبان يحتفلون به جميعا ، مسلمين ومسيحيين .

ولم تكن القرى فى حاجة لأن تتنافس فيما بينها للحصول على مرسوم من الملك ، أو قرار من البابا ، يمنحها ميزة إنشاء مؤسسة تعليمية ، لأن الأستاذ والطلاب أحرار فى

---

(١) المعجم لابن الأبار ، ص ١١٩ طبعة مدريد .

(٢) التكملة لابن الأبار ، الترجمة ١٠٩٨ طبعة مدريد .

اختيار المكان الذى يتخذونه للدرس ، أيان شاءوا ، فهم يختارون المدينة التى تقدم ظروفا أفضل للدراسة ، من حيث الإقامة والمعيشة ، وفيها يقيمون مؤسسة للتعليم .

● صورة درس فى مسجد قرطبة :

وفى بداية دولة الإسلام الإسبانى كانت قرطبة عاصمة الدولة ، وإليها يذهب الناس للدراسة ، أو بحثا عن مستقبل أفضل ، وفيها يحاول العائدون من رحلتهم إلى المشرق أن يعرضوا على مواطنيهم ما حملوه ، وأن يردوا إليهم بعض ما حصلوه ، ويقصدها كبار الأساتذة من المشارقة الذين يفدون إلى إسبانيا ، وقد بسط السلام والازدهار جناحيه على كل المقاطعات ، وعرفت الشوارع والطرق الأمن الكامل ، وبلغت الإدارة قدرا عاليا من الدقة ، وحققت الشرطة كفاءة ممتازة ، وتدفقت عليها أعداد هائلة من الذين خارجها ، وأصبحت العاصمة الأدبية أيضا إلى جانب أنها العاصمة السياسية ، وفيما بعد عندما سقطت عاصمة الخلافة ، وتناثرت الدولة ، برزت مدن أخرى تزاحمها هذه الأسبقية ، مثل : إشبيلية وغرناطة وبلنسية وسرقسطة وغيرها ، وقامت فى كل هذه المدن مراكز للتعليم ، ولكن أيا منها لم تستطع أبدا أن تنتزع من قرطبة الرئاسة التى انتهت إليها ، وواصل مسجد قرطبة الجامع رسالته كمركز مرموق للدراسات التقليدية العالمية فى إسبانيا . وكان هذا الجانب من رسالته فى أوج عظمته ، وقمة مجده ، شيئا رائعا يستحق التأمل والمشاهدة ، مشهد الطلاب يتدفقون إلى دروسهم ، عبر أبوابه التى تبلغ واحدا وعشرين ، بعد انتهاء صلاة الفجر ، وقد قدموا من مدن متنوعة ، وفى ملابس أشد تنوعا ، يجتازون تلك الغابة من الأعمدة ، ويكونون حلقا حول الأساتذة .

هنا فى هذا المسجد احتل **ابن عائذ** الطرطوشى عدة بلاطات ، وصوته لا يبلغ أسماع الألف شخص الذين تحلقوا حوله يودون سماع درسه ، ومن ثم اتخذ بعضهم مكانا مناسبا ، ومهمته أن يردد الكلمات التى يمليها الأستاذ ، حتى تبلغ نهاية الصفوف . فإذا توقف صدى هذه الأصوات تحدث لحظة لا تسمع فيها غير صرير الأقلام فوق الأوراق ، ويملى جملة أخرى ، ويردد المساعدون الجملة ، ويكتب الطلاب ، ويستمر الأمر على هذا النحو .

[وكان ابن عائذ قد درس فى مسقط رأسه طرطوشة ، وفى مدينة وشقة ، وقدم قرطبة فدرس على علمائها ، ورحل إلى المشرق فحج ، وسمع بمصر وبغداد والبصرة والأهواز وغيرها . « وجمع علما عظيما لم يجمعه أحد قبلة من أصحاب الرحل إلى

المشرق ، وتردد بالمشرق نحوا من اثنتين وعشرين سنة . وكتب عن طبقات المحدثين ، وكتب الناس عنه كثيرا بالمشرق . وقدم الأندلس فى رجب سنة تسع وستين وثلاثمائة ، فسمع منه ضروب من الناس ، وطبقات طلاب العلم ، وأبناء الملوك ، وجماعة من الشيوخ والكهول . وكان يملى فى المسجد الجامع كل يوم جمعة ، ولولا أن كتبه تليت عليه ، ولم تجتمع له ، لأتى من العلم والرواية بأمر معجز ، وسمعته يقول : لو عدت أيام مشيى فى المشرق ، وعدته كتبى التى كتبت هناك بخطى ، لكانت كتبى أكثر من أيامى بها . وكان حسن الكتاب ، صحيح القلم ، روى لنا من الأخبار والحكايات ما لم يكن عند غيره ، ولا أدخله أحد الأندلس قبله ، وكان حليما كريما جوابا ، شريف النفس ، مع سلامة دينه ، وحسن يقينه »] [١] .

وهناك أستاذ النحو يشرح فى لهجة عربية إسبانية قواعده وقضاياه ، وأستاذ ثالث يدرس الأدب ، يأخذ البيت من الشعر فيشرحه ، ثم يزنه عروضيا ، ويختار من بينها ما جاء فى أصعب البحور وفى مكان آخر نسمع صوتا شجيا ، من طالب يقرأ آى الذكر الحكيم مرتلا ومجودا ، ويتبعه رفاقه فيقرأون بعده فى ألواح من الخشب المصقول ، وبين قاعات المسجد العريضة ، وفى ركن منزو منها نرى ثلاث حلقات من الأطفال ، يرددون للمرة المئة سورة « الفاتحة » ، أول سورة من القرآن الكريم ، أمام معلمهم ، وهو يلوح لهم بالزخمة نافذ الصبر ، يحذرهم أن يعاودوا الخطأ فى نطق الكلمات التى سبق أن صححها لهم[٢] .

وخلال ذلك كله تنفض حلق ، وتتكون أخرى حول أستاذ جديد ، وبين الزحام والضجيج ، وطوائف الذاهبين وقد أنهوا دروسهم ، والقادمين ليبدأوها ، لا ترى أى فرد من رجال الشرطة ، وإنما حراس المسجد فحسب ، يتجولون صامتين بين جمهرة الدارسين ، وليسوا فى حاجة لأن يتدخلوا فى شىء ، لأن رواد المسجد طلابا أو غيرهم يدركون ، وتعودوا ، أن الحفاظ على النظام شرط جوهرى للتمتع بالحرية ، ومن هنا كان حرص الجميع عليه .

---

(١) التكملة ، الترجمة ١٥٣٦ ، وابن الفرضى ، الترجمة ١٥٩٩ .

● والزيادة مأخوذة من ابن الفرضى . « المترجم » .

(٢) من بين السبع والعشرين مدرسة التى أنشأها الحكم الثانى ثلاث منها كانت حول المسجد الجامع ، والبقية فى ضواح مختلفة من المدينة انظر : ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ص ٢٥٦ .

وعندما ينادى المؤذن للصلاة يتوقف كل شيء ، ويتحول الناس إلى صفوف ، وبعد العصر تبدأ الدراسة من جديد ، وتستمر حتى صلاة المغرب ، ومعها ينتهى اليوم الدراسى . وفى هذه اللحظة تضاء مصابيح المقصورة ، وتسطع مئات القناديل متوهجة ، تضىء المسجد الجامع أثناء الليل ، حتى ولو لم تكن هذه ليلة القدر .

وعندما هبط **ابن الفاسى** ، إبراهيم بن جعفر أبو إسحاق ، مدينة قرطبة ، ولم يستطع أن يتوقف طويلا بها ، فتح فصلا دائما بالمسجد الجامع ، ولازم الناس سماعه ليلا نهارا وكانوا يبيتون بالمقصورة ، لكي ينتهى من تدريس كتابه « جامع الترمذى » فى الحديث ، والأستاذ وطلابه يقرأون ويقرأون ، دون أن يستريحوا ، ولا يتوقفون غير لحظات قصار حين يدخل المؤمنون الجامع ليؤدوا الصلاة[1] .

● **أمكنة أخرى :**

لكن النشاط التعليمى لم يكن مقصورا على المسجد الجامع فحسب ، وإنما كان الشيء نفسه يحدث فى كثير من المساجد الأخرى ، وفى خارجها وعرفت البيوت كثيرا من المدارس يجرى التعليم فيها على نحو ما يجرى فى المساجد ، وفى عيادات الأطباء حيث يلقى هؤلاء طلابهم يدرسون لهم الطب وما يتصل به ، ولن نقول شيئا عن المكتبات المنزوية فى بيوت الخاصة حيث يتدارسون الفلسفة ، ولن ندخل الكنائس المسيحية حيث يقرأون أدب « فيرجيل Virgile » فى اللغة اللاتينية ، ومؤلفين آخرين يعودون إلى عصور ما قبل المسيحية ، ولا فى بيع اليهود حيث يدرسون العهد القديم باللغة العبرية .

ومن الحق أن نقرر أن الرغبة القوية فى تعليم الأدب وإجادته أفسحت الطريق واسعا وعريضا أمام المراكز التربوية لتبلغ قمة العظمة ، وأوج الازدهار .

---

(١) المعجم لابن الأبار ، ص ٥٣ ، طبعة الدار المصرية .

الاجازات العلمية

• ظهور الإجازات فى إسبانيا :

لا يمكن أن نكتب تاريخ الإجازات العلمية عند العرب دون أن نعير اهتمامنا إلى الوسائل التى تستخدم فى رواية الحديث ، وتحدثنا عنها فى مكان آخر ، لأنها تفسر لنا الطريقة التى تولدت عنها عفويا .

كان الحديث فى البدء يروى شفاها من فم لأذن ، دون أن يأخذ الأمر شكلا محددا بين الرواة ، ولكن عندما بدأ التصنيف والتدوين بعد أجيال ، ونشأت المذاهب الفقهية ، وتكونت الاتجاهات الشرعية ، لوحظ أن الحديث تضخم بطريقة بالغة ، وأن بعض الأحاديث يناقض بعضا ، وأن عددا منها يثير الشك القوى فى أنها مكذوبة ، ومن ثم أصبح واجبا النظر فى هذا الأمر ، وهكذا نشأ علم **نقد الإسناد** ، لكى توزن الأحاديث فى ضوئه فتقبل أو ترفض ، ويرى الإمام البخارى أن بين ست مئة ألف حديث رويت عن الرسول عليه الصلاة والسلام سبعة آلاف ونيف هى الصحيحة فحسب ، ولكى لا يتطرق الشك مستقبلا إلى الرواية بدأوا يحتاطون للأمر ، ومن بين وسائل الاحتياط أن يشار كتابة إلى الواقع المعتاد بأن فلانا سمعها عن أسلافه ، وعلمها آخر كى يرويها للقادمين ، مشيرا فى بساطة تامة إلى اسم الأستاذ والتلاميذ ، والوسيلة التى تلقى بها الرواية : **سماعا أو قراءة** ، وإلى المادة نفسها . وكان ذلك شهادة بما حدث فحسب ، دون أن ينظر أحد إلى أبعد من القدرة على تأكيد ما حدث ، وعند هذا الحد من الرواية تتفق كل الآراء ، ويرتضيها كل العالم الإسلامى .

ومع مضى الزمن لحظ الدارسون أن شهادة الأساتذة المشهورين تجد تقديرا طيبا ، فأخذوا يبرزون فى الوثيقة اسم الأستاذ قبل أى شىء ، وحينئذ وقع فى الخاطر الاعتقاد بأن العمل التربوى المعتاد لا ينتهى بالرواية والتعلم ، وهى عملية تقوم جوهريا على الطالب والأستاذ معا ، وإنما تتوقف كل فعاليتها على إجازة الاستاذ لها فحسب ، واعتقد الأستاذ أن له الحق ، فى ظروف خاصة ، أن يأذن لتلميذه كى يعلم مذهبه ، دون أن يتلقاه منه مباشرة ، ومع هذه الخطوة ظهر اللقب الحقيقى للشهادة : إجازة ، وهى ليست مجرد

وثيقة تنص على واقع العملية التعليمية فحسب ، وإنما وثيقة « إجازة » صادرة من الأستاذ لصالح تلميذه .

لقد ولدت « الإجازة » فى ظروف خاصة ، وسارت على خطى التقاليد الأولى فى حالات السماع أو القراءة ، واستخدموا فقط لفظ « الإجازة » عندما يريد الأستاذ أن يأذن لمن لم يسمعه ، أو لم يقرأ عليه ، وهذه هى **الإجازة الذاتية** . ولكن الطالب قد يسمع ، أو يقرأ ، جانبا من الكتاب ، ثم يتوقف عن الدرس مضطرا ، وحينئذ يشهد له الأستاذ بالجانب الذى سمعه منه ، أو قرأه عليه ، ويجيزه فى الباقى ، ويجمع فى شهادة واحدة بين وثيقتين مختلفتين فى طبيعتهما .

ولكن الأستاذ يمكن أن يغفل أو يسهو وهو يملى أو يحكى ، والطالب يمكن أن يسقط أو يصحف وهو يسمع أو يكتب ، وحينئذ نحتاج إلى المادة الخاصة بالعادة ، حيث يمكن أن نستنتج منها أن هناك ضرورة لإجازة الإسناد الذى يصوب كل شىء ، ومن جانب آخر لأن مجرد السماع وحده لا يكفى ، فنحن نسمع الخطيب يعظنا على المنبر ، ويذكرنا بقدرة الله ، ونسمع الأحاديث تجرى فى الحلق والاجتماعات ، أيا كانت ، دون أن يعتقد السامع أنه بهذا أصبح مجازا فيشير إليه ، وفضلا عن ذلك ابتدعوا أفكاراأخرى يبررون بها ، على نحو أقوى مما كان من قبل ، مسئولية الأستاذ المتزايدة ، فانتهوا إلى أن إجازة الوثيقة عمل ضرورى ، مهما كانت الوسيلة التى تمت بها الرواية .

[فالإجازة « أمر ضرورى فى الرواية ، وبها تتم وتكمل ، وإلا كانت ناقصة لا محالة » ، فلا غنى « لطالب الحديث عن الإجازة : سمع ما يحمله عن المحدث ، أو عرضه عليه ، أو سمعه بعرض غيره عليه ، لجواز الغفلة والسنة والإسقاط والتصحيف والتبديل عليهما ، أو على أحدهما ، فإن كان المحدث هو القارئ بلفظه فجائز السهو على المستمع ، وذهاب ما يقرأ عليه ، وإن كان غيره فجائز أن يسهو الذى يقرأ عليه ، فإذا أضيفت الإجازة إلى السماع أو العرض ، احتوت الإجازة على جميع ما تقع فيه غائلة من هذه الغوائل] (١) .

وهناك من يرى أن مثل هذه الأفكار خادعة ، ولم يقبل الإجازة ، ورآها ابتداعا ليس له ما يبرره فى التعليم ، [فقد كان عبد الرحمن بن عبد العزيز بن ثابت الأموى خطيب المسجد الجامع بشاطبة ، رجلا فاضلا ، زاهدا ورعا منقبضا ، شهر بالخير والصلاح ،

(١) فهرسة ابن خير ، ص ١٥ - ١٦ ، طبعة مدريد .

سمع منه جماعة رحلوا إليه ، واعتمدوا عليه ، ووصفوه بما ذكرنا من حاله ، وذكروا أنه امتنع من الإجازة لهم] [١] .

وكان قبول مثل هذا اللون من الشهادات عاما فى إسبانيا ، لأن **الإمام مالك** رضى الله ،وهو العالم الحجة بالنسبة للجانب الأكبر من أهل السنة فى إسبانيا ، سمح به ، ورآه ضروريا ، مع بعض الشروط التى سنعرض لها فيما بعد . وكان بقى بن مخلد ، وعلماء أخرون من أسرته نفسها ، يعطون الإجازة نفس الثقة التى يعطونها للسماع ، وآخرون يذهبون إلى أقصى الطرف المقابل فيؤكدون : أن السنة بدون الإجازة تبقى ناقصة وكسيحة ، وهم ينسون حين يؤكدون ذلك أن رفضهم يعنى ضمنا إنكارهم روايات العصور الأولى .

إذن أصبح منح الأستاذ الشهادة عملا قائما بذاته وشائعا أيضا ، وكان ذلك يسجل فى الكتب التى يدرسها الطالب ، وبخط الأستاذ نفسه[٢] ، أو فى مجرد ورقة منفصلة ، أو على صفحة من جلد الرق المدبوغ الجميل[٣] .

وصيغ العصور الأولى ، وكانت بسيطة ودون ادعاء ، ومناسبة تماما للتسليم الكامل بالواقع ، بدأت تتغير ، وسنجد صدى ذلك عند **أبى العباس الغمرى** ، وليد بن بكر بن مخلد ، من أهل سرقسطة ، وله رحلة إلى المشرق ، لقى فيها ألف شيخ ومحدث وفقيه ، وألف كتابا سماه **الوجازة فى صحة القول بالإجازة** وتوفى بالدينور سنة اثنين وتسعين وثلاثمائة ، وفى كتابه يحتج على مثل هذه الإجازات العلمية ، ويرى أنها غير صادقة دائما ، وأن الزيف قد شابها[٤] .

● استغلال الإجازات ورد الفعل ضدها :

ولكن الاحتجاج وحده لا يكفى فى علاج السوء ، ومع الزمن أخذت صيغ الشهادات التى تعطى تزداد زيفا ، وبعض الأساتذة أقحم عليها جملا رنانة من الثناء على تلاميذه ،

---

(١) الصلة لابن بشكوال ، الترجمة ٧٤٣ ، طبعة الدار المصرية .

(٢) المعجم لابن الأبار ، ص ١٦ ، طبعة مدريد . والصلة لابن بشكوال الترجمة ٦٤٥ ، طبعة الدار المصرية .

(٣) الضبى ، البغية ، الترجمة ١٤٣٥ ، طبعة مدريد .

(٤) الضبى ، الترجمة ١٤١٠ ، طبعة مدريد ، والمقرى ، جـ ١ ص ٧١٤ طبعة أوربا ، وجـ ٢ ص ٣٨٠ طبعة إحسان عباس ، والصلة ، الترجمة ١٤٠٩ ، الدار المصرية .

● يذكر أبو العباس نفسه أنه عمرى النسبة ، فلما دخل أفريقية أيام العبيديين وضع نقطة فوق العين ليسلم ، وكان يقول : إذا عدت إلى الأندلس جعلت النقطة ضمة ، ولكنه توفى بالمشرق بعيدا عن وطنه ، وعنه رويت الأشعار الأندلسية التى ضمنها الثعالبى يتيمة الدهر . « المترجم » .

وبعضهم تجاوز النثر العادى فسطرها سجعا ، وآخرون حرروها فى قصائد مطولة ، سلكت طريقها إلى مدونات التاريخ[1] ، لأنها من الشعر الجيد ، وجديرة بالقراءة ، لا من جانب أقارب صاحب الشهادة ومعارفة فحسب ، وإنما من جانب كل الذين يحبون الأدب الرفيع . ومهما يكن ، فإن هذه الإجازات تمثل أيضا لونا من الوثائق التاريخية عظيم الفائدة ، ويكفى لكى تقتنع بما أراه أن تقرأ كتاب الصلة لابن الأبار ، والمؤلفات الأخرى التى على منواله .

وقد أجاز الإمام مالك رضى الله عنه منح الشهادات ، ولكنه لم يبح الأمر على إطلاقه ، فيتصرف كل واحد على هواه ، وإنما لابد من توفر بعض الشروط التى تجعل لها قيمة وتضفى عليها احتراما ، وهى :

- أن يكون الفرع معارضا بالأصل حتى كأنه هو .
- وأن يكون عالما بما يخبر به ، ثقة فى دينه وروايته ، معروفا بالعلم .
- وأن يكون المستجيز من أهل العلم ، ومتسما بسمته ، حتى لا يضع العلم عند غير أهله .

وكان الإمام مالك يكره الإجازة لمن ليس من أهل العلم ، ولا ممن خدمه وقاسى صناعته ، وكان يقول إذا امتنع من إعطاء الإجازة أحدهم : يجب أن يدعى قسا ولم يخدم الكنيسة[2] .

وقد تكون هذه قواعد جيدة ، غير أن كل أستاذ كان يفسرها على طريقته ، وتبعا لشخصيته ، فيتشدد أو يتساهل ، وبينهما درجات ، وهكذا منحها بعضهم لمن حضروا درسه ، ولم يقف بها عند هذا الحد ، وإنما منحها أيضا لآخرين لمجرد أنه يعرفهم إشارة[3] ، وأصبح الصديق يمكن أن يحصل على إجازة لصديقه[4] ، والوالد لابنه[5] ، حتى لو كان هذا طفلا لما يزل يعيش على صدر والدته[6] .

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ، جـ ١ ص ٧٤٣ وما بعدها ، طبعة أوربا ، جـ ٢ ص ٤٢٤ وما بعدها ، طبعة إحسان عباس .

(٢) فهرسة ابن خير ، ص ١٥ .

(٣) الجذوة للضبى ، ص ١٧٧ ، وصفحات أخرى ، طبعة مدريد .

(٤) التكملة لابن الأبار ، ص ٣٤٠ طبعة مدريد .

(٥) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ١٢٦٦ ، طبعة مدريد .

(٦) التكملة لابن الأبار ، ص ٢٨١ طبعة مدريد .

ولم يكن هذا أسوأ ما فى الأمر ، وإنما اختلطت القضية بظروف مست الجانب الخلقى فيها ، وهو هل يمكن أن تمنح الإجازة وسيلة تشريف فحسب ، وهى مشكلة ليست هناك وسيلة لحلها إيجابيا[1] .

وتمضى الإجازات العلمية منحدرة ، من استغلال إلى استغلال ، ومن فوضى إلى فوضى ، وبدأ كثيرون يطلبونها كشىء غريب عن التعليم ، لا صلة لها به ، إرضاء لزهو صبيانى فى حمل أوراق لا قيمة لها ، مجرد شهادة من أساتذة كثيرين أجازوه ، رغم أنه لم يحضر دروسهم أبدا[2] .

وأدى انتشار السوء نفسه إلى التفكير فى الدواء ، دواء بسيط جدا على التأكيد ، ولو أنه ألقى بالتقليد القديم أرضا ، فقد اعتقدَ الأساتذة أنهم متخصصون فى كل شىء ، فبدأوا يمنحون الإجازات لا لصالح فرد ، ولا يشيرون فيها إلى شخص بعينه ، أو إلى كتب محددة ، وإنما يجيزونها لكل من يعرفون ، ولكل المسلمين فى إقليم بعينه ، أو حتى فى العالم كله . وهذه الإجازة تسمى **إجازة عامة** ومنها نوعان : واحدة عامة فى المادة ، وخاصة بالنسبة للأشخاص الذين تمنح لهم ، وبهذا المفهوم يستخدمها ابن الأبار فى كتابه **تكملة الصلة**[3] ، وأخرى عامة فى الأشخاص وفى المادة ، ولا ينطبق عليها المصطلح بدقة ، وفيها يجيز كل المسلمين من مذهب بعينه ، أو إقليم محدد ، أو كل الأقاليم وكل المذاهب ، تدريس عدد من المواد أو الكتب .

وحاولوا أن يعتمدوا فى تبرير منح الإجازة الخاصة على بعض الأحاديث التى يمكن أن تتصل بها من قريب أو بعيد ، ويمكن أن يتخذوا منها سابقة لهم[4] . ويمكن القول فيما يتصل بالإجازة العامة أنها مجرد نزوع من بعض الرواة ، حتى أن **أبا الفضل بن خيرون** ، من أساتذة **بغداد** ، أجاز عام ٤٨٦ هـ كل علمه لكل المسلمين[5] ، وآخر كان مريضا فى خطر ، ووجد نفسه على أبواب الموت عام ٤٦٨ هـ صنع الشىء نفسه ،

(١) ابن بشكوال ، المصدر السابق ، ص ٤٠٣ .

(٢) تتكرر الظاهرة نفسها فى أيامنا هذه ، وتأخذ أشكالا متعددة ، ولكنها فى النهاية تشبه تماما ما كان يحدث فى الأندلس لحظات انحداره . (المترجم)

(٣) ص ٢٨١ فى الترجمة ٤٢٤ ، طبعة مدريد .

(٤) أنظر مقدمة فهرسة ابن خير .

(٥) التكملة ، ص ٦٣٨ .

ولما استخار الفقيه القاضى أبو الوليد بن رشد الجد النهوض إلى المغرب ليلقى على بن يوسف بن تاشفين سأله أحد طلابه ، ابن الوزان ، أبو الحسن محمد بن أبى الحسين ، أن يجيزه جميع ما يحمله من الكتب المؤلفة فى ضروب العلم ، بأى وجه حمل ذلك ، من قراءة أو سماع أو مناولة أو إجازة ، وجميع ما ألفه ، أو وضعه ، أو أجاب فيه ، فى القديم والحديث ، ولجميع أصحابنا أهل المجلس وغيرهم من طلاب العلم ، ولكل من أحب الحمل عنه من المسلمين ، ممن ضمته وإياه حياة فى هذا العام ، ليحمل كل ذلك عنه ويسنده إليه ، فتبسم ابن رشد واستغرب السؤال ، ثم قال لى منشرح الصدر ، طلق الوجه ، ظاهر التبسم : نعم ، قد أجزتك ذلك كله ولجميع من سألت ، فمن أحب الحمل عنى من جميع المسلمين ، حيث كانوا ، نفعنا الله بذلك ، وجعله لوجهه ، فشكرت الله تعالى وشكرته على إجابته ، وانصرفت عنه مسرورا والحمد لله[1] .

لم يكن الأمر إذا مجرد فكاهة كما يبدو ، وفى منتصف القرن السادس الهجرى منح الإسبانى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن قزمان إجازة عامة لكل من كان موجودا قبل وفاته من طلبة العلم من أهل الأندلس[2] ، ومثله صنع السلفى والخشـوى[3] ، وابن عطـاء الله الشلبى[4] ، فقد منحوا إجازتهم لكل المسلمين . وعندما رؤى أن بعض العلماء ليس لديهم ما يحول دون استغلال هذه الشهادات لصالح دروسهم[5] لم يبق ثمة مجال يحول دون الشك فى جدية هذا الابتداع وقبوله ، وأتى على قيمة الإجازة دفعة واحدة ، ويومها أمكن القول : « لو صحت الإجازة بطلت الرحلة »[6] .

كانت الإجازة العامة موفقة فى القضاء على كل قيمة لهذه الشهادة ، وأجهزت عليها تماما ، لو لم يعد بها رد الفعل إلى المجرى القديم .

وفى ضوء ما عرضناه يمكن أن ندرك الجوانب التى يقدمها لنا تطور نظام الإجازات العلمية فى إسبانيا الإسلامية ، فهى تعود أصلا إلى التسليم بحقيقة الدراسة ، ويمنحها الأساتذة دون أن تتدخل الدولة مطلقا فى هذا ، لأننا بصدد أشخاص على الطالب أن

(١) فهرسة ابن خير ، ص ٤٥٣ .

(٢) الضبى ، البغية ، ص ٣٤٦ .

(٣) التكملة ، الترجمة ٩١٨ .

(٤) ابن الأبار ، المعجم ، الترجمة ٢٣٢ .

(٥) التكملة ، الترجمة ٩٣٩ ، ١٠١٩ .

(٦) ابن بشكوال ، الصلة ، ص ٢٠١ .

يفيد من معارفهم مباشرة ، ولم يترك هذا إلا تأثيرا غير مباشر ، ولم يصبح مثلا وظل الطلاب دائما يفضلون مدرسة ذات شهرة ، أو يحضرون أحيانا على أساتذة كانت إجازتهم تستهدف احتقار الإجازة ، وتشكك فى قيمة الإجازات التى يمنحها الأساتذة للطلاب .

« وأفاد غير واحد أن سبب رحلة الشيخ أبى حيان عن الأندلس أنه نشأ شر بينه وبين شيخه أحمد بن على بن الطباع ، فألف أبو حيان كتابا سماه « الإلماع فى فساد إجازة ابن الطباع » ، فرفع ابن الطباع أمره للأمير محمد بن نصر ، المدعو بالفقيه ، وكان أبو حيان كثير الاعتراض عليه أيام قراءته عليه ، فنشأ شر عن ذلك » ، فاختفى وفارق الأندلس[1] .

(١) المقرى ، نفح الطيب جـ ١ ص ٨٢٣ طبع أوربا ، وجـ ٢ ص ٥٨٣ طبعة إحسان عباس .

المكتبات المدرسية[1]

● شيوع الكتاب وانتشاره بين العرب :

بين الكتابات المتعددة التى استخدمتها شعوب العالم ، من الصعب أن نجد كتابة تستخدم الحروف سهلة الذيوع والانتشار كتلك التى استخدمها الشعب العربى ، لأن بساطة تكوين الحروف فى أشكال بسيطة جدا أحيانا ،دون التواءات فى رسمها ، وإهمال الشكل عادة ، وعدم وجود رسم خاص للحروف فى أوائل الجمل وفى الأعلام ، وغيرها يجعل الوقت الذى نحتاجه فى نسخ صفحة ثلث الوقت الذى تحتاجه كتابتها باللغة اللاتينية على الأقل . كما أن صناعة الورق وتوفره ، وانتشار استعماله ، ورخص ثمنه بالنسبة لورق البردى أو الرق ، جعل ثمن الكتب رخيصا ، والحصول عليها ممكنا ، حتى من أشد طبقات المجتمع فقرا ، وفى الوقت نفسه وجدت مهنة الوراقة مجالا عريضا للانتشار والازدهار .

وطريقة الحياة عند الشعوب الإسلامية ، وغيبة المؤسسات والعادات التى نجدها عند الشعوب ذات النظم المتقدمة جدا ، كالتدخل فى القضايا العامة عن طريق المجالس ، أو تحقيق العدالة عن طريق المحلفين ، وعدم وجود معارض ، أو مسارح عامة ، أو مجامع علمية منظمة ، وغيرها ، جعل من الكتاب وسيلتهم الرئيسية للتربية ، وأدت الطريقة التى يسير عليها التعليم فى المدرسة ، إملاء ونسخا ، إلى شيوع مهنة النسخ والكتابة أيضا .

مثل هذه الظروف ، فيما يبدو لى ، جعلت العرب يفوقون الجميع ، بما فيهم الإغريق والرومان ، فى الكتابة ، ويسبقونهم فى أعداد الكتب والمخطوطات ، حتى لو افترضنا أنهم كانوا مثلهم فى انتشار التعليم ، أو حتى أقل مستوى منهم . ولا أود أن أعرض لقيمة محتوى المخطوطات ، لأن أدب العرب كأدب غيرهم ، ويبلغ نفس مستواه ، ولا يقل قيمة عنه . ولكن المكتبات الإغريقية والرومانية تميزت بأنها أفضل تصنيفا ، لأن نسخ

---

(١) أبقينا هذه الفقرة فى مكانها من الدراسة رغم أن المؤلف درس هذا الموضوع بإفاضة فى مكان آخر ، ترجمناه أيضا ، ويتضمنه هذا المجلد ، لأن الدراسة هناك مستقلة ، وهنا تؤلف جانبا من نظم الدراسة ، علما بأن المؤلف نفسه جمع بينهما ، حين نشر البحثين معا فى مجلد واحد . « المترجم » .

الكتاب يكلف كثيرا ، وأعتقد أنهم كانوا يبذلون عناية كبيرة فى الاختيار ، كما أن رخص ثمن النسخ عند العرب نمى الرغبة فى الحصول على الكتب حتى لو كانت رديئة ، وتكاثر عددها بالنسبة لرخص ثمنها . ونفس السبب يمكن أن يقال الآن دون أن نخشى الخطأ ، فما ينشر من كتب رديئة فى عام واحد أكثر مما نشر على امتداد كل العصور القديمة . ولا أرى سببا يدعو للشك ، أو حتى للدهشة ، فيما أعتقد ، إذا قيل لك إنه كانت هناك مكتبات تضم أربع مائة ألف مجلد ، ولكن دون أن يأخذ ذلك شكل حقيقة تاريخية لا تقبل المناقشة ، ومثل هذه المجلدات لا يمكن أن نتحقق من قيمة فحواها ، حتى لو اتخذنا أسوأ ما أبدع الإغريق والرومان مقياسا فى مخطوطاتهم التى كان من حظها أن تنجو عبر القرون الوسيطة .

ولم تكد الحركة الثقافية تأخذ طريقها بين الإسبان المسلمين حتى أصبح الكتاب موضع التقدير والإعجاب ، ويكفى أى عائد من رحلة إلى المشرق أن يحمل معه كتابا جديدا ، حتى يصبح مناط الإعجاب والحفاوة من مواطنيه ، ومع الكتاب يأخذ اسمه طريقه إلى مدونات الأدب والتاريخ ، وأغلى الجواهر ثمنا ، وأعظمها قيمة ، كتاب نادر يستطيع التاجر الماهر أن يأتى به من المشرق إلى إسبانيا . وكان المسلمون ، من أصل إسبانى أو وافدين ، واليهود والمسيحيون ، والموالى يتنافسون فى أن تكون لهم مكتبات خاصة وغنية . ولم يبق الأمويون فى آخر الصف بالنسبة لهذه الحركة ، فأخذوه منذ البدء يجمعون من الكتب مجموعات كبيرة ، وبلغت قمتها فى حياة الحكم الثانى ، عاشق الكتب ، وأكثر أمراء بنى أمية غراما بها ، وأصبحت قرطبة مدينة الفكر ، والعقل المدبر لكل الغرب الإسلامى .

ولكن الإعجاب الحقيقى بالكتاب انحدر فيما بعد ، وأصبح مجرد عبث لا طائل تحته ، وأخذ لونا شكليا صرفا . فالخاصة ، والذين يريدون الزهو بأن لديهم مكتبة فحسب ، لم يتركوا لغيرهم فرصة الحصول عليه ، وما أكثر المرات التى تراجع فيها عشاق الكتب الحقيقيون ، ومن يعرفون كيف يقدرون محتواها ، أمام راغب فيه واسع الثراء ، خلال « المزايدات » التى كانت تشهدها قرطبة ، يدفع فى الكتاب أى ثمن ، ويبذل كل جهده للحصول عليه ، ولكنه لا يعرف عم يتحدث ، وكل ما هنالك أن تجليده فخم ، أو أن حجمه مناسب ليملأ فراغا محددا كان بالصدفة موجودا فى

أرفف مكتبته . وكان ابن فطيس يملك مكتبة عظيمة ، فى مكان فخيم ، يشرف عليها خازن ، ويعمل بها فريق من الناسخين ، ولخدمته فحسب[١] .

ومع فتنة البربر[٢] تغيرت الصورة قليلا ، ومعها عانت العاصمة النبيلة أكثر مما عانته أية مدينة أخرى ، ومس ضرها وأهوالها ، فى المقام الأول ، أشرف الأسر ، وأعظمها قدرا ، وأوسعها ثروة ، وانتهى الحال بأعظم المكتبات إلى أيدى عشاق الكتب ، وهو ما حدث لمكتبة ابن فطيس ، ومكتبة الحكم الثانى ، وبعضها كهذه الأخيرة بيع بثمن بخس دراهم معدودة ، وتوزعتها الأيدى ، وانتهى بها المطاف إلى خزائن هواة الكتب ، وبخاصة فى المقاطعات حيث بدأت الهوية تعبر عن نفسها ، مثل : إشبيلية ، والمرية ، وبطليوس ، وطليطلة ، وسرقسطة ، وبلنسية ، وغيرها . ففى كل هذه المدن كان هناك هواة كتب ، ومكتبات عديدة غنية ، وتجارة وراقة مزدهرة ورابحة ، ويكفى أن نضرب لذلك مثلا واحدا ، فقد كان فى المرية شخص واحد بلغت الكتب المجلدة فى مكتبته أربع مئة ألف مجلد ، فضلا عن الرسائل والكراسات .

ويعود هذا الثراء فى المخطوطات ، ووفرة عددها ، إلى حب الأفراد وهوايتهم فحسب ، أما الدولة نفسها فلم تعر إقامة المكتبات اهتماما ، وحتى مكتبة الحكم الثانى نفسه ، ويظن البعض أنها كانت تفتح للجمهور ، كانت خاصة به وحده ، ولاستخدامه شخصيا[٣] .

● وقف الكتب لصالح الطلاب :

ومع ذلك لم يكن ينقص الطلاب مؤسسات خاصة تمدهم بالكتب التى يحتاجون إليها فى دراساتهم ، ونلحظ فى زمن مبكر جدا من حياة الإسلام هنا ،أن ثمة أشخاصا يحبون العلم يوقفون كتبهم على استخدام الطلاب ، ويعهدون إلى صديق أو قريب لهم بأن يفتح مكتباللقراءة والنسخ والمعارضة ، يتردد عليه الطلاب ، ويستفيدون مما به ،

(١) بيعت هذه المكتبة فيما بعد بما قيمته أربعون ألف عملة ذهبية ، وهو ما يساوى الآن مليونين من الجنيهات تقريبا .

(٢) عن فتنة البربر تفصيلا انظر كتابنا : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٣ .

(٣) لن أبرهن على رأيى هنا ، ولن أكرر ما قلته فى دراسة خاصة عن الكتب والمكتبات فى إسبانيا الإسلامية ، وهى تمثل الفصل الثانى من هذا الكتاب .

ولكن مثل هذه المؤسسات لم تعط النتائج المرجوة فيما يبدو ، لأن المدارس جذبت المكتبات إليها ، وقد أقيمت هذه فى المساجد ، ومن المؤكد أنها ورثت المكتبات ، وجمعت بين المدرسة والمكتبة ، ومنذ ذلك الحين مضتا متلازمتين لا تفترقان . وهذه الطريقة جلبت الضرر معها ، لأن أى كتاب تحوم حوله الشبهات ، أو يحتوى علما غير محبب إلى الرجال الأتقياء ، لا يستطيع تقريبا أن يأخذ طريقه إلى المسجد ، وكانت مكتبات المساجد تمتلىء بالكتب الغالية ، للجهد الكبير الذى بذل فى نسخها بخط جميل ، أو لروعة تجليدها ، وبالمصاحف ، وكتب الأدعية ، والفقه ، وعلم الكلام ، وكلها تمثل المحور الرئيسى فى المكتبة ، وكانت تقل فيها كتب الشعر غير الدينى ، ولا شىء من كتب العلم القديم ، أى ما يتصل بالدراسات الإغريقية ، وكانت هذه نادرة جدا حتى فى المكتبات الخاصة .

ولم يكن عدد المكتبات التى من هذا النوع ستين فحسب ، على نحو ما أشار إليه **فون شاك**[1] ، وسار فى هذا العدد على خطى **ميخائيل غزيرى** ، مؤلف أول فهرس للمخطوطات العربية فى مكتبة الإسكوريال ، وهو رقم خاطئ ، وقد صححه المستشرق الإسبانى جيانجوس بعد ذلك بخمسين عاما ، عندما أصدر الترجمة الإنجليزية للقسم الأول من كتاب نفح الطيب[2] ، وإنما كانت أكثر من هذا ، ويمكن القول إنها تساوى عدد المساجد التى أهداها المؤمنون كتبا . وإذا كان الإسبان قد ساروا فى هذا على خطى أهل المشرق ، فيمكن الظن بأن الطلاب هنا ، لم يكونوا ينفقون فى شراء الكتب فلسا واحدا ، لأنها تكثر فى المكتبات .

---

(١) أورد فون شاك هذا الأمر فى كتابه « شعر العرب وفنهم فى إسبانيا وصقلية » وقد ترجمته إلى اللغة العربية ، وظهر القسم الخاص بالفن فعلا ، تحت عنوان الفن العربى فى إسبانيا وصقلية » ، وصدر عن دار المعارف بالقاهرة الطبعة الثانية ١٩٨٥ ، وظهر الجزء الأول من الشعر فى دار المعارف ١٩٩٠ ، وسوف يصدر الجزء الثانى قريبا .

(٢) انظر : Gayangos : History of the Mohammedan Danasties in Spain , tomo 1 , Pag . 547 .
وذلك عند دراسته كتاب ابن بن خير .

تعليم المرأة

● الإسلام وتعليم المرأة :

لم تكن للإسلام أية تحفظات فيما يتصل بتعليم المرأة ، وأشد العلماء محافظة فى المشرق لم يمتنع عن إجازة تعليم ذخائر السنة لهن ، وهو علم ذو قداسة خاصة ، ولدينا شواهد على وجود أستاذات بلغن ثلاثا وأربعين امرأة فى كتاب واحد من كتبها ، وكان يدرس فى أشهر المدارس[(١)] ، ولدينا السلفى ، أحمد بن محمد ، وهو عالم إسبانى اتخذ من مدينة الإسكندرية مقاما ، « وصارت له بها وجاهة » ، ودخل العراق والشام وبلاد الجبل وخراسان ومصر والحجاز ، وأعجب به علماء إسبانيا وطلابها أيما إعجاب ، وشيوخه كثرة يزيدون على الألف ، والنساء بينهن عدة ، وبعض أصحابه جمع أسماءهن على حروف المعجم .

وقد اشتهرت فى مكة مدرسة كريمة المروزية العظيمة ، وبرز تعليم المرأة فى هذا المركز الدينى العظيم ، ويجب أن يكون من أشد الأمكنة محافظة ، أكثر من أى مكان آخر ، واحترام المرأة يمكن أن يفسر لنا كثيرا من العادات التى تخلفت عن الحضارات القديمة ، وبدل أن يكون هذا مدعاة للخجل كانت الطالبات يذهبن إليها من أمكنة بعيدة ، ليكون لهن شرف حضور دروسها ، وبعض الشخصيات الأندلسية التى تنتسب فى أسر عريقة تتلمذت على هذه السيدة العالمة الجليلة ، وحرصوا على أن يذكروها بين أسماء أساتذتهم الأكثر شهرة وتقديرا[(٢)] .

● شيوع تعليم المرأة فى أسبانيا :

أما هنا فى إسبانيا فثمة أسباب أقل مما كانت عليه فى البلاد الأخرى يمكن أن تقف عائقا دون تقدير تعليم المرأة ، ولأن هذا كان عاديا لا نجد شواهد متميزة تلمح إلى عظمته وندرته ، وتومئ إلى الاحترام لمن تتوفر فيها هذه الصفات ، وعلى أى حال فنحن

---

(١) فهرسة ابن خير ، ص ١٤٣ .

(٢) ابن بشكوال ، التراجم ٢١٨ ، ٢٩٩ ، ٣٩٢ ، ٧٢١ ، ٨٧٦ ، ٩٤٤ ، ١١١٤ ، ١١١٥ ، ١١١٩ . والمعجم لابن الأبار ، الترجمة ١٧ ، طبعة مدريد .

نعرف أمير من الأسرة المالكة ، يدعى **دحون** ، حبيب بن الوليد ، رحل إلى المشرق ، وحج ، ولقى أهل الحديث فكتب عنهم ، وقفل بعلم كثير ، وهناك التقى بجارية سوداء ، حالكة اللون ، من رقيق المدينة ، تعرف باسم **عابدة المدينة** ، تروى عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة وغيره عشرة آلاف حديث ، فأعجب بذكائها ، وفتنته مواهبها العلمية ، ولم تمنعه رقة مولدها ، ولا اختلاف جنسها ، من اتخاذها زوجة له ، ورزق منها بابنه بشر ، ويعرف بالحبيبى ، وهو من المشهورين فى قرطبة ، وبنته عبدة مشهورة أيضا ولها رواية عنة[١] .

وكانوا يبعثون بالفتيات إلى المدارس الأولية منذ الصغر ، لكى يتعلمن نفس المواد التى تدرس للصبيان عادة[٢] ، وبعضهن فيما بعد كن يواصلن التعليم العالى ، ويحصلن على نفس الإجازات التى يحصل عليها الرجال عادة[٣] ، وبعضهن يدرسن الفقه ، والقراءات ، والسنة[٤] ، وهى دراسات كان بعضها يؤهل صاحبه لأن يحترف التعليم ، ويمارسه كمهنة نبيلة[٥] ، وأخريات يدرسن الأدب ومواد أخرى يمكن أن تنفعهن أحيانا لكى يتبوأن مناصب فى ديوان الكتابة الملكية ، إذا كانت خطوطهن جميلة ، أو يجدن التحرير فى لغة أدبية راقية[٦] ، ولم يكن عدد اللائى تميزن كشاعرات وأديبات قليلا ، وبعضهن مثل **عائشة وولادة** نافسن أشد الرجال شهرة فى عصرهن بذكائهن ، وبلاغتهن ، ومهارتهن فى الشعر وغيره[٧] .

وبلغ تعليم المرأة حدا واسعا من الانتشار يمكن أن نستنتجه مما ذكره **ابن فياض** فى تاريخه **أخبار قرطبة** ، قال : « كان بالربض الشرقى من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفى ، هذا ما فى ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها ؟ »[٨] .

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ، جـ١ ص ٨٠٢ ، طبعة أوربا ، و٥٠٤/٢ و١٤٠/٣ ، طبعة احسان عباس .
(٢) انظر الملحق الخاص بالوثائق فى آخر الدراسة ، حيث يستعمل صيغة « ابن » أو « ابنة » للتمييز .
(٣) ابن بشكوال ، الترجمة ١٤٢٠ ، والضبى ، الترجمة ١١٨٥ ، طبعة مدريد .
(٤) ابن بشكوال ، الترجمة ١٤١٩ ، والضبى ، الترجمة ١١٨٥ .
(٥) الاحاطة ، جـ٣ ، الورقة ١٥٦ ، مخطوطة الاسكوريال .
(٦) ابن بشكوال ، الترجمة ١٤١٣ ، ١٤١٤ ، طبعة مدريد .
(٧) المصدر السابق ، الترجمة ١٤١٦ ، ١٤١٨ .
(٨) عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى أخبار المغرب ، ص٢٧٠ ، طبعة ليدن ، ٣٧٢ طبعة سعيد العريان ، الأولى .

وتزاحم الطلاب على الدراسة جعل المرأة أيضا تقبل عليها ، وتفتح المدارس وتلقى فيها الدروس كما يصنع الرجال ، وكان لبنى حزم[1] . وهى أسرة اشتهرت بالأساتذة ، مدرسة من أشهر مدارس قرطبة ، يدرس فيها الأب للصبيان ، والابن للفتيان ، والبنت للفتيات . وكان ذلك فى القرن الثالث الهجرى تقريبا عندما نبتت الرغبة القوية فى الدرس ، ولكنها كانت فى أول خطاها .

وفيما بعد بلغت المرأة المسلمة فى إسبانيا قدرا عاليا من التعليم ، والتقدير الرفيع ، يمكن أن يقارن مع أكثر النساء تعليما بين الشعوب القديمة ، دون تفرقة بين جنس الفتيات ، فحتى النساء السوداوات أو السودانيات اللائى عشن فى الأندلس يمكن أن نتخذ منهن مثلا للمرأة الإسبانية المسلمة المتعلمة[2] . وأشير من بينهن إلى **إشراق** ، وعرفت بين العامة باسم **العروضية** ، وظن **سيمونيت** Simonet فى دراسته عن « المرأة العربية الإسبانية » أنها من سكان إسبانيا الأصليين ، ولكن **ابن الأبار** المؤرخ ، وعاش فى نفس المدينة كانت تعيش فيها هذه المرأة العالمة ، يذكر فى صراحة حاسمة فى كتابه **تكملة الصلة** ، أنها كانت جارية سوداء[3] .

ولم يقف نشاطهن عند حد الدراسة فى إسبانيا فحسب ، وإنما رحلن إلى الخارج ليدرسن كالرجال سواء بسواء . فقد ذهبت **خديجة** بنت أبى محمد عبد الله **الشنتجيالى** ، إلى المشرق مع أبيها ، وحضرت معه فى مكة نفس الدروس التى حضرها ، وسجلت فى الإجازات التى شهد بها الأساتذة لصالحها[4] ، وفى المشرق درست أيضا فاطمة بنت سعد الخير بن محمد ، ذهبت إليه رفقة والدها ، وحضرت دروس كبار علمائه[5] ، ورحلت **راضية** مولاة عبد الرحمن الناصر ، وقد **أعتقها الحكم** من أبيه ، وتزوجها لبيب الفتى ، من رجال قصر الخلافة ، وحجا معا ، وكانا يقرآن ويكتبان ، ولقيت عددا من العلماء ، ونسخت مجموعة من الكتب حافظ عليها الورثة من بعد ، كنسيج من الذهب ،

---

(١) على التأكيد غير أسرة ابن حزم الأندلسى الشهير ، والتى تحمل اللقب نفسه ، ويتردد اسمها كثيرا فى تاريخ الأندلس .

(٢) ابن الأبار ، التكملة ، الترجمة ٣١٢ .

(٣) المصدر السابق ، الترجمة ١٥٤٨ ، ٢١١٥ .

(٤) ابن بشكوال ، الترجمة ١٥٣٩ ، طبعة الدار المصرية .

(٥) التكملة لابن الأبار ، الترجمة ٢١٢٣ ، طبعة مدريد .

وقدرها على نحو عظيم صفوة تلاميذها فى إسبانيا ، وامتد بها العمر طويلا ، فتوفيت فى حدود سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة ، وقد نيفت على مائة عام بنحو سبعة أعوام[1] .

ولو أن بعض النساء حققن امتيازا فى كل الدراسات التى اختص بها الرجال ، فتميز بعضهن فى علم التوحيد[2] ، إلا أنهن بعامة اتجهن إلى تلك المواد التى اعتقدن أنها أكثر مناسبة لهن ،وتجعل من المرأة أكثر لطفا ، على نحو ما يحدث فى كل العصور ، مثل الأدب ، والشعر ، والموسيقا بخاصة . وفى رواية قصيرة ترجمها عن العربية إلى القشتالية (= الإسبانية) أحد الموريسكيين ، وتعرضت على نحو ما لعادات العصر الذى كتبت فيه ، تقدم لنا شخصية زوجين من خاصة أهل قرطبة ، وتعليم الزوج ، طبقا لها ، يتمثل فى أنه « درس كل العلوم : الموطأ ، والبخارى ، والمنطق ، والفلسفة ، وكتب الطب ، والفقه ، والوثائق ، وكل شيء خط على الورق » على حين أن الزوجة « تعزف على العود ، والرباب ، والأرغن ، وآلات أخرى ، لتجعل من زوجها رجلا سعيدا »[3] .

● **رأى ابن رشد ومناقشته :**

ومع ذلك ، إذا نظرنا إلى الأمر من أعلى ، حيث تعود الفلاسفة أن يجلسوا أحيانا لكى يتأملوا قضايا هذا العالم فسوف نجد هذه الحقيقة بغيضة إليهم ، يقول ابن رشد : ظروفنا الاجتماعية لا تسمح لنا أن ندرك كل ما تستطيع المرأة أن تقوم به ، وفيما يبدو لى إنها لم تتهيأ لغير إنجاب الأبناء وتربيتهم . وهذه الحالة من العبودية دمرت كفاءتها للقيام بالمهام العظمى التى يمكن أن توكل إليها ، ومن ثم لا نرى بيننا أية امرأة تتمتع بمواهب فكرية عالية ، وحياتها تمضى كالشجر ، وقف على رعاية زوجها ، ومن هنا يجيء الشقاء الذى يفترس مدننا ، لأن النساء مثلى الرجال عددا ، ولا يستطعن القيام بما هو ضرورى ، ليعشن عن طريق العمل[4] .

---

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ١٥٣٤ ، طبعة الدار المصرية .

(٢) التكملة ، الترجمة ٢١٢٢ .

(٣) نصوص عجمية ، نشرها : خيل ، وريبيرا ، وسانتشيث ، ص٩٩ و١٠٥ .

● الموريسكيون هم المسلمون الذين تخلفوا فى الأندلس بعد سقوط دولة الإسلام ، فى يناير ١٤٩٢ ، ثم أكرهوا فيما بعد على اعتناق الكاثوليكية ، وحين شك الإسبان فى احتفاظهم بالإسلام سرا تقرر طردهم نهائيا عام ١٦١٣ . (المترجم) .

(٤) نقل المؤلف النص عن كتاب ابن رشد والرشدية للمستشرق الفرنسى رينان ، وكلاهما لم يشر إلى المصدر الأصلى الذى اعتمد عليه ، ولذلك ترجمته عن نصيه الإسبانى والفرنسى .

والشيء نفسه يمكن أن يقال الآن ، وبخاصة من أولئك الذين يرون في اقتصار الأشخاص الأذكياء الجادين على إنجاب الأولاد ، ورعايتهم ، وتربيتهم ، أمرا غير جدير بالاعتبار ، ولا يرون العظمة والنبل إلا في الانصراف كلية إلى هذه التأملات العالية ، والتي نبلغها عن طريق العلم ، وهو يحتقر التفاوت الطبيعي .

وحين يلقي ابن رشد مسئولية شقاء إسبانيا الإسلامية على المرأة ، لا يقنع بمجرد الملاحظة المعتدلة ، وإنما يتجاوزها فيصبح ظالما ، وقليل اللطف مع النساء . ألم يكن الرجال هم الذين ظلوا يتقاتلون في حروب أهلية على امتداد قرنين من الزمان ، دون هدنة ، إلا تلك اللحظات التي يحتاجونها ليستجمعوا قواهم ، ويذهبون ليدافعوا عن أنفسهم ضد أعداء مشتركين ، أو تلك الهدنة المخجلة التي تفرضها الشعوب الأفريقية ؟ أية مدينة حينئذ كان يتأتى لها أن تصنع المعجزة ، وأن تتحرر إذ ذاك من الشقاء ؟ .

* * *

لقد ظلت هذه المبادأة الخاصة يقظة طوال المرحلة التي درسناها ، دون أن تغفل أبدا ، أو أن تثق في عناية الحكومات .

لقد بدأ التعليم متواضعا ، بمواد محدودة وواهنة ، وحتى هذه كان يستعيرها الإسبان من المشرق ، ونمت على مهل ، ورفضت المذاهب الجديدة ، ورأت فيها عائقا ، ولكن هذه البساطة نفسها ، إلى جانب التمهل ، سمحت لها بأن تنتشر ، وأن تضرب بعيدا ، وعميقا ، بين كل الطبقات الاجتماعية ، وقدمت لها قاعدة عريضة كي تنهض عليها دراسات جديدة ، وربما إلى الصفات نفسها يمكن أن نرد القوة والصلابة التي برهنت عليها فيما بعد ، عندما قاومت التغييرات العنيفة التي تعرضت لها أمكنة أخرى . ولقد تغيرت الأسر الحاكمة ، وتجددت الآراء ، وتنوعت أعمال الحكومات ، وتحركت الثورات والفتن والحروب ، ولم يصنع كل هذا أكثر من دفع الأمواج والرغاوى الظاهرية إلى السطح ، على حين واصل العلم سيره وراء ذلك في العمق ، ولم يتوقف نموها التقدمي أبدا . وتمزقت الإمبراطورية الإسبانية الإسلامية ، وحدثت فتن أهلية ، وتعرضت لغزو أجنبي ، وعاني كل شيء في إسبانيا ، ولكن التعليم ، فيما يبدو ، تميز في كل خطوة بأنه أكثر رفعة ، وأشد قوة ، وأقوى تماسكا . وحين مد مسيحيو الشمال غزوهم ، وافتقرت السلطة في الدولة الإسلامية ، ووهنت قوتها ، بقي التعليم متماسكا ، وحتى حين لم يبق له من الأرض غير شبر لكي تمتد جذوره عميقا ثبت عليه ، وامتد بعيدا ،

وأزهر فى أراض أجنبية ، اقتطفت الهدية سعيدة وحريصة ... إنها الثمرة الحلوة للعمل العلمى .

وانهارت الدولة الإسلامية فى إسبانيا ، ولم تكن وحيدة فى تعاستها ، وإنما رافقتها الشعوب المجاورة ، وفيها انعكست عظمتها واضحة وساطعة ومع غروب شمس الأندلس أشرق فجر أفريقيا لعدة سنوات ، ثم بدا يغرب رويدا رويدا ، إلى أن غرقت أخيرا فى ضباب كثيف ، لم تستطع أن تخرج منه حتى الآن .

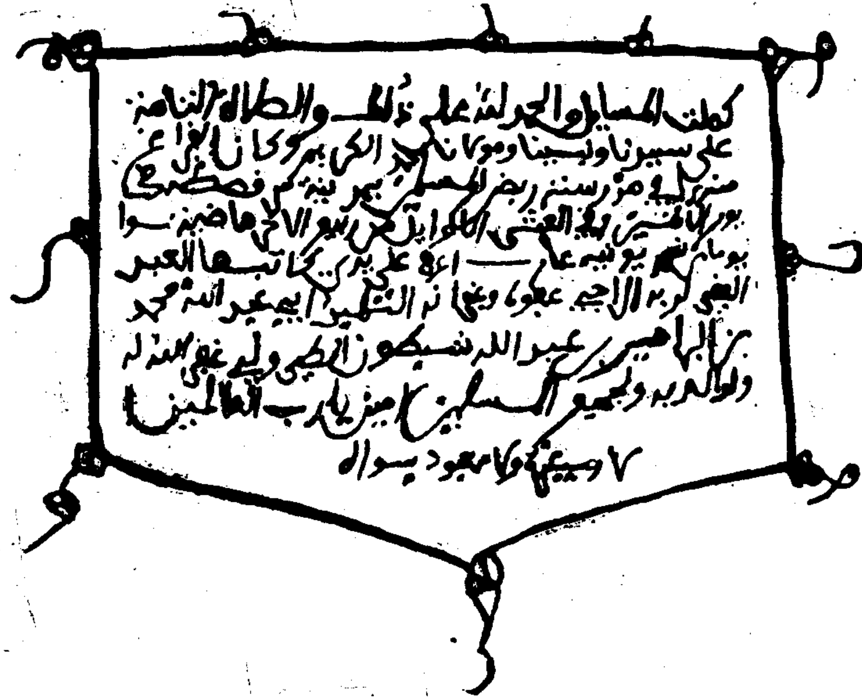
لقد أحاطت بعبقرية إسبانيا الإسلامية إذ ذاك هالة من النور ، تستأهل أن نذكرها الآن ، وأن نتخذ منها مثلا وقدوة ، لكى نتبارى جميعا ، أساتذة وطلابا ، فقد استطاع وطننا يوما ، دون مساعدات ولا عون رسمى ، أن يصبح بالاجتهاد وحماسة أبنائه فحسب أستاذا عظيما للغرب بأكمله !

❑ **ملحقات :**

١ – مدرسة ربض المسلمين[1]
فى سرقسطة

خاتمة مجلد يجمع عددا من الكراسات نسخها التلميذ **شبطون الطيرولى de Teruel** فى مبنى جامعة المدجنين[2] ، فى الحى العربى **Moreria** من مدينة سرقسطة ، فى العشر الأوائل من ربيع الآخر ماضية التى كان يملكها بابلو خيل ، الورقة رقم ٥١ .

وإليك صورة هذه الوثيقة :


كملت المسايل والحمد لله على ذلك والصلاة التامة
على سيدنا ونبينا ومولانا محمد الكريم [illegible] وكان الفراغ
منها [illegible] في مدرسة ربض المسلمين بمدينة سرقسطة
[illegible] العشر الأوائل من شهر ربيع الآخر ماضية سنة
[illegible] عام [illegible] على يد كاتبها العبد
الفقير لربه الراجي عفوه ورحمته التلميذ ابي عبد الله محمد
بن ابراهيم بن عبد الله شبطون الطيرولي [illegible] غفر الله له
ولوالديه ولجميع المسلمين آمين يا رب العالمين

---

(١) عناوين الملحقات كلها من وضع المترجم .

(٢) المدجنون : المسلمون الذين تخلفوا فى البلاد الأندلسية بعض سقوطها فى يدد النصارى ، واحتفظوا بلغتهم ودينهم .

وهذا هو نصها[1] :

كملت المسايل ، والحمد لله على ذلك ، والصلاة التامة على سيدنا ونبينا ومولانا محمد الكريم . وكان الفراغ منها فى مدرسة ربض المسلمين بمدينة سرقسطة فى يوم الاثنين ، وفى العشر الأوائل من ربيع الآخر ماضية – ١٩ يوما من شهر يونية – ٨٥١ على يدى كاتبها العبد الفقير لربه ، الراجى عفوه وغفرانه : التلميذ أبى عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن شبطون الطيرولى ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين . آمين يا رب العالمين ، لا رب غيره ، ولا معبود سواه .

٢ – جواب من طالب إلى أستاذه

رسالة كتبها فى سرقسطة التلميذ **محمد قلبارة القرشى** وتوجه بها إلى أستاذه **أبى عبد الله الغازى** فى بالجيط (ربطة حرف) من مجموعة جمعية الدراسات ، رقم ١ :

« **الحمد لله وحده** »

سيدى وسندى ، وعزى وإجلالى ، ومحل تعظيمى واشتياقى ، الذى محبته ممزوجة بلحمى ودمى ، وشوقة روايته مغروسة فى قلبى وشراسيفى ، ذلكم السيد الفقيه المكرم ، والأستاذ الماهر المعظم : **أبو عبد الله محمد الغازى** ، أكرمه الله وتولاه ، وجعل الجنة منزله فى أخراه ، برحمته وجوده ، إنه منعم كريم .

« سلام كريم ، مقدس عميم ، يعتمد سيادتكم ، ورحمة الله وبركاته من معز حرمتكم ، وموجب خدمتكم ، أصغر عبيدكم ، **محمد القرشى** ، المعروف **بقلبارة** » .

« أما بعد ، فقبضت كتابكم الأثير وفهمت متضمنه ، لكن مقصود رسالتكم الكريمة ، التى هى الرغبة الأكيدة أن أبعث لكم **شروحات وثائق الجزيرى** ، لكن رغبتكم إلىّ معذورة ، لأننى لافعل (هكذا) عنكم شيئا ما احتاج رغبة من جانبكم ، لأن بالأمر منكم كنت ملتزما أن أفعله ، فضلا عن أن ترغبونى . فوالله الذى لا إله إلا هو ما كانت الشروحات عندى منسوخة إلا فى رقاع متفرقات ، وكانت فى بلدى تلك الرقاع ، وأكون الآن ألوم نفسى لسفهى ، وغلظ طبعى ، بتركها فى الرقاع بغير نسخ ، وكيفما

(١) حافظت على الخصائص الإملائية واللغوية للرسائل والنصوص حتى ولو كانت خاطئة « المترجم » .

كان أنى أجتهد فى نسخها إذا جاء محمد بن يوسف[1] ، أطلب منه الشروح المذكورة لأنتسخ منها نسخة ، وأرسلها إلى علية مجدكم ، إن شاء الله ، وإن كان معى أشغال أتركه لأجل خدمتكم .

« أما من شروحات الخطب فلم أقبضها بعد ، لكن كل يوم أرغب وأرسل رسالة لقرطبى أن يبعثها إلىّ ، وكما كان رجل من قلة عهد وأمان ما يفعل شيئا برسالتى ، كان حلف بالله أنه إذا بلغ لتطيلة أنه يرسلها إلىّ بلا شك ، ومضى شهران ولم يرسلها .

« أما من جواد فضلكم إلى السؤال عن حالى ، وعن كيفية تعليمى فى مقصودى ، فأخبركم كيف أكون صحيحا فى الحال ، الحمد لله ، وفرغت الآن من قراءة شرح أرجوزة ابن سيناء ، وبدأت بقراءة الكتاب الأول من القانون مستعينا بالله ، وكنت أجتهد وأتعب ليلا ونهارا لأنال مقصودى ، لأن الكتاب المذكور كان يتكلم فى كليات الطب ، وكليات الطب كانت معرفة حد الطب ، والمزاج ، والأركان ، والطبائع ، ومعرفة الضروريات من المأكل والمشرب ، والنوم واليقظة ، والحركة والسكون ومعرفة المرض والعرض والسبب ، وغير ذلك من أشياء كثيرة لا تحصى ، وكل ذلك كان من أدق هذا العلم ، لأنه كان يتكلم منطقيا وفلسفيا ، وكل ما كان كذلك لا ينال إلا بجهد وتعب ، فكان واجبا علىّ أن أتعب ليلا ونهارا لأنال مقصودى ، وأرغب إلى الله أن يعيننى على نيل مقصودى ، أو على ما يكون أعبد وأحمد .

« وأما قولكم أن وسع الزمان أن أجتهد فى زيارتكم ، لأنكم مشتاقون لرؤيتى ، فإنى والله لأشد شوقا لرؤيتكم وخدمتكم ، فإن وسع الله فى الزمان أنا زايركم إن شاء الله .

« أرغبكم أن تبلغوا السلام عنى على الطاهرة الزكية حليلتكم ، وعلى أولادكم ، وعلى جميع تلاميذكم وسائر من تحوطه رعيتكم ، والسلام عائد عليكم ورحمة الله وبركاته .

المقبل أيديكم وأرجلكم ، أصغر تلاميذكم :

محمد قلبارة من سرقسطة

كتب يوم الاثنين الثانى عشر لينير عام ٩٠٠ (هجرية) .

عنوان الجواب :

فى بالجيط

(١) طى الورقة جعل هذه الكلمة غير واضحة فى الأصل .

يدفع بيدى سيدى وسندى ، وعزى وإجلالى ، ومحل تعظيمى واشتياقى ، الذى محبته ممزوجة بلحمى ودمى ، وشوقة روايته مغروسة فى قلبى وشرا سيفى ذلكم الأستاذ المكرم ، والعالم المعظم ، أبو عبدالله محمد الغازى ، أكرمه الله .. مرغوبة .

٣ – صيغ العقود بين المدرسين وأولياء أمور التلاميذ

صيغة عقد بين مدرس ووالد تلميذ ، أو ولى أمره ، كما وردت فى الجزء الثانى من **كتاب الوثائق والمسائل المجموعة** ، لمؤلفه **أبى عبد الله** بن عبدالواحد البونطى .

(المخطوطة رقم ١١ من المجموعة نفسها ، الورقة رقم ١٠٠) .

● **وثيقة استيجار معلم القرآن[١] :**

استأجر فلان بن فلان ، فلان بن فلان المعلم ، ليعلم ابنه فلانا ، أو ابنته فلانة ، أو بنيه فلانا وفلاما وفلانا القرآن ، نظرا أو ظاهرا ، والكتب والخط والهجاء عاما ، أوله شهر كذا ، من سنة كذا ، وبكذا وكذا دينار ، صفة كذا ، يودى إليه كل شهر ما ينوبه منها ، وذلك كذا وكذا ، ويدفع إليه فى كل شهر ، فى أوله ، من دقيق القمح الطيب الريون[٢] ، الجيد الطاهر ، ربعين أو ثلاثة بوزن كذا ، ومن الزيت نصف ربع من زيت الماء الطيب الأخضر بكيل كذا . ويشرع المعلم فى التعليم المذكور وعليه الاجتهاد ، ثم يكمل الوثيقة .

« فإن اشترط عليه فى الأعياد شيئا ذكرت ذلك وقلت : ويدفع إليه فى عيد الفطر كذا ، وفى **عيد الأضحى** كذا ، ويعطيه عند حذقة الصبى فلان القرآن كله كذا شهد » .

● **ويعقد فى ذلك أيضا على ما عقده موسى بن أحمد فى تعليم القرآن كله :**

« استأجر فلان بن فلان ، فلانا المؤدب بكذا وكذا دينارا ، من صفة كذا ، قبضها فلان المعلم ، ليعلم ابن فلان هذا ، المسمى كذا ، جميع القرآن ، وقد عرف فلان هذا المستأجر هذا الصبى ، ووقف على مقدار نباهته . شهد ، وله فى الأجر لأمر معلوم » .

---

(١) هذا العنوان الفرعى ، وكل العناوين الفرعية الأخرى ، من عملى أنا (المترجم) .

(٢) هذه الكلمة ليست عربية ، وأظنها الكلمة الإسبانية Royon أو Rubion ومعناها : الأشقر . « المترجم » .

● **صيغة عقد آخر :**

« استأجر فلان بن فلان ، فلان بن فلان بكذا وكذا دينارا ، دراهم قبضها منه ، ليعلم له ابنه فلانا سنة ، أولها شهر كذا ، عن سنة كذا ، القرآن . شهد » .

● **حكم تعليم غير القرآن :**

« فإن استأجره ليعلمه الكتب تدون هذا النحو . ولا تجوز الأجرة على تعليم الفقه والفرائض والنحو والشعر والعروض ، وكره بيع كتب ذلك ، وروى **ابن حبيب** أنه جائز وقال ابن حبيب فى تعليم الشعر أيضا أنه جائز إذ أشعار العرب القديمة التى هى فيها مفاخرهم وذكر شعرهم ، والشعر ديوان العرب ، ما لم يعلمه ذكر الهجاء والقبيح من الكلام ، إذ لا يجوز تعلم ذلك » .

● **تحديد الأجل فى العقد :**

« وقال **محمد بن عبد الله** : لا بأس أن يشارط الرجل المعلم على تعليم ولده الشعر والنحو والرسائل وأيام العرب ، وما أشبه ذلك من علم الرجال ذوى المروءات ، سميا فى ذلك أجلا أو لم يسميا .

« وقيل **لأصبغ** : كيف جوزتم الشرط على تعليم الشعر والنحو والرسائل إذا لم يسميا لذلك أجلا ، وهو مما ليس منتهى منه إلى حد معروف ؟ . فقال : هو عندنا بمنزلة ما أجاز **مالك** من الشرط على تعليم الخياطة والحبر ، وما أشبه ذلك من الصناعات ، فإذا بلغ من ذلك مبلغ أهل العلم من الناس وجب فى ذلك حقه . ولا بأس يأخذ الأجرة على تعليم المسلم الكتب والقرآن ، ولا بأس بالاستيجار فى ذلك سنة وسنتين مشاهرة ، ولا بأس بتقديم الأجرة فى ذلك إلى المؤدب ، ولا بأس بمشارطة المؤدب على تعليم القرآن كله أو نصفه ، أو ما ذكراه ، نظرا وظاهرا . سميا فى ذلك أجلا أو لم يسميا ، كذلك قال **مالك** وغيره » .

« قال **محمد بن أحمد** : وإن لم يعرف قدر نبل الصبى من بلادته » .

« وقال **محمد بن عبد الله** : إنما يجوز توقيت الأجل مع شرط تعليم القرآن كله إذا كان التوقيت غير ضيق ، فإن كان ضيقا يرى ويخشى أنه لا يبلغ ذلك فيه لم يجز ، لعاقبة الغرور والمخاطرة . وأما إذا وقتا وقتا يفرغ فى مثله ما شرط على المؤدب فلا بأس بذلك ، فإن تأخر عن الأجل أعطى أجرة مثله فيما علمه تلك السنة ، لا على حساب الأجرة الأولى ، كذلك قال **أصبغ** » .

- **هدايا الأعياد :**

« ولا تحكم للمعلم بشيء فى الأعياد ، إلا إن اشترط من ذلك شيئا معروفا فيكون له ما شرط . واختلف أهل العلم فى الحذقة ، **فأبو إبراهيم اسحاق بن إبراهيم** عن بعض أهل العلم لا يوجبها حتى يشترط ذلك ، وغيره يقول يحملان على سنة أهل البلد ، ويأخذ فيما قد عرف الحذقة فيه من أجزاء القرآن على قدر غناء والد الصبى وحاله ، ويقضى عليه بذلك للمعلم ، وقيل لا حذقة له إلا فى القرآن كله ، فإن اشترط المعلم فلابد من تسمية شيء معروف ، وإلا لا تجز الأجرة . ويجوز لوالد الصبى أن يشترط ألا حذقة عليه مع الأجرة » .

- **انفساخ العقد :**

« وإذا مات الصبى انفسخت الإجازة فيما بقى ، والإجازة تنتقض بموت المستأجر ، ولا تنتقض بموت المستأجر له . كالاستيجار لرعاية الغنم وشبه ذلك ، إلا فى أربعة أشياء : الظئر[1] ، والمعلم ، والرائض للدواب ، وفحل النزو ، فإنها تنتقض بموت المستأجر ، والمستأجر له ، وذلك لاختلاف الرضاع من الصبيان المراضع ، ولاختلاف النبل والبلادة ، واختلاف صعوبة الدواب » .

- **الانقطاع والمرض :**

« وإذا غاب الإمام أو المؤدب إلى بعض حاجته ، أو إلى باديته ، الأيام الجمعة ونحوها ، فلا بأس بذلك ، فإن طال مغيبه كان لأهل المسجد توقيف الإمام عن ذلك ، والمعلم منعه منه، ولا يحط من أجرته شيء. وكذلك إن مرض الأيام اليسيرة، وإن طال مرضه أو مغيبه انحط من أجرته ما تقع منها على أمد مغيبه أو مرضه . وإن غيّب الصبى أبوه أو وليه وشغلاه ، فللمعلم الأجرة تامة . فإن مرض الصبى مرضا طويلا انحط من الأجرة بقدر مرض الصبى . انتهى » .

- **وثيقة استئجار مؤدب فى النحو والأدب :**

« وثيقة استيجار مؤدب عربية **لمحمد بن عبد الله** :

استأجر فلان بن فلان ، فلان بن فلان المؤدب ، لتعليم ابنه فلان سنة ، أولها شهر كذا من سنة كذا ، النحو ، ويملى عليه الرسائل ومخاطبات البلغاء ، وتوقيعات الأمراء ،

---

(١) المرضعة لغير ولدها (المترجم) .

ويرويه من الشعر الجاهلى والإسلامى الشعر الحسن ، السليم من وصف الخمر والخنا وقبيح الهجاء ، بكذا وكذا ، دفع فلان شطر هذه العدة إلى المؤدب فلان ، وقبضها منه ، وأبراه منها ، فإذا انقضت السنة المذكورة دفع فلان بن فلان إلى فلان بن فلان باقى أجرته بلا تكدير ولا مطل إن شاء الله .

« شهد عليهما بذلك من عرفهما ، وذلك فى تاريخ كذا ، انتهى » .

٤ - عقد مشاركة بين مدرسين لفتح مدرسة

صيغة وثيقة لعقد مشاركة بين مدرسين لفتح مدرسة ، (الورقة ١٣٤ من المصدر السابق ، نفس الكتاب ونفس الجزء) :

وثيقة شركة المعلمين : أشهد فلان بن فلان ، وفلان بن فلان أنهما اشتركا فى تعليم القرآن والكتب ، على أن يقعدا لذلك فى مقعد واحد ، ولا يفترقان فيما قسم الله عز وجل لهما فى ذلك من رزق ، وساقه إليهما من فضل ، فهو بينهما بالسواء ، كما الكلفة عليهما فيما يتوليانه من التعليم سواء . شهد . انتهى » .

● **أحكام الشركة** :

« قال محمد بن عبد الله : ويجوز للشريكين على التعليم أن يتراضيا على أن يجلس أحدهما على الصبيان شهرا ، ويجلس الآخر شهرا آخر، إذا كان إنما تراضيا على ذلك بعد عقد الشركة ، وإن كانا عقدا شركتهما على هذا فلا خير فيه . انتهى » .

« ولا يشبهان الصانعين فى مثل هذا ، فالصانعان لا يجوز ذلك بينهما على حال ، من قبل أن الصانعين إذا كان أحدهما شهرا والآخر شهرا ، ربما ربح أحدهما فى شهر أكثر مما كسبه صاحبه ، وإنما يعملان فى كسب مستقبل ، والمعلمان ليسا كذلك ، إنما يجلسان على الصبيان خراجهم واحد فى كل شهر ، قد عرفوا ذلك ، وعرفوا كم هو ، وما هو فإنما يجلسان لتقاضى ما يعرفان بعد ، وهما بمنزلة الرجلين ويكون لهما غنم ، متراضيان على أن يرعاها كل واحد منهما شهرا فلا بأس به كذلك . رواه **ابن حبيب عن مطرف وابن الماجشون** » .

٥ - عقد إجارة مؤدب

« استأجر فلان فلانا المعلم ليعلم ابنه فلانا الخط والهجاء والقرآن ، ظاهرا أو نظرا عاما ، وله كذا بكذا وكذا ، فقبضهما فلان ، مقدما ، أو مقسطة على شهور العام ، وشرع المعلم فلان فى تعليم فلان ، وعليه فى ذلك بذل النصيحة والاجتهاد ، بعد أن وقف على مقدار نباهته ، ثم نكمل العقد . انتهى » .

٦ - أحكام فقهية

« ويجوز الإجارة على تعليم القرآن دون ضرب أجل ، ويجوز أكثر من سنة ، ويجوز على بعض أجزاء القرآن ، ولا يجوز ضرب أجل إلا فيما يعرف أنه يفرغ فيه مما شرط ، ولا تجب الحذقة إلا بشرط أو عرف جار على أجزاء معلومة . وقيل لا حذقة إلا فى جميع القرآن ، وهى غير مقدرة ، وإنما هى على قدر غناء والد الصبى وفقره ، فإن شرط المؤدب فلابد من تقديرها ، وإلا لم تجز الإجارة . وليس للأب إخراج ابنه إذا قرب من الحذقة ، فإن أخرجه ، فإن قد قرب منها جدا وجبت عليه الحذقة ، وإن كان بخلاف ذلك فأدخله عند مؤدب آخر فلكل واحد منهما بقدر ما علم .

« وتنفسخ الإجارة بموت الصبى ، وكذلك فى الظئر . وللمؤدب والإمام أن يغيب فى حوائجه ، وتفقد ضيعته الجمعة ونحوها ، ولا يحط لذلك من الأجر شيئا ، وكذلك إن مرض أياما يسيرة ، ويحط من الأجرة لمرض الصبى بقدره .

« وكره مالك الأجرة على تعليم الفقه والنحو والفرائض ، كان فى ذلك صحيحا أو سقيما ، وكذلك عنده بيع كتبها ، وأجاز ابن حبيب تعليم الشعر إذا لم يكن فيه هجاء ولا ذكر الخمر ، وأيام العرب والرسائل وغير ذلك . انتهى » .

٧ - وقف الكتب على المسجد
لصالح الطلاب

(مأخوذة من المصدر السابق نفسه)

« وفى الكتاب تقول : كتاب الجامع الصحيح للبخارى ، أو مسلم ، أو الموطأ ، أو الكذا ، لتعار لطلبة العلم ، للنسخ والمقابلة والدرس ، وفى المصحف : مصحف جامع للقرآن ، صفته كذا ، وخطه كذا ، بحليته وغلافته ، وان كانت ربعة ذكرتها .... » .

٨ - رأى القاضى أبى بكر بن العربى[١]
فى التعليم

● **التعليم فى المشرق :**

« وللقوم فى التعليم سيرة بديعة ، وهى أن الصغير منهم إذا عقل بعثوه إلى المكتب ، فإذا عبر المكتب اخذوه بتعلم الخط والحساب والعربية ، فإذا حذقه كله ، أو حذق منه ما قدر له ، خرج إلى المقرىء فلقنه كتاب الله فحفظ منه كل يوم ربع حزب ، أو نصفه ، أو حزبا ، حتى إذا حفظ القرآن خرج إلى ما شاء الله من تعليم أو تركه » .

« ومنهم ، وهم الأكثر ، من يؤخر حفظ القرآن ، ويتعلم الفقه والحديث وما شاء الله ، فربما كان إماما وهو لا يحفظه . وما رأيت بعينى إماما يحفظ القرآن ، ولا رأيت فقيها يحفظه إلا اثنين ، ذلك لتعلموا أن المقصود حدوده لا حروفه . وعلقت القلوب اليوم بالحروف وضيعوا الحدود خلافا لأمر رسول الله ﷺ ، لكنه إنفاذ لقدر الله ، وتحقيق لوعد رسول الله ، ﷺ ، وتبيين لنبوته ، وعضد لمعجزته » !

(أحكام القرآن ، جـ ٢ ص ٢٩١ ، طبعة مصر ١٣٤٢ - ١٣٤٤هـ) .

● **التعليم فى الأندلس :**

« ... فصار **الصبى** عندهم إذا عقل فإن سلكوا به أمثل طريقة لهم علموه **كتاب الله** ، فإذا حذقه نقلوه إلى الأدب ، فإذا نهض منه حفظوه الموطأ ، فإذا لقنه نقلوه إلى **المدونة** ، ثم ينقلونه إلى **وثائق ابن العطار** ، ثم يختمون له **بأحكم ابن سهل** ، فقال قال فلان الطليطلى وفـلان المجريطى ، **وابن مغيث** - لا أغاث الله نداه ، ولا أنوله رجاه- فيرجع القهقرى دائما إلى الوراء ، على أمه الهاوية ! » .

● **الطريقة المثلى :**

« والذى يجب على الولى فى الصبى إذا كان أبا ، أو وصيا ، أو حاضنا ، أو الإمام ، إذا عقل أن يلقنه **الإيمان** ، ويعلمه **الكتابة والحساب** ، ويحفظه **أشعار العرب** ، العاربة ،

---

(١) من كبار علماء الأندلس ، توفى عام ٥٤٣هـ - ١١٤٨م ، وقد أضفنا النص لأنه لم يكن معروفا فى اللحظة التى قام فيها ريبيرا بأبحاثه ، ولو عرفه لأضافه حتما . « المترجم » .

ثم يحفظه إذا استقل واستوفى العشر الثانى من كتاب الله ، وهو أمر وسط متساو بين أهل المشرق والمغرب . ثم يحفظ أصول سنن الرسول ، وهى نحو من ألفى حديث ، فى الأبواب التى نظمها البخارى ومسلم ، هى عماد الدين . ويأخذ بعد ذلك نفسه بعلوم القرآن ومعانى كلماته ، ولا يشتغل برواية الحديث من كل كتاب فالباطل فيه كثير ، وما الصحيح من حديث رسول الله ﷺ إلا كنقطة من بحر . وليحذر كتب الصالحين ومن ينتمى إلى الوعظ فإنهم لم يألوا فى الكذب على رسول الله ﷺ ، بقصد وبغير قصد . ولا كتاب يعول على حديثه منها إلا كتاب ابن المبارك وأحمد بن حنبل ، وهناد بن السرى .

« ولا يفرط فى علم الفرائض فإنها أصل الدين ، وهو أول ما يذهب من المسلمين ، فبالسنة يفرضها ، وبالحساب يقسمها ، ولا يخلى نفسه عن الأنساب ، ولا على شىء من أصول الطب ، وليتخذ عبارة الرؤيا أصلا ، ولا يقل : متى أحمل هذا ؟ فإنه ليس المطلوب منها الغاية فإنها لا تنالها إلا الأفراد . وإنما ينبغى لكل عاقل أن يتخصص بجزء منها ، ولا يفرد نفسه ببعض العلوم ، فيكون إنسانا فى الذى يعلم ، بهيمة فى الذى لا يعلم . ولاسيما من أقام عمره حاسبا أو نحويا فقد هلك ، فإنه بمنزلة من أراد صنعة شىء فشحذ الآلة عمره ، ثم مات قبل عمل صنعته . ولا يصغ إلى من يقول له : تكون مقصرا فى كل علم إذا فعلت هذا . والأولى لك أن تقف نفسك علم علم واحد ، فإنه قول جاهل بالعلم ، إذا أخذ المرء نفسه بهذا القانون الذى رسمناه سيعتمد على ما يراه أوكد ، ويجعل الباقى تبعا » .

(العواصم من القواصم – مخطوطة جامع الزيتونة)

المكتبات وعشاق الكتب
في إسبانيا الإسلامية

● حول إحراق الكتب العربية
في ميدان باب الرملة في غرناطة :

بعد أن استولت الملكة إيزابيـل والملك فرنانـدو على غرناطة [في ٢ يناير من عام ١٤٩٢ م] ، أصدرا أمرهما إلى الموريسكيين بتقديم كل ما في حوزتهم من كتب عربية إلى العدالة ، ليقوم الأخصائيون بفحصها ، حتى يسهل تحويلهم عن الإسلام إلى الكاثوليكية ، ثم أعيدت لهم الكتب المتصلة بالفسلفة ، والتاريخ ، وأحرقوا ما عداها .

ولكن الأمر لم ينفذ حرفيا ، وأبدى المسئولين الذين عهد اليهم بتنفيذه تسامحا مفرطا ، غير أن الكاردنيال ثيسنيروس ، وهو رجل حاسم في قراراته ، رأى اتخاذ أسلوب أشد صلابة ، وأصدر أوامر فعالة كي يتم تنفيذ الأمر بكل صرامة وشدة .

ونتيجة لهذا الأمر جمع القائمون على تنفيذ أوامر الكاردينال عدة آلاف من المخطوطات العربية في ميدان باب الرملة ، في غرناطة ، وأشعلوا فيها النيران .

هذا الحادث وقع في ميدان عام ، على مشهد ومرأى من الجماهير ، ورواه المؤرخون المعاصرون له ، وشهدوا أحداثه تقريبًا ، ومع ذلك شوهته الأهواء من جانب ، والتحريف من جانب ثان ، والتعصب المذهبي أخيرًا ، وأصبح تحديد ما جرى فيه بدقة شيئًا صعبا على المحايدين ، والمجردين من الغاية والهوى ، وهم يدرسون الآراء الأخرى المتعارضة ، والتي اتفقت على تحريفه لسبب أو لآخر .

فالمؤرخون المتعاطفون مع موقف الكاردينال العظيم يرون أن إحراق الكتب كان أمرا ضروريا لكي لا يخضر الإقبال على التعاليم الاسلامية ثانية بين الموريسكيين ، ولا يحسون بأدنى خجل عند المبالغة في أرقام الكتب التي أسلمها الكاردينال إلى النيران ، لأنهم فيما يرون كلما زاد عدد الكتب التي أحرقها ، كلما ازداد العمل قيمة ، والكاردينال عظمة . وأولئك الذين تضطرب أعصابهم ، ويجتاح الغضب داخلهم ، لمجرد التفكير في الثروة الأدبية والفكرية العظيمة التي التهمتها النيران هناك ، لا يشكون في ضخامة عدد

المخطوطات ، ولا يتوقفون عن مضاعفة عددها ، حتى ولو كانت غايتهم مجرد تبرير الوقاحة التى واجهوا بها التعصب الدينى غير المتحضر . أما الذين أخذوا الأمر فى جد ، وفى حياد تام ، فكانوا قلة فى الحقيقة ، ويعتقدون أن مهمتهم ليست القيام بمعجزة تضخيم عدد « الخبز والسمك » ، وهو أمر ليست دونه أية عوائق ، ومن السهل العثور عليها فى بعض المواد التاريخية .

وأصبح أمرًا عاديا ، وخبز كل يوم عند كثيرين ، أن يعيدوا القول فى هذه القضية ، وأصبحت محورا لمناقشات مثيرة ، وتفجرت أحداها من قريب فى غرناطة ، وأثارت مشاعر الناس بقوة ، ذلك أن صحفيا متحرر الفكر جدًا ، ولو أنه لا يعرف العربية ، وبالتالى لم يفقد شخصيا شيئًا فى ذلك الحريق ، رسم بألوان قاتمة السواد تلك الجريمة المرعبة ، من التعصب الأحمق التى ارتكبها الكاردينال ثيسنيروس ، حين أطعم النيران ، دون أدنى شفقة ، فى ميدان عام ، مليونين من المخطوطات تضم معارف العرب العظيمة . وهذا الصحفى كما نرى مضى فى غرامه بالمسلمين إلى نهايته ، فاستخدم التضعيف ورفع الرقم من آلاف إلى ملايين ، وأسف على ضياع تلك الكتب والمعارف ، وهى بالنسبة له حروف صماء[1] .

ومن الجانب الآخر برز إلى الحلبة سيمونيت Simonet،[2] . وهو عالم كبير ، وتخصص فى دراسة العربية ، وحاول أن يضع كل شىء فى مكانه ، ولكن حماسته التقليدية والعنيفة فى الدفاع عن الكاردينال ثيسنيروس خرجت به عن الحد المعقول ، وبلغ به الأمر أن يؤكد ، بعد أن استبعد من الحريق ، افتراضا منا ، المخطوطات التى رآها تفيده فى

(١) أرجو من القارىء أن يأخذ فى الاعتبار أن الحديث عن التراث العربى والإسلامى الإسبانى لم يكن مما ترتاح إليه الكنيسة أو الطبقة الحاكمة فى تلك الأيام ، وأن الكاتب يتخذ من هذه المقدمة مبررا يقدمه بين يدى دراسته ، وإلا : هل من الضرورى لكى يدافع إسبانى عن تراث أمته فى اللغة العربية أن يعرف العربية ؟ هل الضرورى لكى يهتم بفلسفة سينكا وأدبه أن يعرف اللاتينية ؟ وهل من الضرورى لكى يخجل الإسبانى المتحضر والمثقف من هذا العمل المشين ، وأن يعبر عن خجله ، أن يفيد منه شخصيا ومباشرة ؟ فيم إذن أقسام اللغات العربية فى الجامعات الإسبانية ، أليس مهمتها أن تعكف على هذا التراث تدرسه ، وتترجمه ، وتقدمه لبقية المواطنين .
أعتقد أنه لا يعاب على هذا الصحفى تحمسه للأمر ، وإثارته القضية ، لمجرد أنه لم يكن يعرف العربية ، ولا يفيد من هذا المخطوطات شيئًا على نحو مباشر . « المترجم » .

(٢) أجاد سيمونيت اللغة العربية ، وله دراسات قيمة ، بذل فيها جهدًا كبيرًا ، ولكن التعصب الأعمى ، والحقد الأسود ، ذهب بكل جديتها ، وحسبك به إنسانا يتحدث عن الاستعمار العربى ، وإسبانيا بعد أقل من نصف قرن الفتح الإسلامى كانت دولة مستقلة ! « المترجم » .

دراسته : « من المستحيل تقريبا أن تكون إسبانيا الإسلامية قد عرفت هذا القدر من الخطوطات موضع النزاع ، لأن القول بأنهم يملكون هذه الملايين من المخطوطات يوجب علينا أن نفترض أن المسلمين أكثر شعوب العالم كله ثقافة واستنارة » . ويضيف : « ولكن الحقيقة غير هذا ، فلا الوثائق التى وصلتنا تبرهن على ذلك ، كلا ولا حضارتهم المتخلفة الخشنة ، وهى – كما هو عليه الحال فى بلد إسلامى – لا تتجاوز حدود الهمجية أبدا » .

وبلغ الأمر بهذا المستشرق العالم فى بحثه عن **الكاردينال خمينيث ثيسنيروس والمخطوطات العربية فى غرناطة** ، أن يبالغ على نحو يؤكد معه : « أن ثقافة أولئك المسلمين تنطوى على كثير من الخرافات والأساطير والتعصب » .

كل هذه الآراء التى اتسمت بالمبالغة حركت فضولى لدراسة غرام المسلمين الإسبان بالكتاب ، وهو – إلى جانب ذلك – نقطة إنطلاق هامة جدا فيما أرى لدراسة تاريخهم الأدبى ، ونتيجة للتحدى الذى واجهت نفسى به ، أعرض اليوم على حضرتكم سريعا ، الحقائق التى انتهيت إليها : هذا العدد الهائل من الكتب لم يكن فى إسبانيا الإسلامية سهلا وممكنا فحسب ، ولكنه واقع إيجابى : نعم كانت بين يدى المسلمين الإسبان مليونان من المخطوطات ، ولكنى مع هذا لا أستطيع القول ، اعتمادا عليها وحدها ، أنهم كانوا أعظم شعوب العالم ثقافة ، لأن امتلاك كتب كثيرة لا يتطلب بالضرورة درجة بالغة فى رقى التعليم . كم من العلماء كنا سنشهد لو أن الكتاب وحده كاف فى تكوين العالم !

أما أنه كان فى إسبانيا الإسلامية مليونان من المخطوطات فواقع يمكن البرهنة عليه ، وحتى فى جلاء ووضوح ، وفيما أرى فإن إسبانيا الإسلامية تجاوزت بمسافات بعيدة ما وراء حدود الهمجية .

- **أسباب انتشار الكتاب بين العرب :**

عندما بدأت عملى فى هذا النطاق كان مفاجأة مدهشة لى ، وجميلة أيضًا ، أن أجد معلومات أوفر بكثير جدًا مما أملت فى البدء ، حتى أن الشك ساورنى فى هذه المعلومات التى أوردها المؤرخون ، فقد صور هؤلاء هذه الهواية على أنها شائعة ومتأصلة ، وتولد الشك عندى فيما إذا كان هؤلاء الأندلسيون قد وقعوا ضحية المبالغة فى القول ، ولكن المعلومات وفيرة ، ومن عصور مختلفة ، وأوردها أناس أديانهم متغايرة . واتجاهاتهم متنافرة ، وليس لهم غايات معينة فيما يتصل بالموضوع ، وكانوا مجمعين ، فأخرسوا

شكى ، وقضوا على ترددى ، وأعترف مع ذلك أن اقتناعى بهم لم يكن حاسما إلى أن وجدت لهذه الوقائع تفسيرًا ، فبدا لى كل شىء طبيعيا ، ولأن التردد سيحدث لكم أيضًا ، اسمحوا لى أن أطلب منكم سلفًا ألا تظنونى مبالغا فى تصوير الأمر ، أو فيما أورد من معلومات .

لكن نفسر إحدى هذه المغامرات التاريخية الصعبة ، أقدم لكم ظاهرة نادرة فى الكتابة عند الأمة العربية ، لقد كان العرب فى البدء قبائل شتى ، صغيرة ومتفرقة ، تعيش على الرعى فى الجانب الأكبر منها ، دون أن تكون نواة لشعب يستأهل اسما محددا ، وليس لهم موطن ثابت . وإنما مهابطهم أرض الجزيرة العربية كلها ، قاحله وجرداء ، وحرمت من الماء أنهارا مهما كانت صغيرة ، وأمطارا مهما كانت ضحلة ، وتحكمهم عادات بدائية تقريبا ، لا تكاد تعكس شيئًا من تأثير الحضارات التى قامت وازدهرت حول بلادهم ، ومع ذلك ، كان لهم أبجديتهم ، وكتابة تميل إلى الاستدارة ، مما لا يوجد إلا عند الشعوب ذات الحضارات العريقة ، حيث أدت مطالب التجارة ، وضرورات الاتصال ، إلى اختراع الكتابة ، أو استعارتها ، وشيوعها . ولحسن الحظ فإن هذا الواقع حقيقة ثابتة ، ليس ثمة وسيلة للشك فيها أو نكرانها ، وتتمثل كتابتهم فى سطور تجىء متوالية ، دون أن تدرك ما فيها من التواءات ، ولا تجد لها شبيها فى الكتابات الأخرى ، رومانية أو إغريقية أو عبرية ، فقط يمكن أن نوازن بها كتابة الآلة الكاتبة الحديثة ، وهى كتابة مقطعية ، ونصف الحروف لا يكتب[1] ، ويعتمد الكاتب فيه على فطنة القارىء ، وأنها تعرف دائما إدراك الخلل وسده . واسم من أربعة مقاطع أو خمسة مثلا ، يرسم فى سرعة فائقة ، وباختصار شديد ، ويأخذ من الزمن ما ننفقه نحن فى رسم حرف صامت واحد من حروفنا ، فاسم محمد مثلا لا تكلف كتابته كلها كثيرًا فى العربية ، إلا بمقدار ما يكلفنا رسم الحرف الأول منه فحسب ، إذا كتبناه فى حروفنا اللاتينية Mohammed، وإذا وضعنا هذه الكتابة المستديرة فى خط مستقيم ، فإن الكلمة العربية تشغل بالكاد هذا المسافة : ـــــ ، على حين أن الكلمة نفسها تشغل فى أبجديتنا هذه المسافة : ـــــــــــ .

ليس من الغريب إذن أن نجد الناسخ العربى يكتب أكثر من قرينه فى اللغة اللاتينية ، وبالتالى فهو ، مع تساوى الأجر اللاتنين ، يعطى من الإنتاج أربعة أمثال ما يعطيه الكاتب

---

(١) يشير إلى الشكل ، وهو يمثل فى اللغة اللاتينية جزءا من بنية الكلمة ، لاتكتب بدونه ، ولاتفهم أيضًا . « المترجم » .

فى لغتنا ، أى أن اليد العامة فى ضوء هذه الظروف أرخص أربع مرات فى مجال النسخ ، عند العرب ، مما عليه عندنا .

ومن جهة أخرى فإن الشعوب فى القديم ، وفى أوربا على امتداد كل العصر الوسيط تقريبًا ، كانت تستخدم ورق البردى المصرى في الكتابة ، أو الرق ، وهى مواد كانت غالية الثمن فى الأسواق دائما ، إما لندرتها ، أو لتكاليف إعدادها . أما العرب فقد استخدموا الورق منذ زمن مبكر جدا ، وضاعفت المصانع من إنتاجه ، حتى أنه أزاح البردى القديم عن الاستعمال ، وقلل إلى حد كبير من استخدام الرق ، ولهذا السبب ، ولأنهم وحدهم الذين أفادوا على نطاق واسع من الاختراع ، أمكنهم أن يقللوا من تكاليف الكتب ، وأن يجعلوها أرخص ثمنا . ويمكن أن نتخذ من التطور الذى جاءت به آلات الطباعة الحديثة ، وتضخم إنتاج الكتب إلى حد كبير ، والتجارة فى الكتب والمكتبات ، نموذجًا لتكوين فكرة عن التأثير الذى يمكن أن يكون قد أحدثه استخدام الورق ، وسرعة الكتابة عند المسلمين . يقول ابن خلدون :

« . . . وكانت السجلات أولا لانتساخ العلوم ، وكتب الرسائل السلطانية والصكوك ، فى الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد ، لكثرة الرفه ، وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك ، فاقتصروا على الكتاب في الرق تشريفا للمكتوبات ، وميلا بها إلى الصحة والإتقان ، ثم طما بحر التدوين والتأليف ، وكثر ترسيل السلطان وصكوكه ، وضاق الرق عن ذلك ، فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد وصنعه ، وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه ، واتخذه الناس من بعده صحفا لمكتوباتهم السلطانية والعلمية ، وبلغت الإجادة فى صناعته ما شاءت »[1] .

وفضلا عن ذلك ، فإن طريقة الحياة الخاصة بالشعوب الإسلامية جعلت الكتابة الوسيلة الوحيدة للتربية ، وهو ظرف ليس جوهريا كالأسباب التى سبقت ، ولكنه كاف وحده إذا لم يكن ثمة سبب آخر ، فقد كان المسلمون يختلفون عن غيرهم ، مثلا : كان لدى الإغريق مجالسهم السياسية ، ويستطيع الشعب عن طريقها أن يحيط علما بكل ما يجرى فى قضاياه العامة ، ومسارح تمثل عليها الحياة الإنسانية فى كل جوانبها ، ومجامع علمية تدرس العلوم ، وتناقش كل قضاياها علنا ، وتقف من العالم كله موقف الأستاذ

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٢١ ، طبعة المكتبة التجارية .

تعلمه ماذا يجب عليه أن يحب أكثر ، ولم يكن المسلمون يستمتعون بشيء من هذا ، ومن ثم لم يتطور بينهم فن الخطابة السياسية ، لأن الفرصة لم تتح لهم لاستخدامها ، ولا الخطابة القضائية ، لأنه لم تكن هناك محاكم ولا محلفين ، ولا الخطابة المجمعية ، لأن الحوار العقلي الذي يعتمد على العقل كان قليلا ، ولا ينظر إليه بعين الرضا . وكل ما هنالك أن الخطابة الدينية بالكاد استطاعت أن تنمو قليلا ، وجاء تكوينها رديئًا ومتقلبا نتيجة الوحدة الحزينة التي ولدت فيها وشبت ، وانحصرت حياة الشعب الأدبية كلها في قص الحكايات الخيالية والأسطورية في الأسواق وسماعها وقراءة الكتب في المساجد ، ونتيجة لها كانت **ألف ليلة وليلة** الجنس الأدبي المحبب لهم ، واللامع بينهم . ومن هنا أصبح العرب أكثر الشعوب القديمة حبا للكتب ، لأنها الوسيلة الوحيدة للتربية عندهم ، فضلا عن رخصها .

ولم ينتشر حب الكتب بهذه الطريقة في كل البلاد التي انتشر فيها الإسلام ، ولم تظهر جميعها التوتر نفسه ، وإنما بدأ ذلك واضحا بين الشعوب التي ازدهرت فيها الحضارات القديمة ، ولهذا كان الفرس والمصريون والإسبان دائما الأكثر ثقافة بين المسلمين ، وبينهم ظهر أعظم عشاق الكتب ، ولست أعرف أي هذه الشعوب يأتي في المقدمة ، ولكن لدينا من الأسباب ما يجعلنا لا نتنازل عن المكانة الأولى ، على الأقل ، حين تصبح موطن منافسة ، ففي إسبانيا نما حب الكتاب وازدهر ، وبلغ الغاية ، ويثير إعجابا حقيقيا .

● إدخال الكتب المشرقية إسبانيا :

في أيام الفتح الأول انحصر عدد المسلمين في شبه الجزيرة الإسبانية في الجاليات العسكرية التي كانت تحتل المدن والقلاع القوية ، لكي يخضعوا الأرض التي احتلوها ، وتميزت الكتب والتعليم بغيابهما ، وكل ما هنالك أن المسيحيين احتفظوا بتقاليدهم اللاتينية في نفس لغة أسلافهم ، ولكن عندما ارتفع عدد الذين اعتنقوا الإسلام ، وتطلبت حاجة الدولة رجالا تعمقوا في دراسة الشريعة الإسلامية ، بدأنا نلحظ طلائع استيراد الكتب والمعرفة من المشرق ، ولو أنها كانت قليلة ومحدودة ، وانحصرت في العلوم الفقهية والدينية . ويشير أصحاب كتب التراجم إلى كثيرين من هؤلاء الذين أدخلوا الكتب المشرقية إلى إسبانيا ، وإلى كثير من كتب الأدب المشرقية الشهيرة ، ويذكرون أي العلماء جاء بها إلى إسبانيا .

لقد رحل **جودى بن عثمان** مولى بنى أمية ، ومن أهل موررور ، وأصله من طليطلة ، إلى المشرق ، ولقى الكسائى والفراء ، وكان **أول من أدخل كتاب الكسائى إلى الأندلس** وكانت له حلقة ، وأدب أولاد الخلفاء ، وظهر على من تقدمه[1] . وأدخل **عيسى بن دينار** كتب الفقه المالكى[2] ، وكانت الفتيا تدور عليه فى وقته لايتقدمه أحد . وأدخل محمد بن عبد السلام القرطبى الأندلسى كثيرًا من حديث الأئمة ، وكثيرًا من **كتب اللغة رواية عن الأصمعى** ، وكثيرًا من **الشعر الجاهلى** ، وكان فصيح اللسان ، جزل المنطق ، ضربًا من الأعراب ، صارما أنوفا ، منقبضًا عن السلطان ، وأراد الأمير محمد أن يوليه منصب قاضى الجماعة فأبى[3] .

ورحل **قاسم بن ثابت** السرقسطى مع أبيه فسمع بمصر وبمكة ، واعتنى بجمع الحديث واللغة هو وأبوه ، فأدخلا إلى الأندلس علما كثيرًا ، ويقال أنهما أول من أدخل كتاب « العين » إلى الأندلس ، « وكان قاسم عالما بالحديث واللغة ، متقدما فى معرفة الحديث والنحو والشعر ، وكان مع ذلك ورعا ناسكا ، وأريد على القضاء بسرقسطة فأبى »[4] ورحل عثمان **بن المثنى** من أهل قرطبة ، إلى المشرق فلقى جماعة من رواة الغريب ، وأصحاب النحو والمعانى ، **وقرأ على حبيب بن أوس** المعروف بأبى تمام ، ديوان شعره ، وأدخله إلى الأندلس رواية عنه ، وأدب أولاد الأمير عبد الرحمن الثانى ، وعمر إلى أن بلغ تسعا وتسعين سنة[5] ، وأدخل **محمد بن عبد الله بن الغازى بن قيس** ، من أهل قرطبة ، الأندلس علما كثيرًا من **الشعر** ، **والغريب** ، **والخبر** ، وعنه أخذ أهل الأندلس الأشعار المشروحة كلها رواية[6] . وأحضر **أحمد بن محمد بن هارون البغدادى كتب بن قتيبة** ، **وبعض كتب الجاحظ** رواية ، وانصرف إلى المشرق بعدما تردد فى الأندلس أعوامًا ، واستوزر بعد ذلك هناك[7] .

(١) التكملة لابن الآبار ، الترجمة ٦٥٩ ، طبعة مصر .
(٢) ابن القرضى ، الترجمة ٧٧٦ طبعة الدار المصرية .
(٣) المصدر السابق ، الترجمة ١١٣٤ .
(٤) نفخ الطيب ، جـ٢ ص ٤٩ ، طبعة إحسان عباس .
(٥) ابن الفرضى ، الترجمة ٨٩١ ، طبعة الدار المصرية .
(٦) المصدر السابق ، الترجمة ١١٥٢ .
(٧) المصدر نفسه ، الترجمة ٢٠١ .

وبعضهم أدخل كتبا استقبلت بعدم الحفاوة ، **فابن هلال** ، عبد الله بن محمد بن قاسم ، دخل العراق ، ولقى **داود الظاهرى** ، **وكتب عنه كتبه كلها** ، **وأدخلها الأندلس** فأخلت به عند أهل وقته » ، « وكان علم داود الأغلب عليه ، ونظر فى علم مالك نظرًا حسنا غير أنه كان يميل إلى علم داود والحجة »[1] ورحل **أيوب بن سليمان** ، **وهو من نسل إليان القوطى** ، **إلى المشرق** ، **ودخل العراق** ، **وأدخل الأندلس كثيرًا من كتب العراقيين** ، وكان مائلا فى مذهبه إلى الحجة ، لهجًا بالنظر لا يرى التقليد ، وله وجاهة بعلمه ، وشرف أوليته ، المأثور بدخول الاسلام أرض الأندلس على يد جده إليان ، ولكن الناس أعرضوا عن كتبه ، لأنها موضع الشك منهم ، فلم يحدث بها أحد غير ابنه[2] . والجدل والنقاش الذى ثار حول **مسند بن أبى شيبة** ، الذى أدخله **بقى بن مخلد** معروف[3] ، ولم يكن إدخال الكتب وقفا على العلماء من الخاصة فحسب ، وإنما جاء بها بعض أفراد الأسرة المالكة القرطبية أيضًا ، فقد رحل حبيب بن الوليد ، وينحدر من الأسرة الأموية المالكة ، ويلقب **بدحون** ، ولقى أهل الحديث فى المشرق ، وكتب عنهم ، وقدم الأندلس بعلم كثير[4] . وكان **ابن الأحمر** ، محمد بن معاوية ، وينتسب فى الأسرة الأموية كسابقه ، أول من أدخل الأندلس **مصنف النسائى فى السنن** ، وحدث به ، وانتشر عنه[5] .

وجاء بالكتب أيضًا التجار والرحالة الذين لا يستهدفون فى رحلاتهم طلب العلم ، اشتروها فى المشرق ، وجاءوا بها إلى إسبانيا تجارة وطلبا للربح ، أو ليهدوها إلى الرجال المتعلمين مثل ما فعل **أبو بكر الدينورى** ، أحمد بن الفضل[6] **وابن يقى الجذامى التاجر** ، أحمد بن خالد ، وأدخل الأندلس كتبا غريبة تفرد برواياتها فسمعها

(١) المصدر السابق ، الترجمة ٦٥٥ .

(٢) نفس المصدر ، الترجمة ٢٦٨ .

(٣) انظر ص ٣٢ من هذا الكتاب .

(٤) التكملة لابن الآبار ، الترجمة ٧٣٨ ، طبعة مصر .

(٥) الضبى ، البغية ، الترجمة ٢٧١ ، طبعة مدريد .

(٦) ابن الفرضى ، الترجمة ٢٠٣ ، طبعة مصر .

الناس منه قديما وحديثًا ، ولم يكن له فهم ، ولا يقيم الهجاء إذا كتب ، غير أنه كان رجلا صدوقًا[1] . وكان محمد بن عبيد الله بن أيوب يتعاطى عمل الديباج ، فلذلك عرف **بالدباج** ، وله رحلة إلى بغداد ، وكانت كتبه بخط الوراقين ، وهو ثقة[2] .

وبعضهم بدل أن يجمع الكتب ليبيعها كان يحرص عليها كواحد من عشاقها المولهين ، فقد كان **عبد الملك بن حبيب** « جماعا للعلم ، كثير الكتب ، طويل اللسان ، فقيها ، نحويا ، عروضيا ، شاعرا ، نسابة ، إخباريا . وأكثر من يختلف إليه الملوك وابنائهم »[3] . « وكان **هاشم بن خالد** حسن العناية بالكتب ، جامعا لها ، ضابطًا لما روى منها »[4] . **ورحل موهب بن عبد القادر الباجي** إلى المشرق ، وجمع وقر جمل من الكتب ، ومن بينها تاريخ أبي البشر الدلابي فى المولد والوفاة ، وكتاب العين ، وتوفى منصرفه من مصر بموضع يقال خربة الطوب ، ووصل كثير من كتبه باجة مع قوم من أهلها كانوا معه[5] .

وآخرون كانوا يوقفون كتبهم على المساجد لصالح الطلاب ، أو فى بيوتهم الخاصة ، أو بيوت من يثقون فيه ، وقد أوقف **هارون بن سهل القرطبي** كتبه ، وأودعها عند أحمد بن خالد[6] .

وعندما بدأ الإسبان يعتنقون الدين الإسلامى غمرتهم حماسة المبتدىء ، فاندفعوا بعزم قوى إلى دراسة اللغة الجديدة ، والعقيدة الجديدة ، وأخذت الموجة تتزايد مع الزمن ، وتشتد وتتضح ، وأصبحت الرغبة فى القراءة عامة وقوية . وهذا التقدم نحو الأمام ، وكان فى البدء بطيئًا ومترددًا ، ثم اشتد وقوى فيما بعد ، عانى من الأضطراب والتذبذب ، وكانت الإمبراطورية الأموية تعانى منه ، إلى أن جاء عبد الرحمن الناصر العظيم ، وكانت

---

(١) المصدر السابق ، الترجمة ١٨٦ .

(٢) المصدر السابق ، الترجمة ١١٩٩ .

(٣) ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ٣ ، ص ٥٤٨ ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .

(٤) ابن الفرضى ، الترجمة ١٥٣٦ . طبعة الدار المصرية .

(٥) المصدر السابق ، الترجمة ١٤٨٥ .

(٦) لمعرفة الذين حملوا الكتب المشرقية إلى إسبانيا تفصيلا ، فى فرع من فروع المعرفة ، يمكن الرجوع إلى فهرسة ابن خير ، فى كل فصل من الفصول التى أوقفها على هذه العلوم ، فى طبعة مدريد أو القاهرة ، وهذه الأخيرة تصوير للأولى .

لديه الشجاعة ، وواتاه الحظ ، فقضى على كل الثائرين ، أو حاصرهم ، وأرسى قواعد الدولة على أسس متينة وراسخة .

● مكتبات قرطبة :

وآتى السلام والنظام ثماره الطبيعية ، وشغلت التجارة والصناعة مكان السلاح ، وقويت سلطة الدولة ، وتجلى الازدهار الاقتصادى فى الثروات الخاصة ، وفى الوقت نفسه بدأت الأموال تتدفق على بيت المال ، وفى ظل إدارة ماهرة ، على نحو لم يعرفه قبلها يوما .

وقد أحست قرطبة قبل غيرها ، بوصفها عاصمة ، بهذه النتائج ، فامتدت دائرة عمرانها ، وتعددت الأرباض حولها واتسعت ، وأصبح سكانها يكونون جزءا منها ، وشاع بناء القصور ، واتخاذ الحدائق ، وامتلاك المنيات للراحة ، أو البيوت الريفية بتعبير آخر ، تزين شواطئ الوادى الكبير ، إلى جانب الأسواق النافقة ، والمقابر المنسقة ، والمساجد العامرة ، وكلها ضاقت بما أدى إليه العمران والازدحام ، وأضيئت الشوارع ، وانتشرت النوافير ، وعرفت ما يتطلبه كل هذا من انتشار رجال الشرطة فى المراكز الكبرى فى المدينة .

وأصبح ممكنا بفضل ثراء بيت المال إنشاء القنوات والجسور ، ورصف الطرق ، وأتاح لعاهل قرطبة ترف تشييد مدينة الزهراء الرائعة ، فى سطح جبل تلك المدينة الملكية ، وعمل فيها آلاف العمال دون انقطاع ، جيء بهم من مناطق عديدة ، من جليقية ، وبيزنطة ، والمشرق ، لبناء هذه القصور الجميلة ، .لخلفاء بنى أمية فى إسبانيا ، واحتلت مكانا مرموقا من التاريخ[1] .

وجذب إليها ضجيج الشهرة أكثر العلماء علما ، وأشد الطلاب ذكاء وحرصا ، جاءوا من المقاطعات المختلفة ، ومن خارج إسبانيا ، وجاء معهم أمهر النساخين ، وأذكى الوراقين ، وأغنى التجار ، وتعاون الجميع على أن يجعلوا من قرطبة سيدة التجارة والصناعة ، إلى جانب أنها العقل المفكر لمقاطعات الغرب فى نفس الوقت ، وتلقت صناعة الكتاب ، وهواية الكتب ، وبدأت تزداد مع اتساع التعليم انتشارا ، دفعة جديدة قوية بإقامة مصانع الورق فى طليطلة وشاطبة .

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن مدينة الزهراء انظر : فون شاك ، الفن العربى فى إسبانيا وصقلية ، ص ٤٢ ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٨٠ . (المترجم) .

ولكى لا نفقد وعينا أمام تنوع المكتبات وعشاق الكتب ، وكثرة عددهم فى قرطبة ، فى تلك الأيام ، سوف نقنع بزيارة عاجلة لأهمها ، وتأتى المكتبة الملكية فى المقام الأول ، لأهمية صاحبها ، وقيمتها ، وأهميتها ، وأعداد الكتب التى كانت بها .

● **مكتبة بنى أمية :**

أظهرت الأسرة الأموية الملكية فى إسبانيا حبها للتعليم منذ عبد الرحمن الداخل أول أمير لها (٧٥٥ – ٧٨٨م) ، وكان عبد الرحمن نفسه أميرا وشاعرا ، ونعرف بين أحفاده الذين ارتقوا عرش الإمارة من بعده من اهتموا حتى بالفلسفة ، وكانت شيئا غير محبب إلى رعاياه . وفى عهد الأمير **محمد الأول** (٨٥٢ – ٨٨٦م) بدأ المؤرخون يشيرون إلى المكتبة الملكية كواحدة من خير مكتبات قرطبة ، واشتهر عبد الرحمن الناصر العظيم نفسه بحب الكتب ، وبلغت شهرته الخافقين ، ووصلت حتى **بيزنطة** ، وحين أراد إمبراطورها قسطنطين السابع أن يستميل الخليفة الأندلسى لحاجة فى نفسه ، فكر أن يهدى عبد الرحمن الناصر أحب شىء إلى قلبه ، كتابا جديدا لم يعرفه من قبل ، فأرسل إليه كتاب ديوسقوريديس فى الطب « مصور الحشائش بالتصوير الرومى العجيب ، وكان الكتاب مكتوبا بالإغريقى الذى هو اليونانى » ، فى مجلد رائع ، وكتب بحروف مذهبة ، وزين بالرسوم الجميلة للأشجار التى ورد ذكرها فى الكتاب . ولم يكن العاهل الأندلسى يعرف الإغريقية ، ولم يجد شخصا متخصصا فى هذه اللغة يقوم بترجمته له ، فطلب من الإمبراطور البيزنطى أن يرسل له عالما من عنده ، عارفا بلغته وبالعربية ، ليقوم بترجمة الكتاب ، فأرسل له من القسطنطينية الراهب **نيقولا** ، الذى وضع نفسه فى خدمة الخليفة بمجرد أن وصل قرطبة .

ومع ذلك يجب أن نضيف أن أبا عبدالله الصقلى ، وآخرين من كبار الأطباء المسلمين واليهود فى قرطبة، كان يتحدث اللغة الإغريقية، ويعرف من خلال دراساته العميقة كل الأسماء التى وردت فى كتاب ديو سقوريدس، باستثناء عدد منها لا يزيد على عشرة ونيف[1] .

---

(١) ليكليرك : تاريخ الطب العربى ، جـ١ ص٤١٩ .

● يبدو أن مهمة نيقولا كانت تحديد أنواع النبات فحسب ، فقد كان فى قرطبة من يعرف اليونانية غير أبى عبد الله الصقلى ، مثل : محمد النباتى ، والبسباسى ، وأبى عثمان الخزار ، الملقب باليابسة ، ومحمد بن سعيد ، وعبد الرحمن بن اسحاق بن الهيثم ، وحسداى بن شبروط ، وكلهم من الأطباء . والحق أن الكتاب كان قد ترجم مرتين فى المشرق ، الأولى صنعها اصطفن بن باسيل ، على أيام الخليفة المتوكل العباسى ، والثانية قام بها حسان الناتلى أستاذ ابن سينا سنة ٣٧٤هـ – ٩٨٥م ، ولكن إسبانيا الإسلامية فيما يبدو لم تكن عرفت أيا منهما . (المترجم) .

وفى ذلك الوقت بدأ اثنان من أبناء عبد الرحمن الناصر ، وهما : الحكم ومحمد ، دراستهما تحت إشراف مؤدبين من إسبانيا أو الشرق ، واستيقظت هوايتهما للكتب فى قوة ، حتى أن مكتبة والدهما لم تعد تشبع نهمهما ، وتنافس كلاهما : أيهما يستطيع أن يسبق الآخر فى تكوين مكتبة أدق اختيارا وأكثر عددا . وبعد فترة توفى الأمير محمد ، وورث أخوه الحكم مكتبته ، وبوفاة عبد الرحمن الناصر والدهما أخذ الحكم مكتبته ، وجمع الثلاث فى واحدة ، وأصبحت هذه مكتبة القصر ، وكان أسلافه من قبله قد أحاطوها بكل رعايتهم .

وكان يعمل فى مكتبة القصر ، دون توقف ، أمهر المجلدين فى إسبانيا ، إلى جانب آخرين جئ بهم من صقلية وبغداد ، ومعهم جمهرة من الفنانين : رسامين ، ومزوقين ، ومنمقين ، ويزخرفون الكتب بالصور الجميلة ، بعد أن نسخها أدق الخطاطين ، لتقديمها إلى لجنة من كبار العلماء تقوم بمعارضتها وتصحيحها ، وتدفع لهم الدولة مرتباتهم فى سخاء .

وبين هؤلاء العلماء من أصحاب الثقافة الواسعة ، الذين كانوا يعملون فى خدمة الحكم الثانى لمراجعة الكتب ومعارضتها وتصحيحها : الرباجى ، محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدى النحوى ، وهو أصلا من جيان ، واستقر فى قرطبة ، وكان فقيها ، إماما موثوقا ، جيد النظر ، دقيق الاستنباط ، حاذقا بالقياس ، نظر الناس عنده فى الإعراب ، وأدب عند الملوك ، واستأدبه الناصر رضى الله عنه لابنه المغيرة ، وأوسع له الحكم فى الجراية[1] .

وكان من بينهم أيضا الأديب اللغوى محمد بن أبى الحسين الفهرى القرطبى ، وهو ناسخ ووراق ، « وتقدم فى حفظ الأدب والعلم باللغات » ، وتولى مع محمد بن معمر الجيانى تهذيب ما لم يهذبه أبو على القالى من كتابه البارع فى اللغة » ، وابتدأ فى تأليفه سنة تسع وثلاثين[2] وثلاث مئة هجرية ، إلى أن توفى لسبع خلون من جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وثلاث مئة ، وصحح منه كتاب الهمزة وكتاب العين[3] فقط ، وتوليا هما الباقى ، فاستخرجا الصكوك والرقاع ، وقاما على

(١) ابن الفرضى ، الترجمة ١٢٩٢ ، طبعة الدار المصرية .

(٢) فى التكملة لابن الأبار ، الترجمة ١٠١٤ سنة خمسين ، وأراه وهم منه . « المترجم » .

(٣) كلمة كتاب تعنى هنا «فصل» فى التأليف الحديث. «المترجم».

« تهذيبه من أصوله التى بخطه ، وخطهما مما كتبا بين يديه » فلما كمل الكتاب ، « خرج بخط فصيح فى مائة وأربعة وستين جزءا ، عدد أوراقها أربعة آلاف وأربع مائة وست وأربعون ورقة » ، وارتفع إلى **الحكم المستنصر** ، فأراد أن يقف على ما فيه من الزيادة على النسخة المجتمعة عليها من كتاب **العين للخليل** بن أحمد ، فجاءت نيفا وأربع مئة ورقة ، تتضمن خمسة آلاف وست مئة وثلاث وثمانين كلمة ، « بما وقع فى العين مهملا فأملاه مستعملا ، ومما قلل فيه الخليل فأملى فيه زيادة كثيرة ، ومما جاء دون شاهد فأملى الشواهد فيه »[1] .

واشتهر كناسخ ووراق ، وتميز بين من يعملون فى خدمة العاهل الأموى : **عباس بن عمرو بن هارون الصقلى** ، قدم الأندلس ، واتصل بالحكم ولما يزل وليا للعهد ، فتوسع له فى الرزق ، **وصار من جملة الوراقين** ، وكان وسيما حليما ، حسن الحكاية ، بصيرا بالرد على أصحاب المذاهب ، عالما بالكلام ، حافظا للأخبار، وكان هذا الفن أكثر علمه[2] . وكان **ظفر البغدادى**، وسكن قرطبة، **من رؤساء الوراقين المعروفين بالضبط وحسن الخط**، واستخدمه الحكم المستنصر فى الوراقة[3]وكان معه فى هذه المهمة **يوسف البلوطى** .

ومن الخطاطين الذين عملوا فى خدمة الحكم الثانى اشتهرت **لبنى** ، وكانت تعمل كاتبة له ، حاذقة بالكتابة ، نحوية شاعرة ، بصيرة بالحساب ، مشاركة فى العلم ، لم يكن فى قصرهم أنبل منها . وكانت عروضية ، خطاطة جدا[4] . **وفاطمة بنت زكريا بن عبد الله** ، الكاتب المعروف **بالشبلارى** ، مولى بنى أمية ، وكانت كاتبة جزلة ، عمرت كثيرا ، واستكملت أربعا وتسعين سنة ، **تكتب على ذلك الكتب الطوال** ، **وتجيد الخط** ، وتحسن القول[5] .

وكان **تليد الخصى** ، وهو من أكبر موظفى البلاد ، يعمل خازنا على المكتبة ، ومشرفا عليها ، وندين بجل معلوماتنا عنها له ، ومهمته أن يمدها بكل جديد ، ويتابع

---

(١) أحالنا المؤلف فى هذه الفقرة على : التكملة لابن الأبار ، الترجمة ١١٠١٤ ، طبعة مصر ، والبغية للضبى الترجمة ٩٤ ، ووجدت أنا معلومات لا بأس بها فى فهرسة ابن خير ، ص٣٥٤ ، فأضفتها إلى ما سبق . « المترجم » .

(٢) ابن الفرضى ، الترجمة ٨٨٦ .

(٣) التكملة ، الترجمة ٩٣٦ ، طبعة القاهرة . [ونفح الطيب ، جـ٣ ص١١١ ، طبعة احسان عباس] .

(٤) ابن بشكوال ، الترجمة ١٥٢٩ ، طبعة الدار المصرية .

(٥) المصدر السابق ، الترجمة ١٥٣٦ . والتكملة ، الترجمة ٢٣٤ ، طبعة مدريد .

فهارسها ، والحفاظ على كتبها ، وبلغت فيها ، طبقا لروايته نفسه ، أربع مئة ألف مجلد ، أى أكثر من مكتبتنا الجامعية اثنى عشر مثلا ، وكان الفهرس ، ولا يضم غير عنوان الكتاب واسم المؤلف ، من أربع وأربعين فهرسة ، فى كل فهرسة خمسون ورقة ، ليس فيها إلا ذكر اسماء الدواوين فقط . ولا نرى فى الأمر أية مبالغة ، خصوصا إذا أخذنا فى الحسبان أن هذه المكتبة تضم ثلاث مكتبات كبيرة ، « ولم يسمع فى الإسلام خليفة بلغ مبلغ الحكم فى اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والتهمم بها ، أفاء على العلم ، ونوه بأهله ، ورغب الناس فى طلبه ، ووصلت عطاياه وصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية عنه ، ومنهم : أبو اسحاق محمد بن القاسم بن شعبان بمصر[1] ، وأبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندى وغيرهما ، جرى ذكر هذا فى كتبهم وتواريخهم » .

« وبعث إلى **أبى الفرج الاصفهانى** القرشى المروانى ألف دينار عينا ذهبا ، وخاطبه يلتمس منه نسخة من كتابه الذى ألفه فى **الأغانى** ، وما لأحد مثله ، ووصل بذلك المال رحمه ، إذ كان قسيمه فى المروانية ، ومن ولد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين بالمشرق ، فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق ، أو ينسخه أحد منهم » .

« وألف له أيضا أنساب قومه بنى أمية موشحة بمناقبهم وأسماء رجالهم ، فأحسن فيه جدا ، وخلد لهم مجدا ، وأرسل به إلى قرطبة ، وأنفذ معه قصيدة حسنة من شعره — وكان محسنا — يمدحه بها ، ويذكر مجد قومه بنى أمية وفخرهم على سائر قريش ، فجدد له عليه الصلة الجزيلة » .

« وكان له وراقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف . ورجال يوجههم إلى الآفاق باحثين عنها ، ومن وراقيه ببغداد محمد بن طرخان ، ومن أهل المشرق والأندلس جماعة ، وكان مع هذا كثير التهمم بكتبه ، والتصحيح لها ، والمطالعة لفوائدها ، وقلما تجد له كتابا كان له فى خزانته إلا وله فيه قراءة ونظر ، من أى فن كان من فنون العلم : يقرؤه ويكتب فيه بخطه ، إما فى أوله أو آخره أو فى تضاعيفه ، نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به ، ويذكر أنساب الرواة له ، ويأتى من ذلك بغرائب لا تكاد توجد

(١) ابن شعبان من كبار المالكية فى مصر فى أواخر العصر الإخشيدى ، وأصله أندلسى من قرطبة ، وقد أرسل إليه عبد الرحمن الناصر عشرة آلاف دينار ليفرقها فى شيوخ المالكية ، فأخرج الأخشيد مثلها ليفرقها فى شيوخ الشافعية ، وكان يرجو الله أن يميته قبل دخول الفاطميين مصر ، فمات قبل ذلك بثلاث سنوات .

إلا عنده ، لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن ، وكان موثوقا به ، مأمونا عليه ، صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم ، ينقلونه من خطه ، ويحاضرون به »[١] .

وشاع بين رعايا الحكم الثانى أن أقصر الطرق إلى قلبه ، وأفضل وسيلة لإقناعه « واستمالته للحصول على خير ، أو بلوغ منصب ، أن تقدم له كتابا ليس عنده فى مكتبته ، ولهذا أخذ العلماء يخصونه بمؤلفاتهم ، أو يهدون إليه نسخا من كتب نادرة ، ونجد ذلك حتى بين الأساقفة المسيحيين فى قرطبة ، فقد ألف الأسقف **ربيع بن زيد** ، واسمه فى اللاتينية رثموندو **Recemundo**،كتاب الأنواء ، واشتهر باسم تقويم قرطبة ، وأهداه إلى الحكم الثانى ، وهى كتاب طريف ومثير ، ولحسن الحظ وصلنا كاملا ، واشتهر بيننا ، ونشر أخيرا[٢] .

من بين هؤلاء الذين أخذوا طريقهم إلى قلب الحكم عن طريق الكتاب : **ابن مفرج القرطبى** ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى ، وكان سكناه بقرطبة بقرب عين فنت أورية Fonteàurea ، رحل إلى المشرق عام ٣٧٣هـ ، وطاف بكثير من مدنه ، ولقى كثيرا من علمائه ، وبلغت عدة شيوخه إلى مئتين وثلاثين شيخا ، وعاد إلى الأندلس من رحلته عام ٣٤٥هـ ، واتصل بالحكم المستنصر ، وصارت له عنده مكانة ، وألف له عدة كتب ، واستقضاه على مدينة إستجة ، ثم على المرية ، وهو محدث ، حافظ جليل ، صنف كتبا فى فقه الحديث ، وفى فقه التابعين ، بصير برجال الحديث ، صحيح النقل ، جيد الكتابة على كثرة ما جمع ، من أغنى الناس

(١) ترد هذه المعلومات متناثرة فى عدد من كتب الأدب والتاريخ الأندلسى ، ولكن نص ابن الابار ، فى الحلة السيراء ، جـ١ ص٢٠٢ – ٢٠٣ ، طبعة القاهرة ، أكملها وأوضحها وأغناها تفصيلا ، وأحالنا المؤلف عليه ، فجئت بالنص كاملا . « المترجم » .

(٢) عثر جييرمو ليبرى على نسخة من الترجمة اللاتينية لتقويم الأسقف ربيع بن زيد ، فنشرها ذيلا على كتابه المسمى : تاريخ العلوم الرياضية فى إيطاليا ، ونشره فى باريس عام ١٨٣٨ . وعثر دوزى على تقويم عريب بن سعد ، ووضعه عام ٣٤٩هـ – ٩٦١م فى مخطوطة عربية اللغة ، ولكنها مكتوبة بحروف عبرية ، واستطاع أن يقرأها ، وأن يستخرج منها النص العربى ، وسماه تقويم قرطبة لسنة ٩٦١م ، وقارن بين هذا النص ، وتقويم ربيع بن زيد ، وانتهى إلى أن تقويم ربيع ليس إلا ترجمة لاتينية لتقويم عريب ، مع بعض الزيادات .
وأيد هذه النتيجة عدد من علماء الاستشراق . انظر :

Simonet: Historia de los mozarabes de Espána, I, p. 612 ss. Madrid, 1903

Guillermo Libri: Histoir des Sciences mathématiques en Italie, Paris, 1838. Vol. I, p. 393 ss.

(المترجم)

بالعلم ، وأصحهم كتبا ، وأشدهم تتبعا لروايته ، وأجودهم ضبطا لكتبه ، وأكثرهم تصحيحا لها لا يدع فيها شبهة(1) .

ومنهم محمد بن حارث **الخشنى** ، من أهل القيروان ، وسكن قرطبة ، وألف للحكم كتبا كثيرة ، قيل أنها بلغت مئة ديوان ، وجمع له فى رجال الأندلس كتابا ، نقل عنه **ابن الفرضى** فى كتابه **تاريخ علماء الأندلس** ، ومنها مؤلفه القيم عن « **تاريخ قضاة قرطبة** » ، وقد نشرناه وترجمناه إلى اللغة الأسبانية(2) .

وكان **مطرف** بن عيسى الغسانى ، من غرناطة ، من أهل العلم والرواية للحديث ، طلب بالأندلس ، ثم رحل وحج واقتبس وجلب علما كثيرا ، وألف للخليفة الحكم الثانى كتابا سماه : « **المعارف فى أخبار كورة إلبيرة وأهلها وبوائرها وأقاليمها وغير ذلك من منافعها** » ، وهو كتاب حسن ممتع جدا(3) .

وأهداه **ابن فرج الجيانى** ، وهو وافر الأدب ، كثير الشعر ، معدود فى العلماء ، كتابه **الحدائق** ، [وعارض فيه كتاب **الزهرة لابن داود الأصفهانى** ، **إلا** أن ابن داود ذكر مئة باب ، فى كل باب مئة بيت ، وأورد ابن فرج مئتى باب ، فى كل باب مئتى بيت ، ليس منها باب تكرر اسمه عند ابن داود ، ولم يورد فيه لغير أندلسى شيئا ، فقال عنه **ابن حزم** : « أحسن الاختيار ما شاء ، وأجاد فبلغ الغاية ، فأتى الكتاب فردا فى معناه »] (4) .

وألف **محمد بن يوسف الوراق** كتابا ضخما فى مسالك أفريقية وممالكها ، وفى أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم كتبا جمة ، وألف أيضا فى أخبار تيهرت ووهران وتنس وسجلماسة ونكور والبصرة(5) ، وغيرها تواليف حسانا ، وأهداها للحكم ،

---

(1) نفح الطيب ، جـ2 ص218 ، طبعة إحسان عباس .

● فى الأصل قنت أورية ، وهو خطأ ، لأن الاسم ترجمة للفظ الإسبانى المذكور فى النص أعلاه . « المترجم » .

(2) ابن الفرضى ، الترجمة 1400 .

● صدرت طبعة ريبيرا فى مدريد عام 1914 . وأصدرت دار أجيلار طبعة ثانية منه فى الستينيات . وأصدرت الدار المصرية للتأليف والترجمة طبعة منه عام 1966 . « المترجم »

(3) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة 1367 .

(4) الضبى ، البغية ، الترجمة 331 .

(5) يعنى بصرة المغرب ، وكانت قرية من مدينة أصيلا . « المترجم » .

ومحمد هذا أندلسى الأصل والفرع ، آباؤه من وادى الحجارة ، ومدفنه بقرطبة ، وهجرته إليها ، وإن كانت نشأته بالقيروان[1] .

وعندما أراد الحكم الثانى القيام بإحدى غزواته فى شمال الأندلس عام ٣٥٢ هجرية عرض على ابن الصفار ، عبد الله بن محمد ، وكان مشهورا بالعلم والأدب أن يكون فى صحبته ، فاعتذر بضعف فى جسمه ، فقال الحكم لحاجبه أحمد بن نصر : قل له : إن ضمن أن يؤلف لى فى أشعار خلفائنا بالمشرق والأندلس مثل كتاب الصولى فى أشعار خلفاء بنى العباس أعفيته من الغزاة ، فخرج إليه أحمد بن نصر بذلك ، فقال : أفعل ذلك لأمير المؤمنين إن شاء الله ، فخيره الحكم بين أن يقوم بالتأليف فى منزله ، أو أن يكون فى دار الخلافه المطلة على النهر ، فاختار ابن الصفار هذه وقال : أنا رجل مورود فى منزلى ، وانفرادى فى دار الملك لهذه الخدمة أقطع لكل شغل ، فأجيب إلى ذلك ، وكمل الكتاب فى مجلد صالح ، وخرج الحاجب بالمجلد إلى الحكم قبل أن يعود إلى العاصمة فلقيه فى طليطلة ، وقدمه إليه ، فسر به سرورا عظيما[2] .

ولم يكن حب الحكم الثانى للكتب مظهريا ، يجمعها ويكومها فى خزانته ترفا ومباهاة ، وإنما كان يقرأها ويعلق عليها ، وهى تعليقات كانت موضع التقدير من العلماء ، والاستفادة منها فيما بعد ، فقد أشاع فيهم الثقة التى يستحقها عالم حجة ، وأتاحت له الظروف أن يبلغ حدا من المعرفة الواسعة ، والثقافة العريضة ، من المحال أن يبلغها أولئك الذين لا تتوافر لهم الوسائل التى توفرت له .

وكان المكان الذى تشغله المكتبة فى البدء ضيقا وفيه ترقد الكتب أكواما بعضها فوق بعض ، ولم تعد تتسع لكثير مما يرد إليها يوميا ، فأصبح ضروريا نقلها إلى مكان آخر مناسب لها ، وعمل فى هذا النقل عدد كبير من الأشخاص بهمة وحماسة ، واستمرت مهمتهم ستة أشهر كاملة .

وتقدم الكتب غير الشائعة لندرتها أو حجمها ، والمخطوطات القديمة المحترمة ، مادة طيبة يعمل فيها الخطاطون ومشهورو النساخين ، والفرصة ليست مواتية لذكرهم وتعدادهم ، وحسبنا أن نذكر أن عشاق الكتب المتأخرين الذين عرضوا لمكتبة الحكم

---

(١) نفح الطيب ، جـ ٣ ص ١٦٣ ، طبعة احسان عباس .

(٢) الضبى ، البغية ، الترجمة ٣٣١ .

الثانى يقولون عنها : إنها كانت تحفة لم يسبق لملك على وجه البسيطة أن ملكها ، أو زها بمثلها ، قبله أو من بعد[1] .

وتكوين هذه المكتبة لم يكن عملا فردا ومنعزلا ، إذ الحق أن الأسرة الملكية لم تصنع أكثر من السير على النهج الذى اختطه لنفسه الشعب القرطبى ، فلنحاول أن نزر – ولم لا ؟ – إحدى هذه المكتبات الشهيرة ، التى كانت عند الرعايا المسلمين ، ولتكن :

● **مكتبة ابن فطيس :**

صاحب هذه المكتبة ينتسب فى إحدى الأسر القرطبية الواسعة الثراء ، وكان يملك حيا بأكمله ، يقوم حول البيت الذى يسكن فيه ، ولكنه أمر بتشييد بناء خاص بالمكتبة ، رسمه المهندسون بفن ، وتستطيع من زاوية معينة أن تشاهد كل الرفوف ، والقاعة الأنيقة ، والسطح ، والجدران ، والشرفات ، والسجاد ، والوسائد الغالية ، وكلها خضراء اللون ، وهو يرمز إلى شرف الأسرة وعراقتها . وفيها نرى ستة من النساخ يعملون بهمة ، ولا يقبضون أجورهم مقاومة بالقطعة ، وإنما يتلقون رواتب ثابتة حتى لا تدفع بهم العجلة إلى الخطأ ، أو الإهمال ، أو عدم الدقة فى الكتابة ، وكان الخازن عليها من أذكى علماء المدينة فهما ، ويتولى ، طبقا لوظيفته ، فهرسة الكتب ، ونسخ ما يحتاج منها إلى مزيد من الدقة والعناية . وهذا الخازن هو : **أبو عبد الله بن معلى الحضرمى** ، وهو أصلا من باسة ، ولكنه استقر فى قرطبة ، وكان يسكن فى درب بنى فطيس ، ويتولى الخطابة فى مسجد الأسرة نفسها ، وموضع التقدير منهم .

[وكان **ابن فطيس** ، عبد الرحمن بن محمد بن عيسى ، نفسه « من جهابذة المحدثين ، وكبار العلماء والمسندين ، حافظا للحديث وعلله ، منسوبا إلى فهمه وإتقانه ، عارفا بأسماء رجاله ونقلته ، يبصر المعدلين منهم والمجروحين ، وله مشاركة فى سائر العلوم ، وتقدم فى معرفة الآثار والسير والأخبار ، وعناية كاملة بتقييد السنن والأحاديث المشهورة ، والحكايات المسندة ، جامعا لها ، مجتهدا فى سماعها وروايتها ، وكان حسن الخط جيد الضبط ، جمع من الكتب فى أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره ، مع سعة

---

(١) ذكر كتاب التراجم بعضا من هؤلاء النساخين والخطاطين .

أنظر مثلا : التكملة ، الترجمة ٣٢٨ ، والضبى ، الترجمة ٥٤١ ، وابن الفرضى ، الترجمة ١٦٣٤ ، ٤٤٦ ، وابن بشكوال ، الترجمة ٧٩٦ ، وغيرهم فى الطبعات الإسبانية .

الرواية والحفظ والدراية ، وكان يملى الحديث من حفظه فى مسجده ومستملٍ بين يديه ، على ما يفعله كبار المحدثين بالمشرق ، والناس يكتبون عنه »] .

[وتقلد قضاء الجماعة بقرطبة ، مقرونا بولاية صلاة الجمعة والخطبة ، مضافا ذلك كله إلى خطته العليا فى الوزارة ، فاستقل بالعمل ، وتولى الخطابة ، ولم يقصر فى شيء من عمله ، وكان مشهورا فى أحكامه بالصلابة فى الحق ، ونصرة المظلوم ، وقمع الظالم ، وإعزاز الحكومة ، وكان من أبناء الدنيا ، فلما ولى القضاء غير زيه ، ترك زى الوزراء ، وعاد إلى أخصر زى الفقهاء] .

« وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه للابتياع منه ، وبالغ فى ثمنه ، فإن قدر على ابتياعه وإلا انتسخه منه ورده عليه » . و « لا يعير كتابا من أصوله البتة ، وكان إذا سأله أحد ذلك وألحف عليه أعطاه للناسخ فنسخه ، وقابله ، ودفعه إلى المستعير ، فإن صرفه وإلا تركه عنده » . ولأن إنفاق الأموال لا يؤلمه ، ولا تنقصه ، وهوايته للكتب تأخذ كل يوم أهمية أكبر ، تجمعت لديه أعظم مكتبة فى قرطبة بعد مكتبة الخليفة .

[وكان من بين ما تضم مكتبته ، مما أورده لنا المؤرخون : « كتاب القصص والأسباب التى من أجلها نزل القرآن فى نحو مائة جزء ونيف ، وكتاب المصابيح فى فضائل الصحابة مائة جزء ، وفضائل التابعين لهم بإحسان مائة جزء وخمسون جزءا ، والناسخ والمنسوخ ثلاثون جزءا ، وكتاب الأخوة من المحدثين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخالقين أربعون جزءا ، وأعلام النبوة ودلالات الرسالة عشرة أسفار ، وكرامات الصالحين ومعجزاتهم ثلاثون جزءا ، ومسند حديث محمد بن فطيس خمسون جزءا ، ومسند قاسم بن أصبغ العوالى ستون جزءا، والكلام على الإجازة والمناولة فى عدة أجزاء ، وغير ذلك من تواليفه] .

وفيما بعد ، بسنوات ليست طويلة ، أمكن تقدير قيمة الكتب التى تحتوى عليها المكتبة ، عندما اضطرت ظروف الحياة التعسة أحفاده إلى تصفيتها ، فقد ظل السماسرة والدلالون يترددون على مسجد الأسرة فى حيهم مدة عام كامل ، ليشهدوا بيعها فى

المزاد العلني ، وعلى الرغم من أنها بيعت في تلك الأيام المشؤومة من الحرب الأهلية ، فقد اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسمية ذهبا[1] .

● **مكتبات أخرى في قرطبة :**

ويذكرون أيضا من عشاق الكتب الممتازين **قاسم بن سعدان** ، وهو من رية ، وسكن قرطبة ، « وكان ضابطا لكتبه ، متقنا لروايته ، حسن الخط ، جيد الضبط ، عالما بالحديث ، بصيرا بالنحو والغريب والشعر ، ولا أعلم أحدا بالأندلس عنى عنايته ، **ولم يزل في نسخ ومقابلة إلى أن مات** ، ولم يحدث وحبس كتبه فكانت موقوفة عند محمد بن محمد بن أبي دليم ، وكثر من سماعنا عليه فيها »[2] . وكان **الجهني الطليطلي** ، عبد الله بن محمد ، « رفيع القدر ، عالي الذكر ، عالما بالأدب واللغة ومعاني الشعر ، ذاكرا للأخبار والحكايات ، حسن الإيراد لها وقورا ، **ما رأيت أضبط لكتبه** وروايته منه ، ولا أشد تحفظا بها ورعاية لها ، وكان لا يعير كتابا إلا لمن تيقن أمانته ودينه حفظا للرواية »[3] .

وشهدت تلك الفترة بعض عشاق الكتب اضطرتهم ضرورات الحياة إلى التنازل عن مكتباتهم ، والاعتناء بحياتهم ، وحدث هذا **ليحيى بن مالك بن عائذ الطرطوشي** ، وتردد بالمشرق نحوا من اثنتين وعشرين سنة ، وكتب عن طبقات المحدثين ، وكتب الناس عنه كثيرا بالمشرق ، وقدم الأندلس فسمع منه ضروب من الناس ، وطبقات طلاب العلم ، وأبناء الملوك ، وجماعة من الشيوخ والكهول ، وكان يقول عن نفسه : لو عدت أيام مشيي في المشرق ، وعدت كتبي التي كتبت هناك بخطي ، لكانت كتبي أكثر من أيامي بها »[4] .

● **في مكتبة قرطبي فقير :**

ولم تكن الأسر الغنية وحدها تستمتع بترف تكوين مكتبات غنية ، وإنما تجد هذه الهواية حتى بين طبقات المجتمع الأشد تواضعا ، وهي ترضى حبها للكتب بقدر ما تسمح

---

(١) أورد ابن بشكوال أخبار عبد الرحمن بن فطيس ، أبو المطرف ، هذا تفصيلا في كتابه الصلة . أنظر : الترجمة ٦٨٣ ، طبعة الدار المصرية .

● والزيادة أيضا من كتاب الصلة ، وفيما يتصل بمزيد من التفاصيل عن الحرب الأهلية ، أو فتنة البربر ، التي دفعت بالأسرة إلى بيع هذه المكتبة ، يمكن العودة إلى كتابي : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، الفصل الخاص بالفتنة ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٣ . « المترجم » .

(٢) ابن الفرضي ، الترجمة ١٠٧٢ ، طبعة الدار المصرية .

(٣) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ٥٥٨ ، طبعة الدار المصرية .

(٤) ابن الفرضي ، الترجمة ١٥٩٩ ، طبعة الدار المصرية .

لها إمكاناتها ، وكمثل على ذلك سوف نزور معلما فقيرا ، يمضي حياته بين الصبيان ، ويعيش من تعليمهم ، وهو حزم المعلم[1] ، ويساعده في مهنته ابنه محمد ويقوم على تعليم الصبيان ، وبنته وتقوم على تعليم الفتيات ، والقليل الذى يدخره من دخله ينفقه في شراء الكتب ، ويشغل ساعات فراغه في نسخ الكتب التى يعيرها له أصدقاؤه ، ورغم أن ظروفه لا تتيح له ترف أن يستخدم لها خازنا لكن ذلك لا يعنى أنها كانت مهملة ، أو غير مرتبة ، أو يجهل قيمتها . وكان أدباء قرطبة يحسدونه أحيانا على دقة مخطوطاته ، وروعة بعضها وندرة البعض الآخر ، وأحضرها فى رحلة له إلى المشرق استهدف بها هذه الغاية ، ويمكن أن تراه فى ملابس جد متواضعة ، ويتناول طعاما أشد تواضعا ، ولكن مكتبته تعكس بوضوح إلى أى حد يمكن أن يبلغ حب الكتب الجيد بصاحبه ، حتى عند أصحاب الدخول المحدودة ، والأرزاق المتواضعة .

[وقد أورث هذه الهواية ابنه محمدا ، فأصبح راوية للأدب والطرف، واهتم بتدوين كل أمر، وتأريخ كل خبر، ولم يكن قبله أجمع للدواوين منه، ولا أصبر على الكتاب، ولا أدوم على النظر]، وكانت نهاية هذا العاشق الفقير للكتب مأساوية، فقد ذهب في رحلة إلى الحج، وأدركته الوفاة في سيره وقد ركب البحر، وكالعادة ألقي بجثته في البحر][2] .

● المرأة المسلمة والكتاب :

ولم يكن عشاق الكتب من الرجال وحدهم ، فقد أخذت المرأة المسلمة بحظها من هذه الهواية أيضا ، رغم أنه يطيب لكثيرين أن يصوروها جالسة كسلى فوق الأرائك المريحة ، والحشايا الوثيرة ، تتنفس أريج العود الذي ينطلق مع دخان المجامر ، سجينة ردهات الحريم الداخلية ، تحلم دائما بالمتع الحسية ، ومثل هذه المرأة ليست إسبانية ، ولا يمكن أيضا أن تنصرف إليها تلك النعوت القاسية التي وصف بها المرأة عاشق الكتب الانجليزى الشهير ، وزير إنجلترا في القرن الثالث عشر الميلادى : ريكاردو دى برى

---

(1) لا صلة له بأسرة ابن حزم الشهيرة فى أحداث قرطبة وتاريخها ، والتي منها العالم الجليل أبو محمد علي بن أحمد بن حزم . « المترجم » .

(2) التكملة ، الترجمة ٧٤٩ ، ٩٦٤ ، طبعة الدار المصرية .

● أضفنا ما بين الحاصرتين لأن الأمر التبس على الكاتب ، فجعل الأب هو الذي توفي في رحلة الحج ، والواقع أنه الابن . « المترجم » .

Recardo de Beri في رسالته « عشاق الكتب hilobiblion » ، والتي يهاجم فيها نساء عصره ، ورجال الدين على أيامه ، يقول :

« والآن أزيحت الكتب من بيوت رجال الدين بالقوة والسلاح ، حيث كان يستمتعون باللجوء إليها فى أيام مضت ، وبحق الإرث على الأقل فيما سبق ، وكان يسمح لهم بغرفة داخلية هادئة ، تجمعت فيها الكتب ، ولكنهم الآن – ياللزمن المشؤوم ! – يقذفون بالكتب خارج الأبواب ، وتحل مكانها أحيانا الكلاب وطيور الصيد ، وأحيانا أخرى ذلك الحيوان ذو الساقين ، الذى يسمى المرأة ، والذى يجب ألا يعيش معه رجال الدين . ولا يكاد هذا الحيوان المؤذى للدراسات يكتشف الكتب المخبأة التى يغطيها نسيج العنكبوت القديم ، حتى ينهال عليها سبا بكلام أشد مرارة من السم ، ويرينها جديرة فقط بأن تستبدل بالأقمشة الحريرية ، والملابس القرمزية ، أو بأى طعام لذيذ تافه » .

إن الحيوان الإسبانى المسلم ذا الساقين لا يتصف بالملامح التى لحظها ركادو دى برى فى السيدات الإنجليزيات على أيامه ، لا فى عليا طبقات المجتمع القرطبى ولا فى دنياه . فالمرأة الإسبانية المسلمة تعمل فى مكاتب الحكم الثانى الملكية ، وتعرف الكتابة ، وتجيد الخط ، ودرست النحو والشعر ، وإلى جانب اللائى أشرنا إليهن من قبلّ نجد : **لبنى** الكاتبة الممتازة ، **وفاطمة** العجوز ، وظلت تكتب حتى بعد أن تقدمت بها السن جدا ، فى أناقة ودقة ، وأمضت حياة شريفة ، وتوفيت عذراء ، فى سن متقدمة ، طبقا لما رواه معاصروها .

ويمكن أن نذكر بين سيدات الطبقة العليا فى قرطبة ممن اشتهرن بحب الكتب **عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم** ، وهى من أسرة عريقة وملحوظة ، ولم يكن فى الأندلس « فى زمانها من يعدلها فهما وعلما وأدبا ، وشعرا وفصاحة ، وعفة وجزالة وحصافة . وكانت تمدح ملوك زمانها وتخاطبهم فيما يعرض لها من حاجتها ، فتبلغ ببيانها حيث لا يبلغه كثير من أدباء وقتها ، ولا ترد شفاعتها . وكانت حسنة الخط ، تكتب المصاحف والدفاتر ، وتجمع الكتب ، وتعنى بالعلم ، ولها خزانة علم كبيرة حسنة ، ولها غنى وثروة تعينها على المروءة ، وماتت عذراء لم تتزوج »[1] .

(١) ابن بشكوال الصلة ، الترجمة ١٥٣١ ، طبعة الدار المصرية .

وفضلا عن عائشة هذه يجب أن نذكر **راضية** مولاة عبد الرحمن الناصر ، وأعتقها ابنه الحكم ، وتزوجها لبيب الفتى ، وكان يعمل موظفا فى قصر الخلافة ، وانتهى المطاف بكتبها إلى أبى محمد بن خزرج ، وعمرت طويلا ، فعاشت مئة عام ونيف[1] ، **وخديجة** بنت جعفر بن نصير ، وزوج عبد الله بن أسد الفقيه ، وحبست مكتبتها على ابنتها[2] .

ولا نجد بين الطبقات الدنيا عاشقات للكتب ، ولكن هذا لا يعنى أنهن كن عدوات للكتاب ، فقد كان مئات منهن يعملن فى نسخ القرآن الكريم ، وكتب الصلوات والأدعية ، وكانت أكثر شيوعا ، لبيعها للوراقين ، وهؤلاء يقبلون عليها أكثر ، لأنهم مع كتابة المرأة يحصلون على نسخ أوضح نظافة ، وأشد اعتناء ، وأبلغ مهارة ، وأحسن خطا ، وأرخص ثمنا ، لقلة أجورهن عن النساخ من الرجال . وأورد عبد الواحد **المراكشى** فى تاريخه **المعجب فى تلخيص أخبار المغرب** ، نقلا عن **ابن فياض** فى تاريخه فى أخبار قرطبة : « كان بالربض الشرقى من قرطبة مائة وسبعون امرأة يكتبن المصاحف بالخط الكوفى ، هذا ما فى ناحية من نواحيها ، فكيف بجميع جهاتها ؟ »[3] .

● المصاحف :

المصحف أكثر الكتب نسخا ورواجا فى العالم الإسلامى ، فهو يستخدم نصا يقرؤه التلاميذ فى المدارس ، ويشغل المسلمون الطيبون وقتهم بالتلاوة فيه ، ويقرأ ويرتل فى المساجد ، وغير ذلك . وتضبط مخطوطاته ، عادة بالشكل الكامل ، وتنسخ فى عناية ودقة ، ويكتب فى أجمل الخطوط فنا ومهارة ، ويجلد فى أحسن الأغلفة وأغلاها . وكان هناك دائما خطاطون تخصصوا فى نسخ القرآن الكريم فحسب ، بعضهم لما يدره عليهم نسخه من ربح ، وآخرون رجاء فى ثواب الله ، واشتهر عدد من بين هؤلاء النساخين .

كان **ابن أبى الفوارس** ، محمد بن إسماعيل ، **من أكتب الناس للمصاحف** على أيام الحكم الثانى ، **يكتب المصحف فى أسبوعين أو نحوهما**[4] وتخصص **ابن الحجام** ، خلف بن سليمان ، من أهل قرطبة ، **فى كتابة المصاحف ونقطها** ، لأنه عرف بالدقة

---

(١) المصدر السابق ، الترجمة ١٥٣٤ .

(٢) المصدر السابق ، الترجمة ١٥٣٢ .

(٣) المعجب ، ص ٣٧٢ ، الطبعة الأولى ، تحقيق سعيد العريان ، القاهرة ١٣٦٨هـ – ١٩٤٩م .

(٤) التكملة ، الترجمة ١٠١٦ ، طبعة مصر .

فى هذا العام[١] ، وكتبت عائشة بنت أحمد عددا من المصاحف بخط جميل[٢] ، وكان إبراهيم بن مبشر بن شريف البكرى ، يقرىء فى دكانه قرب المسجد الجامع بقرطبة ، وينقط المصاحف ، ويعلم المبتدئين[٣] ، واشتهر نصر المصحفى ، من أهل طليطلة ، بلقب « النقاط » ، لأنه كلن يقرىء القرآن ، وينقط المصاحف[٤] ، وتخصص محمد بن وضاح ، من أهل شذونة ، فى كتابة المصاحف[٥] ، ويقال أن ابن مفاضل الملقى ، وهو شخصية فاضلة جدا ، نسخ سبعين مصحفا كاملة[٦] ، وبين نساخ القرآن الكريم من يرفض أن يخط بقلمه غير المصحف[٧] .

وعرف الأندلس عددا من مخطوطات المصاحف الشهيرة ، يقول ابن خليل السكونى فى فهرسته : شاهدت بجامع العدبس بإشبيلية ربعة مصحف فى أسفار ، ينحى به لنحو خطوط الكوفة ، إلا أنه أحسن خطا ، وأبينه وأبرعه وأتقنه ، فقال لى الشيخ الأستاذ أبو الحسن ابن الطفيل بن عظيمة : هذا خط ابن مقلة ، وأنشد :

خط ابن مقلة من أرعاه مقلته ودت جوارحه لو أنها مقـل

ثم قسنا حروفه بالضابط فوجدنا أنواعها تتماثل فى القدر والوضع ، فالألفاظ على قدر واحد ، واللامات كذلك ، والكافات والواوات ، وغيرها بهذه النسبة[٨] .

وكانت المخطوطة الموجودة فى مسجد قرطبة الجامع من أشهر المصاحف على الإطلاق ، ويقال إنها مصحف الخليفة عثمان ، واعتبرها الأندلسيون أثرا مباركا ، يخرجونها يوم الجمعة عند الصلاة فى احتفال عظيم ، وتحفظ فى صندوق فخيم ، وطبقا لما يرويه ابن بشكوال كانت موجودة فى المسجد حتى عام ٥٥٢هـ = ١١٥٧م ، ونعرف فيما بعد

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ٣٥٩ ، طبعة الدار المصرية .
(٢) نفح الطيب ، جـ ٤ ص ٢٩٠ ، طبعة إحسان عباس .
(٣) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ١٩٣ ، طبعة الدار المصرية .
(٤) التكملة ، الترجمة ، ١٨٥٠ ، جامعة القاهرة .
(٥) ابن الفرضى ، الترجمة ، ١٣٠٦ ، طبعة الدار المصرية .
(٦) الإحاطة ، المجلد الثانى ، الورقة ١٦٧ ، من مخطوطة الأسكوريال .
(٧) المصدر السابق ، المجلد الأول ، الورقة ٣٦ .
(٨) نفح الطيب ، جـ ٤ ص ٣٠٤ ، طبعة إحسان عباس .

أن أمراة الموحدين كانوا يحملونها فى رحلاتهم تبركا بها[1] ، وفى عام ٧٣٧هـ = ١٣٣٦م كانت توجد فى خزانة ملوك تلمسان ، ثم غنمها البرتغاليون ، وانتهى بها المطاف عام ٧٤٥هـ = ١٣٤٤م عند تاجر فى مدينة فاس ، ويقول آخرون أن المسيحيين دخلوا قرطبة فى زمن ابن حمدين ، وأحرقوا المخطوطات التى فى المسجد الجامع ، ومن بينها مخطوطة مصحف عثمان هذه[2] .

● **المكتبات عند أهل الذمة :**

ولكن عاصمة الخلافة المزدحمة بالسكان لم تكن وقفا على المسلمين وحدهم ، وإنما كانت تعيش فيها أيضا طوائف مسيحية كثيرة العدد ، تمارس طقوسها الدينية مستقلة وحرة ، ولهم كنائسهم ورهبانهم ، وأساقفتهم ، وأبناء يتعلمون على النمط الذى كان شائعا ، وينهلون من الأفكار التى كانت سائدة ، ويقتدون بالنماذج التى حولهم ، وهو ما يمكن أن نستنتجه من شهادة ألبرو القرطبى Alvaro de Cordoba وهو مسيحى مستعرب ، وأصبح مطران العاصمة ، ولا يمكن أن يتهم بالانحياز لصالح اللغة العربية أو المسلمين ، كتب عام ٨٦٤م يقول :

« من الذى يعكف اليوم بين أتباعنا من المؤمنين بديننا على دراسة الكتب المقدسة ، أو يرجع إلى كتاب أى عالم من علمائها ، ممن كتبوا فى اللغة اللاتينية ؟ من منهم يدرس الإنجيل أو « الأنبياء » أو « الرسل » ، إننا لا نرى غير شبان مسيحيين هاموا حبا باللغة العربية ، يبحثون عن كتبها ويقتنونها ، يدرسونها فى شغف ، ويعلقون عليها ، ويتحدثون بها فى طلاقة ، ويكتبون بها فى جمال وبلاغة ، ويقولون فيها الشعر فى رقة وأناقة . يا للحزن ! ، مسيحيون يجهلون كتابهم وقانونهم ولا تينيتهم ، وينسون لغتهم نفسها ، لأن الفصاحة العربية تسكرهم ، ولا يكاد الواحد منهم يستطيع أن يكتب رسالة معقولة لأخيه مسلما عليه ، وتستطيع أن تجد جمعا لا يحصى يظهر تفوقه وقدرته وتمكنه من اللغة العربية » .

ذلك أن سياسة التسامح الحكيمة والهادفة التى سار عليها الأمويون الإسبان لم تستثن المسيحيين من تولى الوظائف العامة ، بما فيها العمل فى قصر الخلافة نفسه ، أينعت

---

(١) المراكشى ، المعجب ، ص ٢٥٣ .

(٢) نفح الطيب ، جـ ١ ص ٦٠٥ ، طبعة إحسان عباس ، والإدريسى طبعة دوزى ، ص ٢٦٠ .

ثمارها ، باستثناء تلك الأيام الحزينة التى سالت فيها دماء الشهداء فى شوارع قرطبة[1] ، ومعها عرف الخلفاء كيف يخففون من حدة التوتر والتصادم الذى تؤدى إليه ممارسة الأديان المختلفة بين رعاياهم .

وترك اليهود أيضا موجة العصر تحملهم ، وهم شعب يرضى بالحياة فى أى مكان ، لأنه قبل كل شىء وبعده مكروه بقدر متساو فى كل مكان ، وموضع البغضاء من الجميع ، وكانت بيعهم ومدارسهم تتلقى العون من إخوانهم فى المشرق ، ويساعدهم فى أبوة حانية حسداى اليهودى الشهير ، طبيب الحكم الثانى الخاص ، ولم يهمل اليهود الدراسات العربية ، وفى لغتها تعودوا أن يكتبوا ، وبكتبها كانوا يثرون مكتباتهم ويرى مونك Munk أن اليهودى يوسف بن إسماعيل وزير باديس بن حبوس أمير غرناطة كان من عشاق الكتب المشهورين فى أسبانيا الإسلامية[2] .

● الكتاب بين الصقالبة :

وقد تسربت عدوى حب الكتاب إلى جمهرة من الذين اعتنقوا الإسلام من الجليقيين والقطلونيين والفرنسيين والإيطاليين ، وبعضهم كان خصيا ، فهو مهيأ للعمل داخل

---

(١) يشير إلى حركة تزعمها مطران قرطبة يولوجيوس ، وبدأت فى أواخر عهد الأمير عبد الرحمن الثانى « ٨٢٢ – ٨٥٢ » ، وكانت تستهدف استفزاز المسلمين بسب النبى عليه الصلاة والسلام وسب الدين الإسلامى ، ولما رفض القسيس برفيكتوس أن يرجع عن قوله أو يتوب عنه ، أعدم فى عيد رمضان من عام ٨٥٠م ، واتسعت الحركة فجاء بعده راهب يسمى إسحاق ، وتقدم إلى القاضى بحجة أنه يريد اعتناق الإسلام ولكنه أخذ يكيل اللعنات للنبى والإسلام ، فاستتيب ولما رفض أعدم أيضا ، وجاء بعدهم عدد من العلمانيين صنع الشىء نفسه ، فعقد الأساقفة مجلسا بإيحاء من الأمير حظر على المسيحيين أن يسعوا إلى الموت بهذه الطريقة ، ولكن ذلك لم يجد نفعا ، وجاء الدور على فتاة صغيرة جميلة ، من أب مسلم وأم مسيحية تدعى فلورا (= زهرة) ، ومعها راهبة شابة تدعى مريم ، وكانت هذه أختا لأحد الرهبان الذين أطيحت رءوسهم ، وتقدمتا بتأثير الإغراء فسبتا النبى والإسلام ، ولكن القاضى الرحيم اكتفى بزجهما فى السجن ، وكان يولوجيوس قد زج به فى السجن أيضا ، وكان يعشق فلورا عشقا عنيفا ، وبذل كل ما فى وسعه من إغراء ، مستعملا فصاحته ، ليشجع البنت التى أحبها وزميلتها ، وقد بدا عليهما التردد ، فلم تتراجعا ، ورفضتا التوبة ، ونفذ فيهما حكم الإعدام فى ٢٤ نوفمبر سنة ٨٥٠ ، وعندما تولى الأمير محمد آثر أن يأخذ الأمر بالحسم الذى يتفق وخطورة هذه الأحداث ، فأصدر أمرا بإعدام يولوجيوس نفسه ، بعد أن كان قد أعدم فى هذه الهوجة غير العاقلة ، ولم يكن لها ما يبررها ، أربعة وأربعون شخصا . « المترجم » .

(٢) مونك ، دراسات عن فلاسفة اليهود والعرب ، ص ٤٨٠ . ابن الخطيب ، الاحاطة ، جـ ١ ص ٤٤٥ – ٤٤٧ .

وانظر الفصل الخاص بالقصيدة التى فجرت ثورة فى كتابنا : دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٧ .(المترجم)

الحريم ، دون خطر منه على شرف السيدات ، أو موظفين فى قصر الخلافة أو الجيش ، ويصلون عادة إلى قرطبة فى سن الطفولة ، وقد اشتراهم الأمويون لهذه الغايات ، أو تلقوهم هدايا من ملوك أوربا ، حتى أن كونت **برشلونة** أرسل فى مناسبة واحدة عشرين فتى خصيا هدية **للحكم الثانى** استرضاء له ، وكانوا يعلمونهم فى عناية ، ويربونهم بطريقة تجعلهم فيما بعد مهيئين لأن يصبحوا أدباء ، ينظمون الشعر ، ويكتبون نثرا راقيا ، وكل ذلك فى اللغة العربية الفصحى ، ولهذا أخذوا يكونون لهم فى بيوتهم مكتبات خاصة بهم ، وإلى هذا القدر بلغ حب الكتب وعشقها[1] .

● **مشهد منافسة فى سوق الكتب :**

هذه الهواية التى شاعت فى البدء بين المثقفين فحسب ، أصبحت موضع التقليد من أولئك الذين يحبون أن يتجاوزوا واقعهم ، وأن يعدوا بين المثقفين ، على نحو ما يحدث فى أيامنا هذه ، وبعض هؤلاء الهواة بلغوا فى بعض الأحيان درجة من الحمق يصبحون معها منافسين مرعبين لعشاق الكتب الحقيقيين ، ولنبرهن على هذا إليك ما حكاه لنا الرحالة الشهير ، وعاشق الكتب الذائع الصيت **الحضرمى** ، عن زيارته لأحد أسواق الكتب المعروفة فى قرطبة ، حيث تباع الكتب عادة فى مزاد علنى يقوم عليه دلال ، يقول :

« أقمت مرة بقرطبة ، ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيها وقوع كتاب لى بطلبه اعتناء ، إلى أن وقع وهو بخط جيد وتفسير مليح ، ففرحت به أشد الفرح ، فجعلت أزيد فى ثمنه ، فيرجع إلى المنادى بالزيادة على ، إلى أن بلغ فوق حده ، فقلت له : يا هذا ، أرنى من يزيد فى هذا الكتاب حتى بلغه ما لا يساوى ، قال : فأرانى شخصا عليه لباس رياسة ، فدنوت منه ، وقلت له ، أعز الله سيدنا الفقيه ، إن كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده ، فقال لى : لست بفقيه ، ولا أدرى ما فيه ، ولكنى أقمت خزانة كتب ، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط ، جيد التجليد ، استحسنته ، ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير . قال الحضرمى : فأحرجنى ، وحملنى على أن قلت له : نعم لا يكون الرزق كثيرا إلا عند

---

(١) دوزى ، تاريخ مسلمى إسبانيا ، جـ ٣ ص ٦١ .

مثلك ، يعطى الجوز من لا أسنان عنده ، وأنا الذى أعلم ما فى هذا الكتاب ، وأطلب الانتفاع به ، يكون الرزق عندى قليلا ، وتحول قلة ما بيدى بينى وبينه »[1] .

ويزيد ابن سعيد المؤرخ ، وهو الذى أمدنا بالقصة السابقة ، كلمات سمعها من والده : « وهى – أى قرطبة – أكثر بلاد الأندلس كتبا ، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب ، صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة ، حتى أن الرئيس منهم الذى لا تكون عنده معرفة يحتفل فى أن تكون فى بيته خزانة كتب ، وينتخب فيها ، ليس إلا لأن يقال : فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلانى ليس هو عند أحد غيره ، والكتاب الذى هو بخط فلان قد حصله وظفر به »[2] .

وذلك المشهد يرسم ، فيما أرى ، أفضل من أى وصف آخر ما كانت عليه سوق الكتب فى قرطبة ، وتمكن هذه الهواية من النفوس حتى أصبحت مجرد ترف ، وهو يقدم لنا طبقتين من هؤلاء الهواة : طبقة الذين ينحدرون من أصول طيبة ويظلون بلا كتب ، وطبقة عشاق المظاهر الذين يشترونها لكى يشيروا إليها بأصابعهم فى بيوتهم ، بدون غاية نافعة مرجوة ، وهذه الدهشة نفسها التى أحدثتها فى أعماق ذلك الرحالة الغريب شاهد صدق على أن مثل ذلك المشهد لا يحدث فى بلده عادة .

● حركة النشر فى قرطبة :

سيكون من المثير أن نحاول ظنا تقدير عدد الكتب التى كانت تنسخ فى قرطبة سنويا ، ومن الصعب تحديدها بدقة . ولكن إذا أخذنا فى الحسبان أن عدد الطلاب الذين كانوا يترددون على العاصمة للدراسة سنويا يتراوح بين خمسة وستة آلاف ، وأن ألفا منهم كانوا يحضرون فصلا دراسيا واحد ، على أستاذ واحد ، وأنهم جميعا يكتبون كل ما يملى عليهم من محاضرات أساتذتهم ، وأنهم يدرسون فى العام الواحد أكثر من كتاب ، وإذا أخذنا فى الحسبان أيضا المئات العديدة من السيدات والفتيات اللائى كن يعملن فى نسخ القرآن الكريم وكتب الأدعية والصلوات مهنة ، وأن هناك من كان يكمل نسخ المصحف كله فى أسبوعين ، وفضلا عن ذلك ، إذا عرفنا أن جمهرة من الوراقين كانت تدفع رواتب ثابتة لنساخين محترفين خاصين بهم ، وأن المكتبات الخاصة كانت تستخدم جمهرة

---

(١) نفح الطيب ، جـ ١ ص ٤٦٣ ، طبعة إحسان عباس .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٤٦٢ .

من النساخين والمختصين بهذه المهنة ، إذا أخذنا كل ما مضى فى الاعتبار أمكن لنا أن نتبين الرقم ولو تقريبا ، وأنه يتراوح بين ستين وثمانين ألف كتاب سنويا ، ولن نكون فى هذا غالين أو مبالغين .

وقد أورد لنا ابن بشكوال أشعار ابن أسد التميمى القرطبى ، وكان أستاذا نابها ، وفيها يعبر عن سروره وقد أحاط به ألف من طلابه فى المسجد الجامع بقرطبة ، وأمام كل واحد منهم مقلمته ، فيها قلمه ودواته ، وعلى استعداد لأن ينسخ كل ما يملى عليه[1] . واشتهر الأندلسيون بالمهارة فى النسخ ، وتجليد الكتب ، وطوفت شهرتهم حتى بلغت المشرق ، وأشاد بها الرحالة المقدسى فى كتابه .

إذا وازنا بين ما كان يجرى فى قرطبة إذ ذاك وبين حركة النشر المعاصرة وجدناه قليلا جدا ، ولكنه عظيم للغاية إذا قيس بواقع تلك الأيام ، وإذا أخذنا فى الاعتبار أنها نسخ مخطوطة ، وأن أوربا كلها فى ذلك الوقت لم يكن لديها مثل هذه المجموعات ،وأعتقد أننا لا نبعد عن الواقع كثيرا حين نقول إن قرطبة الإسلامية عرفت من الكتب والمكتبات وهواة الكتب أكثر مما لدينا الآن ، أكثر مثلا مما فى سرقسطة أو بلنسية رغم أنهما من كبريات مدن إسبانيا المعاصرة ، ويفوقان الآن عددا وحجما ما كانتا عليه أيام الدولة الإسلامية ، وفى عصر ازدهار أدبى ، وهو آخر القرن التاسع عشر ، ويجىء بعد أربعة قرون طوال من اختراع المطبعة .

● المنصور بن أبى عامر والكتاب :

وأراد المنصور بن أبى عامر أن يبارى الحكم فى تشجيع الثقافة وحب الكتب ، وكان والده عبد الله بن محمد من أهل قرطبة ، وأصله من الجزيرة الخضراء رحل إلى المشرق ، وأدى فريضة الحج ، وبذل جهدا كبيرا فى تصحيح الكتب التى درسها ، وحصل عليها ، وأثنى عليه الراوية أبو محمد الباجى ، وقال : كان لى خير صديق أنتفع به وينتفع بى ، وأقابل معه كتبه وكتبى[2] .

---

(١) الصلة ، الترجمة ٤٧٤ ، طبعة الدار المصرية .
وانظر ص ١١١ من هذا الكتاب . « المترجم » .

(٢) نفح الطيب ، جـ ١ ص ٩٠٤ طبعة أوربا و جـ ٢ ص ٦٤٦ طبعة إحسان عباس .

وصنع معه كبار الأدباء فى قرطبة ما صنعوه مع الحكم من قبل ، فأهدوه كتبهم التى ألفوها ، وجاء إلى قرطبة فى زمنه **صاعد البغدادى** الشهير ، وأراد أن ينافس **أبا على القالى** الذى أنار عهدى الخليفة الناصر وابنه الحكم من بعده ، وألف له كتابه **الفصوص** ، على نحو كتاب **النوادر** **لأبى على** ، وكافأه المنصور عليه بخمسة آلاف دينار . وكان صاعد عالما باللغة والآداب والأخبار ، سريع الجواب ، حسن الشعر ، طيب المعاشرة ، فكه المجالسة ممتعا[1] .

وألف حسان بن مالك بن **أبى عبدة** من الأئمة فى اللغة ، ومن بيت جلالة ووزارة ، كتاب **ربيعة وعقيل** ، على مثال كتاب **أبى السرى** سهل بن أبى غالب الذى **ألفه** أيام الرشيد ، ويقول عنه **ابن حزم** : من أصلح ما ألف فى هذا المعنى » ، وسبب تأليفه أنه دخل على المنصور وبين يديه كتاب أبى السرى يدرسه ، وهو معجب به ، فخرج من عنده ، وعمل هذا الكتاب ، وبرع فيه تأليفا ونسخا وتصويرا فى أسبوع واحد ، وقدمه إلى المنصور فسربه ، ووصله عليه[2] .

وكان **المنصور** يخص عددا من الكتب بعنايته ، ويحب أن يقرأ فيها كل ليلة ، ومن بينها كتاب « الجواس » لصاعد البغدادى أيضا ، « وهو كتاب مليح جدا ، أخرم أيام الفتن بالأندلس فنقصت منه أوراق لم توجد بعد ، وكان المنصور كثير الشغف به ، حتى رتب له من يخرجه أمامه كل ليلة[3] . وأمر أن تزين مخطوطة المصحف المنسوب إلى عثمان بن عفان بالجواهر[4] ، ولكنه ارتكب خطأ لا يغتفر حين أمر بإحراق جانب من مكتبة الحكم الثانى[5] .

وكان **محمد بن عبد الرحمن بن معمر** اللغوى ، من أهل قرطبة ، **هو خازن مكتبة المنصور** وابنه المظفر من بعده ، « وكان حافظا للغة ، مشاركا فى الأدب ، **من أعلم الناس بالكتب** وعللها ، وألهجهم بجميعها ، وأفرزهم لخطوطها ، وأنسبهم لها إلى

---

(١) ابن بشكوال ، الترجمة ٥٣٦ والضبى ، الترجمة ٨٥٣ ، طبعة أوربا .

(٢) الضبى ، الترجمة ٦٦٢ .

(٣) المعجب لعبد الواحد المراكشى ، ص ٣٣ ، طبعة سعيد العريان .

(٤) التكملة ، الترجمة ٩٥٢ ، طبعة أوربا .

(٥) نفح الطيب للمقرى ، جـ ١ ص ١٣٦ طبعة أوربا .

ورّاقها ، وكان يقابل كتب المنصور وولده من بعده ، متفقا لخزانتهم الرفية » ، وكتب تاريخ الأسرة العامرية[1] .

ولكن ذلك العصر ، وبلغ الغاية من البهاء والروعة ، لم يستمر طويلا ، وسادت الحرب الأهلية فى قرطبة بعد أيام المنصور ، وافتتح البربر ، ومنهم الجانب الأكبر من القوات الملكية ، عصرا من الفوضى والهمجية ، فهم يسرقون القصور ، ويحرقون المكتبات ، ورحلت الأسر القرطبية الغنية إلى المحافظات ، وهرب الطلاب والأساتذة من العاصمة وأنشأوا مراكز تربوية جديدة ، ونشروا هواية حب الكتب فى المدن التى رحلوا إليها ، والتى أصبحت فيما بعد عواصم لدول ملوك الطوائف ، وانفصلت عن طاعة السلطة المركزية المتردية ، وظلت فى قرطبة العاصمة تتجادل وتتهاوى تدريجا ، إلى أن سقطت نهائيا .

ورغم ذلك واصلت عاصمة إسبانيا الإسلامية دورها ، مركزا رئيسيا للحياة الأدبية والعلمية فى تلك الأيام ، وازدهرت فيها صناعة الكتاب ، وكثر عشاقه ، ومن بين هؤلاء :

● **هواة وخطاطون آخرون :**

لقد جمع **فاتن** فى خزانته عددا كبيرا من الكتب وكان بين فتيان[2] المنصور بن أبى عامر ، أوحد لا نظير له فى علم كلام العرب ، وحتى ناظر صاعدا البغدادى فقطعه ، وظهر عليه وبكته ، وأعجب المنصور منه ، ولما توفى فاتن عام ٤٠٢هـ ١٠١١م « بيعت فى تركته كتب مضبوطة جليلة مصححة »[3] . وأنشأ **أبو على الغسانى** مكتبة له ، كانت من أثرى المكتبات كتبا على أيامه ، وأميز تصنيفا ، وتضم كتبا من مختلف أنواع العلوم[4] .

وكان **ابن الموصل** ، محمد بن يحيى الغافقى من أهل قرطبة ، « أديبا كاتبا ، **جماعا لدفاتر العلم** من لدن صباه ، منتقيا لكرائمها ، بصيرا بخيارها ، عارفا بخطوطها ، يحتكم إليه فى ذلك ، مؤثرا لها على كل لذة ، حتى اجتمع منها عنده ما لم يجتمع مثله لأحد

(١) التكملة ، الترجمة ١٠٦٨ ، طبعة القاهرة .

(٢) كلمة «فتى» تطلق فى الأندلس على الصقالبة الخصيان الذين يعملون فى قصر الإمارة، أوالحجابة. «المترجم»

(٣) نفح الطيب ، جـ٢ ص٥٧ طبعة أوربا . وجـ٣ ص٨٢ طبعة احسان عباس .

(٤) ابن بشكوال ، الترجمة ٦٢٦ ، طبعة مدريد .

بالأندلس بعد الحكم الخليفة . وكان عنده **إصلاح المنطق** بخط أبي على القالى ، **والغريب المصنف** أصل أبي على ، **ونوادر ابن الأعرابى** بخط أبي موسى الحامض ، **وتاريخ أبي جعفر الطبرى بصلة الفرغانى** بخط ابن ملول الوشقى . بيع هذا كله فى تركته ، وأغلى فيها حتى لقومت الورقة فى بعضها بربع مثقال »[1] .

وجمع **جعفر بن محمد بن مكى اللغوى كتبا كثيرة** ، وكان عالما باللغات والأدب ذاكرا لهما ، متفننا لما قيده منهما ، ضابطا لجميعها ، وعنى بذلك عناية تامة[2] . وكان **ابن ذكوان** ، محمد بن أحمد قاضى الجماعة فى قرطبة ، من أهل العلم والحفظ والنباهة ، والذكاء والفهم ، ممن عنى بالعلم ، **واقتنى الكتب الغريبة**[3] . وصنع مثله **ابن الصابونى** ، هشام بن عبد الرحمن ، ورحل إلى المشرق فأدى فريضة الحج ، ولقى علماءه ، وكان خيرا فاضلا ، عفيفا ، مخزون اللسان ، جيد المعرفة ، حسن الشروع فى الفقه والحديث ، دوّبا على النسخ ، **جماعة للكتب** ، **جيد الخط**[4] .

وكان **ابن عون المعافرى** ، محمد بن أحمد من أهل قرطبة ، فقيها فاضلا ، ورعا ، دينا عفيفا ، متواضعا متصاونا ، منقبضا عن الناس ، مواظبا على الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة ، وكان معتنيا بالعلم ، مشهورا بالمعرفة والفهم ، **كثير الكتب** ، **جامعا لها** ، **باحثا عنها**[5] . ومثله **ابن خيرة** ، **محمد بن عبد الله** ، وهو من جلة العلماء الحفاظ تفنن فى المعارف كلها ، كثير الدراية ، واسع المعرفة ، حافل الأدب ، **وجمع كثيرا من الكتب**[6] . وجمع **الأمير هشام** من أحفاد عبد الرحمن الناصر مكتبة غنية ، ثم اشتراها منه الخليفة سليمان المستعين[7] .

واشتهر بين عشاق الكتب **ابن برد الأنصارى** ، سلمة بن سعيد ، من أهل أستجه وسكن قرطبة ، ورحل إلى المشرق حاجا ، ثم أقام فيه ثلاثا وعشرين عاما ، لقى خلالها جلة علمائه ، وأدب فى بعض أحياء العرب ، واضطرب فى آفاقه يجمع كتب العلم ، واتخذ من مصر موئلا ، فكلما اجتمع له من ذلك مقدار صالح نهض به إلى مصر ، ثم

(١) التكملة ، الترجمة ١٠٧٨ ، طبعة مصر .
(٢) ابن بشكوال ، الترجمة ٢٩٨ ، طبعة الدار المصرية .
(٣) المصدر السابق ، الترجمة ١١٥٠ .
(٤) المصدر السابق ، الترجمة ١٢٢٨ .
(٥) المصدر السابق ، الترجمة ١٢٦٠ .
(٦) المصدر السابق ، الترجمة ١٣٠٢ .
(٧) التكملة ، الترجمة ٢٠٧٩ ، طبعة مدريد .

انزعج بالجميع إلى الأندلس ، يسوق بين يديه **ثمانية عشر جملا مشدودة من كتب ، فى كل فن من فنون العلم** ، ولم يتم له ذلك إلا بمال كثير حمله معه إلى المشرق[1] .

وكان ابن عريب القيسى **وراقا ملحوظا** ، وكتب علما كثيرا ، وسمع الحديث فاتسع ، ولم يزل يطلب العلم إلى أن توفى[2] . ومثله ابن أسود الغسانى البجانى ، **فقد احترف الوراقة** ، وكان **حلو الخط** ، حسن الرتبة ، كثير الدربة ، مقتنعا فى دنياه ، متقللا منها ، منقبضا عن الناس ، مقبلا على ما يعنيه[3] . وكان الناس يتنافسون على كتب **يمن بن محمد** الوراق ، لملاحة خطه وضبطه ، وحسن كتابته[4] ، وكتب **الخال القرطبى** ، محمد بن حكم ، كثيرا من الكتب بخطه ، فى فنون مختلفة من العلم ، وكان **أنيق الوراقة** ، **وظل الناس يتنافسون على الكتب التى بخطه حتى بعد وفاته بأعوام** طويلة[5] .

وظل سعيد بن سلمة يمارس **حرفة النسخ والكتابة ستين عاما كاملة** ، وكانت غاية فى الصحة ، ونهاية فى الضبط ، ولم يكن ثمة كتب أصح منها ، وكان أمام الفريضة بالمسجد الجامع بقرطبة[6] .

وكان **سعيد بن نصر** من أهل الرواية والاجتهاد ، والدراية بطلب العلم والحديث ، وتجويد الكتب والمقابلة لها وتصحيحها ، يلجأ إليها فيها ، ويعارض بها[7] .

وبعض الأدباء كان يعتمد فى عيشه على مهنة الوراقة ، فقد اقتصر عليها مروان بن أمية ، حين غادر قرطبة خلال أيام الفتنة ، ولم بها شعثه إلى أن مضى لسبيله[8] ، وأثناء هذه الحرب المشؤومة تعرضت مكتبات كثيرة للسرقة والنهب ، فقد حاول الزهراوى ، عمر بن عبيد الله الذهلى ، أن ينجو بمكتبته ، فشد ما اختاره منها ، فى ثمانية أحمال ، ليخرجها من داره فى الربض الغربى إلى مكان آخر أكثر أمنا ، ولكنه لم يستطع أن يحقق غايته فقد انتهبها البربر[9] .

---

(١) ابن بشكوال ، الترجمة ٥١٣ ، طبعة الدار المصرية .

(٢) المصدر السابق ، الترجمة ٣١٠ .

(٣) المصدر السابق ، الترجمة ١٤٩٢ .

(٤) المصدر السابق ، الترجمة ١٦١٤ . طبعة الدار المصرية .

(٥) التكملة ، الترجمة ١٠٣١ ، الطبعة المصرية .

(٦) ابن بشكوال ، الترجمة ٤٨٥ .

(٧) المصدر السابق ، الترجمة ٤٦٨ .

(٨) التكملة ، الترجمة ١٧٤٤ ، الطبعة المصرية .

(٩) ابن بشكوال ، الترجمة ٨٦٠ ، طبعة الدار المصرية .

وكل هذه المكتبات كانت خاصة ، وثمة مكتبات فى بعض المساجد ، أوقفها أصحابها لصالح الطلاب ، ولكنها لم تكن مفتوحة لعامة الناس ، وليس صحيحا ما أورده ميخائيل غزيرى فى فهرسه لمكتبة الاسكوريال[١] ، وعنه نقله كثيرون ، أنه كان فى أسبانيا ستون مكتبة عامة ، ولم تكنْ مكتبة الحكم الحكم أيضا مفتوحة للجمهور كما ذكر بعضهم .

● **مكتبات إشبيلية :**

وإذا كانت قرطبة المدينة الأولى فيما يتصل بالتعليم وحب الكتب ، فقد كانت الثانية **إشبيلية** ، موطن المعتمد ، والمدينة التى لا مثيل لها، وفى إحدى المناسبات جرى حوار بين **ابن رشد** فيلسوف قرطبة الشهير، **وبين ابن زهر** طبيب إشبيلية الكبير ، بين يدى **المنصور يعقوب أمير الموحدين**، حول أى المدينتين أفضل، وانتهى الحوار بجملة مبينة لابن رشد تصور الواقع فى دقة: «ماأدرى ماتقول، غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية »[٢].

وهذه الرواية ، وهي تصور طابع المدينتين فى دقة ، حسمت النقاش لصالح العاصمة ، ولكن يجب أن نفسح لإشبيلية المكان الثانى ، وإذا لم تنله بمكتبة الأسرة الملكية فيها ، وكانت واحدة من أعظم المكتبات ثراء ، أو بعدد هواة الكتب وعشاق المكتبات ، الذين ازدهروا فيها ، فإنها تستحقها بسوق الكتب الذى كان قائما بها ، ونفقت شهرته فبلغت كل الأنحاء ، وأصبح مهبط الأدباء بحثا عن النسخ النادرة والطريفة . ويشير **ابن الخطيب** ، المؤرخ الغرناطى الشهير ، كثيرا إلى الكتابة الإشبيلية كشيء متميز عن بقية الخطوط الأندلسية[٣] ، ويشير **ابن الأبار** فى كتابه **تكملة الصلة** إلى شارع الوراقين فى إشبيلية[٤] ، وعثر **ابن مزين** فى أحد حوانيته على رسالة نادرة جدا للرازى[٥] ، وكان **ابن سارة** الشنتريني الشاعر يسكن إشبيلية ، ويتعيش فيها من الوراقة[٦] ، وبلغ **أبو** زيد الجذامى شهرة واسعة فى مهنة الوراقة فى إشبيلية ، ولكنه تركها واستوطن قرطبة[٧] .

---

(١) جـ ٢ ص ٧١ .

(٢) النفح ، جـ ١ ص ٤٦٣ ، طبعة احسان عباس .

(٣) جيانجوس ، الترجمة الانجليزية لنفح الطيب ، جـ١ الملحق ٤٢ .

(٤) التكملة ، الترجمة ١٦٦٣ ، طبعة القاهرة .

(٥) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، الترجمة الإسبانية ، ص١٧٠ .

(٦) التكملة ، الترجمة ١٩٩٤ ، طبعة القاهرة .

(٧) التكملة ، الترجمة ١٦٣٤ ، طبعة مدريد .

ويمكن أن نعد بين هواة الكتب المشهورين فى إشبيلية : **شرف الدولة** ابن المعتمد بن عباد ، فهو من « أحسن الناس سمتا ، وأكثرهم صمتا ، تخجله اللفظة ، وتجرحه اللحظة ، حريص على طلب الأدب ، **مسارع فى اقتناء الكتب ، مثابر على نسخ الدواوين ،** مفتح فيها من خطه زهر الرياحين »[١] . وكان **ابن الأحدب** ، محمد بن عبد الله ، « قديم الطلب ، **جامعا للكتب والأصول** »[٢] ، وشهرة **أبو بكر بن العربى** ، محمد بن عبد الله ، طوفت بالعالم الإسلامى كله ، فهو « فقيه حافظ ، عالم متفنن أصولى ، محدث مشهور ، أديب رائق الشعر ، رئيس وقته » ، رحل إلى المشرق صحبة أبيه ، وأقام بالعراق ومصر والشام ، وتفقه هناك ، ثم انصرف إلى الأندلس ، وتولى قضاء إشبيلية ، ثم انتقل إلى قرطبة وحدث بها ، **وكان يبيت فى منزله بقرطبة والكتب عن يمينه وشماله ، وينام فى مكتبته إذا غلبه النوم ، دون أن يغير أثوابه ، وكلما استيقظ مديده إلى كتاب ، والمصباح مضىء لا يطفأ** »[٣] .

وأوقف **محمد بن خير الإشبيلى** كل وقته على تقييد الآثار ، والعناية بتحصيل الرواية ، وكان مقرئا مجودا ضابطا ، محدثا جليلا متقنا ، أديبا ، نحويا ، لغويا ، واسع المعرفة ، رضيًّا مأمونا ، كريم العشرة خيرا فاضلا ، ما صحب أحدا ، ولا صحبه أحد ، إلا أثنى عليه ، « وكتبه فى غاية الصحة والإتقان لكثرة ما عاناها ، وعالج تصحيحها بحسن خطه ، وجودة تقييده وضبطه ، وفى ذلك قطع دهره ، وأنفق حياته فلحق بالمتقدمين ، وأربى على المتأخرين ، وأدى ذلك إلى المغالاة فيها بعد وفاته ، حتى بلغت أثمانها الغاية ، ولم يكن له نظير فى هذا الشأن ، مع الحظ الأوفر من علوم اللسان » ، وعدد من سمع منه أو كتب إليه نيف ومائة رجل ، قد احتوى على أسمائهم برنامج له ضخم فى غاية الاحتفال والإفادة ، لا يعلم لأحد من طبقته مثله[٤] . وقد أهدى الفقيه الشهير أبو الوليد الباجى مكتبته إلى خطيب المسجد الجامع فى إشبيليه أبى الحكم بن الحجاج اللخمى[٥] .

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ، جـ ٤ ص ٩٦ . طبعة احسان عباس .

(٢) ابن بشكوال ، الترجمة ١١٥٦ .

(٣) الضبى ، الترجمة ١٧٩ .

(٤) التكملة ، الترجمة ١٤٢٤ ، طبعة القاهرة .

● وقد نشر برنامجه فى مدريد بعنوان : « فهرسة ابن خير » باعتناء كوديرة وخوليان ريبيرا ، عام ١٨٩٣ ، وعن هذه الطبعة نشر فى القاهرة تصويرا عام ١٩٦٣ . « المترجم » .

(٥) التكملة ، الترجمة ١٦٢٦ ، طبعة مدريد .

● **مكتبات المرية :**

وأخذت مدينة المرية بحظها من الشهرة فى هذا المجال ، ولو لم يكن قد عاش فيها من هواة الكتب المشهورين غير **أبى جعفر أحمد بن عباس** وزير زهير الصقلبى لكفى ، ويقول معاصروه « إنه بذ الناس فى وقته بأربعة أشياء : المال ، والبخل ، والعجب ، والكتابة » . « وكان حسن الكتابة ، جميل الخط ، مليح الخطاب ، غزير الأدب ، قوى المعرفة ، مشاركا فى الفقه ، حاضر الجواب ، **جماعا للدفاتر ، حتى بلغت أربعمائة الف مجلد ، وأما الدفاتر المخرومة فلم يوقف على عددها لكثرتها** ، وبلغ ماله خمسمائة ألف مثقال جعفرية سوى غير ذلك » . وكان « كلفا بالأدب ، مؤثرًا له على سائر لذاته ، جامعا للدواوين العلمية ، مقتنيا للجيد منها ، مغاليا فيها ، نفاعا من خصه بها ، لا يستخرج منها شيئًا لفرط بخله بها ، إلا لسبيلها ، حتى لقد أثرى كثير من الوراقين والتجار معه فيها ، وجمع منها ما لم يكن عند ملك » . و« لم يجتمع عند أحد من نظرائه ما اجتمع عنده من عين و ورق ، ودفاتر ، وخرق ، وآنية ، ومتاع وأثاث وكراع » . وكان يعشق لعبة الشطرنج ، وينفق فيها وقت فراغه[1] ..

ويذكرون فضلا عن عاشق الكتب الكبير هذا عبد الحق بن غالب **بن عطية** ، قاضى المرية ، وكان عالما بالتفسير والأحكام ، والحديث والفقه ، والنحو واللغة والأدب ، حسن التقييد ، له نظم ونثر ، « غاية فى الذكاء والدهاء ، والتهمم بالعلم ، **سرى الهمة فى اقتناء الكتب** ، توخى الحق ، وعدل فى الحكم ، وأعز الخطة »[2] . ويشير ابن الأبار فى التكملة إلى بربرى من صنهاجة ، أقام فى المرية ، يدعى **ميمون بن ياسين** ، وأنه اعتنى بالآثار واقتنى الأصول ، وهو الذىاشترى صحيح البخارى فى مكة من أبى ذر الهروى ، وابتاعه منه بمال جليل ، وأوصله إلى المغرب[3] . وإلى **نصر** الوراق ، ولحقه هذا اللقب لأنه كان يعمل فى الوراقة[4] .

---

(١) نفح الطيب جـ٣ ص ٥٣٥ ، طبعة إحسان عباس . والإحاطة لابن الخطيب ، جـ١ ص ٢٦٧ وما بعدها ، الطبعة الأولى ، تحقيق محمد عبد الله عنان .

(٢) نفح الطيب ، ص ٥٢٦ ، طبعة إحسان عباس ، والإحاطة جـ٣ ص ٥٣٩ ، طبعة عنان .ويشير ابن الأبار فى التكملة إلى بربرى من صنهاجة ، أقام فى المرية ، يدعى **ميمون بن ياسين** ، وأنه اعتنى بالآثار واقتنى الأصول ، وهو الذىاشترى صحيح البخارى فى مكة من أبى ذر الهروى ، وابتاعه منه بمال جليل ، وأوصله إلى المغرب . وإلى نصر الوراق ، ولحقه هذا اللقب لأنه كان يعمل فى الوراقة .

(٣) التكملة ، الترجمة ١٨٢٣ ، طبعة القاهرة .

(٤) المصدر السابق ، الترجمة ١٨٥٥ .

● مكتبات مالقة :

يذكرون من كبار النساخين والوراقين فى هذه المدينة **ابن مدرك الغسانى** ، محمد بن سعيد ، « وكان تاريخيًا نسابة ، بصيرا بالخطوط مميزًا لها ، حسن الخط ، موصوفًا بالإتقان والضبط ، ذا لسن وفصاحة ، واقتنى من الدواوين والدفاتر عظيمها ، فاق أهل بلده فى ذلك وكان وراقًا مشهورا[1] . ومنهم عيسى بن سليمان الرندى ، استوطن مالقه ، ورحل إلى المشرق ، وحج ، وأقام فى رحلته نحو ستة عشر عامًا ، ولقى جماعة من العلماء ، وقفل إلى المغرب ، وولى الإمامة بالمسجد الجامع بمالقة ، « وكان محدثًا ضابط متقنا ، **حسن الخط ، كتب الكثير** ، **على أنه امتحن بالأسر فذهب عنه كثير مما جلب**[2] .

وحفظ لنا المقرى البيتين التاليين لشاعر من مالقة ، أحمد بن رضى ، **وفيهما يفضل** الكتاب على ما عداه من متع الحياة :

ليس المدامـــة مما أســـتريح لـــه ولا مجاوبة الأوتـــــار والنغـــم
وإنمـــا لـذتى كتب أطالعهـــــا وخـــادمى أبدا فى نصرتى قلمى[3]

وكان **عثمان بن يحيى** بن محمد ، من بيت بنى منظور الإشبيليين ، أحد بيوت الأندلس المعروف بالنباهة ، « صدرًا فى علماء بلده ، أستاذا ممتعا ، من أهل النظر والاجتهاد والتحقيق ، ثاقب الذهن ، أصيل البحث ، مضطلعا بالمشكلات ، مشاركا فى فنون ، من فقه وعربية برز فيهما ، إلى أصول وقراءات وطب ومنطق ، وتزوج ابنة الفقيه أبى على بن الحسين ، فاستقرت عنده كتب والدها ، فاستعان بها على العلم والتبحر فى المسائل ، وقيد بخطه الكثير ، واجتهد وصنف ، وأقرأ ببلده ، متحرفا بصناعة التوثيق ، فعظم به الانتفاع[4] **وورث** محمد بن أحمد من بلش ، حفيد القاضى الشهير أبى الفضل **المكتبة الممتازة التى خلفها جده**[5] .

---

(١) المصدر السابق ، الترجمة ١٤١٢ .

(٢) نفح الطيب ، جـ ٢ ص ٣٨٠ ، طبعة إحسان . والذيل والتكملة ، السفر الخامس ، الترجمة ٩٠٧ ، طبعة إحسان عباس .

(٣) النفح ، جـ٣ ص ٣٢٥ .

(٤) الإحاطة ، جـ٤ ص ٧٦ ، طبعة عنان .

(٥) الإحاطة ، المجلد ، الورقة ١٦٣ من مخطوطة الإسكوريال .

وعرفت مدينة **رندة** عاشقًا عظيمًا للكتب ، محمد بن عبد الرحمن **اللخمى** ، وهو « رندى المنشأة ، إشبيلى الأصل ، يرجع بيته ، وبيت بنى حجاج ، وبيت بنى عباد ، إلى جرثومة واحدة ، وانتقل سلفه إلى رندة فى دولة بنى عباد » ، وكان « علما فى الفضيلة والسراوة ، ومكارم الأخلاق ، كريم النفس ، واسع الإيثار ، متين الحرمة ، عالى الهمة ، كاتبا بليغًا ، أديبًا شاعرًا ، خطيبًا ، فصيح القلم ، زاكى الشيم ، مؤثرا لأهل العلم والأدب ، برا بأهل الفضل والحسب ، نفق بضاعة الطلب ، وأحيا معالم الأدب ، وأكرم العلم والعلماء ، ولم تشغله السياسة عن النظر ، ولا عاقه تدبير الملك عن المطالعة والسماع ، والإفراط فى اقتناء الكتب ، حتى ضاقت قصوره عن خزائنها ، وأثرت أنديته عن ذخائرها » وقدم على غرناطة أيام السلطان أبى عبد الله محمد بن محمد بن نصر ، فألحقه بكتابه ، وأقام يكتب له فى ديوان الإنشاء ، وتقلد فى عهد خلفه الوزارة والكتابة ، ولقب بذى الوزارتين[1] .

● **مكتبات بطليوس :**

وتدين بطليوس بشهرتها فى هذا المجال ، وفى عالم الأدب ، إلى العالم المشهور بلقبه : المظفر بن الأفطس أميرها ، « وكان كثير الأدب ، جم المعرفة ، محبًا لأهل العلم ، جماعة للكتب ، ذا خزانة عظيمة ، لم يكن فى ملوك الأندلس من يفوقه فى أدب ومعرفة » . وألف كتابه **المعنون « بالتذكرة » ، والذى اشتهر أيضًا بالكتاب « المظفرى »** ، وجاء « فى خمسين مجلدا ، يشتمل على فنون وعلوم من مغاز وسير ، ومثل وخبر ، وجميع ما يختص به علم الأدب » ، وكان يحضر مجالس العلماء للمذاكرة فيفيد ويستفيد[2] .

وكان فى مدينة **شلب** وراقون أيضًا ، [ويقص علينا الشاعر **محمد بن حبوس الفاسي** : دخلت مدينة شلب من بلاد الأندلس ، ولى يوم دخلتها ثلاثة أيام لم أطعم فيها شيئًا ، فسألت عمن يقصد إليه فيها ، فدلنى بعض أهلها على رجل يعرف **بابن الملح** ، **فعمدت إلى بعض الوراقين** ، فسألته سحاءة ودواة ، فأعطانيهما ، فكتبت أبياتا أمتدحه بها ، وقصدت داره ، فإذا هو فى الدهليز ، فسلمت عليه ، فرحب بى ورد على أحسن رد ، وتلقانى أحسن لقاء ، وقال : أحسبك غريبا ، قلت : نعم ، فقال لى : من أى طبقات الناس

---

(١) المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٤٤٤ - ٤٤٦ ، طبعة عنان .

(٢) التكملة ، الترجمة ١١٠٢ ، طبعة مصر ، ونفح الطيب ، جـ٣ ص ٣٨٠ ، طبعة إحسان عباس .

أنت ؟ ، فأخبرته أني من أهل الأدب ، من الشعراء ، ثم أنشدته الأبيات التى قلت ، فوقعت منه أحسن موقع ، فأدخلنى إلى منزله ، وقدم إلى الطعام ، وجعل يحدثنى فما رأيت أحسن محاضرة منه ، فلما آن الانصراف ، خرج ثم عاد ومعه عبدان يحملان صندوقا حتى وضعه بين يدى ، ففتحه فأخرج منه سبعمائة دينار مرابطية ، فدفعها إلىّ وقال : هذه لك ثم دفع إلىّ صرة فيها اربعون مثقالا ، وقال : هذه من عندى . فتعجبت من كلامه ، وأشكل على جدا ، وسألته : من أين كانت هذه لى ؟ ، فقال لى : سأحدثك : إنى وقفت أرضا من جملة مالى للشعراء ، غلتها فى كل سنة مائة دينار ، ومنذ سبع سنين لم يأتنى أحد لتوالى الفتن التى دهمت البلاد ، فاجتمع هذا المال حتى سيق إليك ، وأما هذه فمن حر مالى ، يعنى الأربعين دينارا ، فدخلت عليه جائعًا فقيرًا ، وخرجت عنه شبعان غنيا] [1] .

وكان **القنطرى** محمد بن عبد الله ، من أهل شلب ، من بيت فقه وحديث ، بعيد الصيت فى الحفظ والإيقان والضبط ، جمّاعة للدواوين والكتب ، مشاركا فى فنون من العلم [2] .

● **مكتبات طليطلة :**

وعن طليطلة حدث ولا حرج ، فقد احتلت ، كمركز للتعليم ، شهرة مستفيضة على امتداد العصور الوسطى ، وكان يرحل إليها علماء أوربا ليدرسوا العلوم العربية ، وفيها ظهرت مبعثرة بقايا مكتبة **الحكم الثانى** أيام فتنة البربر ، وعاش **بنو ذى النون** أمراؤها ، وبلغ حبهم للكتب غايته ، حتى أنهم كانوا يستولون على المكاتب الخاصة بالقوة ، سرقوا مكتبة الروشى وكان من أعظم هواة الكتب فى المدينة . وعندما شبت النار فى أسواق مدينة طليطلة وأحرقتها كانت دار أحمد بن محمد ويعرف **بابن ميمون** فى الفرائين ، فاحترقت الدار إلا الغرفة التى كانت فيها الكتب ، وكان فى ذلك الوقت فى الرباط ، « وعجب الناس من ذلك وكانوا يقصدون البيت وينظرون إليه » .

وكان ابن ميمون هذا « قد جمع من الكتب كثيرًا فى كل فن ، وكانت جلها بخط يده ، وكانت منتخبة مضبوطة صحاحًا ، أمهات لايدع فيها شبهة مهملة ، وقل ما يجوز عليه فيها خطأ ولا وهم ، وكان لايزال يتتبع ما يجده فى كتبه من السقط والخلل بزيادة فى اللفظ أو نقصان منه فيصلحه حيث ما وجده ، ويعيده إلى الصواب ، وكانت كتبه ،

(١) المعجب ، ص ٢١٤ ، طبعة العريان .

● اقتصر المؤلف على الشاهد من القصة وأتيت بها كاملة لدلالتها الأدبية والاجتماعية. « المترجم» .

(٢) التكملة ، الترجمة ١٣٧٧ ، طبعة مصر . « المترجم » .

وكتب صاحبه إبراهيم بن محمد أصح كتب بطليطلة »[1] . واعتنى **محمد بن بن إسماعيل** بلقاء الشيوخ ، يجمع الكتب والأصول ، « وكانت عنده جملة كثيرة من أصول علماء طليطلة وفوائدهم ، وكان ذاكرا لأخبارهم وأزمانهم ، **فكان يحتاج إليه بسببها ، ويسمع** عليه فيها »[2] .

ويذكر ابن بشكوال أن **ابن الشيخ** ، سليمان بن محمد ، كان خطاطا بارع الخط فى المصاحف ، وأفنى عمره فى كتابتها[3] . وأن **ابن هلال القيسى** ، **قاسم** بن محمد ، نسخ جل كتبه بخطه ، « كان كثير الكتب فى الفقه والآثار ، حسن الضبط لها ، ثقة فى روايته »[4] . وكان ابن الحصار ، عبد الرحمن بن محمد ممن « عنى بالرواية والجمع لها ، والإكثار منها ، **فكان واحد عصره فيها ، وكانت الرحلة** فى وقته إليه ، وكانت الرواية أغلب عليه من الدراية ، وكان صدوقا فيما رواه منها . وكان حسن الخط ، جيد الضبط ، وكانت أكثر كتبه بخطه ، وكان صبورًا على النسخ ، ذكر عنه أنه نسخ مختصر ابن عبيد وعارضه فى يوم واحد ، وأنه كتب بمدة واحدة خمسة عشر سطرا »[5] .

ورحل **ابن حاتم التميمى** ، حاتم بن محمد إلى المشرق ولقى عددا من علمائه ، ثم انصرف إلى الأندلس وسكن طليطلة ، وكان « ممن عنى بتقييد العلم وضبطه ، ثقة فيما يروى ، وكتب **أكثر كتبه بخطه ، وتأنق فيها ، وكان حسن الخط** »[6] . واشتهر **ابن الحنشى** ، هشام بن عمر ، بأنه من أهل الخير والانقباض والثروة ، ورحل إلى المشرق حاجًا ، ولقى بها جماعة من العلماء ، **وجلب كتبا كثيرة حسانا ، وكتب بخطه كثيرا**[7]. ونشير أخيرا إلى **عبد الرحيم بن محمد** بن قاسم النحوى من وادى الحجارة ، وكان من أهل المعرفة والفهم ، والذكاء والحفظ ، **قوى الأدب** ، كثير الكتب »[8] .

---

(١) ابن بشكوال ، الترجمة ٣٧ ، ١٩٨ ، طبعة الدار المصرية .
(٢) المصدر السابق ، الترجمة ١٢٧٣ .
(٣) المصدر السابق ، الترجمة ٤٤٨ .
(٤) المصدر السابق ، الترجمة ١٠١٩ .
(٥) المصدر السابق ، الترجمة ٧٠٤ .
(٦) المصدر السابق ، الترجمة ٣٥٤ .
(٧) المصدر السابق ، الترجمة ١٤٢٥ .
(٨) المصدر السابق ، الترجمة ٨٣٧ .

● مكتبات سرقسطة :

رغم أن سرقسطة كانت أبعد مدن الإمبراطورية الإسلامية الإسبانية عن العاصمة ، وأنها مقاطعة تقع على الحدود ، ويكثر فيها العسكريون ، ويسبق الاهتمام بشئون الحرب هواية الكتب ، فقد مسها تأثير حب العلم السائد ، ولو أن ذلك جاء متأخرا وعابرا ، ويتجلى ذلك واضحا فى أسرة بنى **هود** الذين حكموا المدينة فى أواخر أيامها الإسلامية ، واشتهر من بينهم **المقتدر** ، وكان فيلسوفا وفلكيا ورياضيا ، ولايزال اسمه محفوظا تحمله أنقاض قصر الجعفرية ، ولم يكن **المستعين** بأقل شهرة منه ، وأهداه ابن بقلارس كتابه المشهور فى الطب ، وأسماه المستعينى ، **وتزهو بعض المكتبات الأوربية اليوم بأنها تملك نسخًا مخطوطة منه**[1] . ولكن ما إن بدأت هذه الهواية تشب على ساقيها وتزدهر فى المنطقة ، وكانت شائعة على نحو كبير فى بقية المدن الأندلسية ، حتى استولى عليها الفونسو المقاتل ، ومع ذلك بقيت لدينا بعض الإشارات عن محبى الكتب هؤلاء فى قلعة أيوب ، وسرقسطة ، ووجدوا أنفسهم مكرهين على الهجرة بعد أن سقطت المقاطعة فى يد النصارى . ومن بين هؤلاء الحواة يشير ابن الأبار فى كتابه تكملة الصلة إلى **ابن سندور بن منتيل** ، عبد الله بن محمد ، وهو من سرقسطة ، « وكان معنيا بالرواية ولقاء الشيوخ ، وكتب بخطه علما كثيرا ودواوين جمة »[2] .

● مكتبات بلنسية :

كانت بلنسية المدينة المختارة للوراقين المهاجرين من مقاطعة أرغون ، فيها أقام **ابن سيدراى الكلابى** ، محمد بن سليمان مكتبته الضخمة ، بعد أن هرب من مدينته قلعة أيوب ، وقد وقعت فى يد النصارى إثر هزيمة المسلمين فى **وقعة كتندة** ، « فكان يبيع الكتب فى دكان له ، وكان أبوه أيضًا وراقا »[3] . وفيها استقر **مطروح التجيبى** ، محمد بن عبد الله ، وكان من قبل فى سرقسطة « وراقا يبيع الكتب ، إخباريا أديبا ، حلو النادرة فكيها » وجمع شعر ابن الجزار السرقسطى وسماه « روضة المحاسن وعمدة المحاسن »[4] ، وفى دكانه كان يجتمع الأدباء البلنسيون ، تجذبهم إليه ثقافته الواسعة ،

---

(١) سيمونيت ، المعجم ، ص ١٤٦ .

(٢) الترجمة ١٩٧٣ .

(٣) التكملة ، الترجمة ١٣٢٠ ، طبعة القاهرة .

(٤) حققه د . منجد مصطفى بهجت ، ونشره المجمع العلمى العراقى ، بغداد ١٤٠٩ = ١٩٨٨ «المترجم»

وشخصيته البشوش الراضية ، ومسلكه الرصين ، ومعاملته اللطيفة[1] . **وإليها انتقل ابن الصغير** ، من هواة الكتب فى سرقسطة ، ومن كبار تجارها ، وخلفه من بعده ابنه أحمد ، وأصبح نسّاخا ، **وله خبرة قوية بأنواع** الكتب وفنون المخطوطات ، وجمع مكتبة جيدة ، **وعين أخيرًا خازنًا لمكتبة أمراء الموحدين** .

ومن هؤلاء المهاجرين إلى بلنسية واشتهروا بهواية الكتب أو التجارة فيها : **ابن نوح الغافقى** ، محمد بن أيوب ، وهو أصلا من سرقسطة ، « ولم يكن فى وقته بشرق الأندلس نظير له تفننا واستبحارا . كان رأسا فى الراسخين من العلماء ، وصدرا فى المشاورين من الفقهاء ، قد برع فى علوم اللسان ، وتمرس حياته كلها بالمسائل ، وتقدم فى الفتيا ، وأطلع على الآداب ، واضطلع بالغريب ، وشارك فى التفسير ، وتحقق بالقراءات . وأما عقد الشروط فإليه انتهت الرياسة فيه ، وبه اقتدى من بعده ، لم يسبقه أحد من أهل زمانه إلى ما تميز به فى ذلك حتى دونت عنه ، مع حسن الخط ، وبراعة الضبط، وتدقيق النظر ، والإمامة فى المعارف ، والبصر بالحديث ، والحفظ للأنساب والأخبار ، والإيضاح لما استغلق من معانى الأشعار الجاهلية والإسلامية ، وله تنابيه فى فنون شتى ، وتقييدات شاملة النفع والإفادة »[2] .

وكان **محمد بن محمد بن سليمان الأنصارى** النحوى ، **ويعرف بابن أبى البقاء** نسبة **إلى خاله ، من سرقسطة أصلا** ، **واستقر** فى بلنسية ، وعنى بالسماع والرواية ، مع الحظ الوافر من المعرفة والدراية ، يتحقق بعلم اللسان ، ويتقدم فى العربية ، عاكفًا على إقرائها والتعليم بها ، قائما على كتبها ، بصيرًا بصناعة الحديث ، مكبا عليها ، معنيا بها ، معانيا للتقييد ، مع حسن الخط وجودة الضبط . وكتب بخطه علما جما ، وربما تعيش من الوراقة أوقاتا لإقلاله »[3] .

ونعرف غير هؤلاء من هواة الكتب والوراقين من أهل بلنسية وما يصاقبها : **ابن غطوس** ، محمد بن عبد الله ، « وكان يكتب المصاحف وينقطها ، وانفرد فى وقته بالإمامة فى ذلك ، براعة خط ، وجودة ضبط ، ويقال إنه كتب ألف نسخة من كتاب الله عز وجل ، ولم يزل الملوك ومن دونهم يتنافسون فيها إلى اليوم ، وكان قد آلى على نفسه

---

(١) المصدر السابق ، الترجمة ١٥٤٦ .

(٢) المصدر السابق ، الترجمة ١٥٥٦ .

(٣) المصدر السابق ، الترجمة ١٥٦٢ .

ألايخط حرفا من غيره ، ولا يخلط به سواه تقربا إلى الله ، وتنزيها لتنزيله ، فما حنث فيما أعلم ، وأقام على ذلك حياته كلها ، خالفا أباه وأخاه فى هذه الصناعة التى اشتهروا بها »[1] .

وكان **الأروشى** عبد الله بن حيان ، نزيل بلنسبة ، فقيها محدثًا عارفا ، وله همة عالية في اقتناء الكتب وجمعها ، وجمع من ذلك شيئًا عظيمًا وذكر ابن علقمة فى تاريخه أن ابن **ذى النون** صاحب بلنسية **أخذ كتب الأروشى من داره ، وسيقت إلى قصره ، وبلغت مئة وثلاثة وأربعين عدلا من أعدال الحمالين ، يقدر كل عدل منها بعشرة أرباع ، وقيل أنه كان قد أخفى منها نحو الثلث**[2]. **وورث على بن هذيل البلنسى مكتبة أبى داود المقرى** ، زوج والدته ، وكانت تضم كثيرًا من المخطوطات القديمة[3] . وكان ابن عيشون المعافرى ، عبيد الله بن عبدالله من «لبرقاط» عمل أنيشة، من ثغور بلنسية الشرقية ، صاحب ثروة ويسار ، وبنى المسجد المنسوب إليه على مقربة من باب القنطرة من داخل بلنسية ، ووقف عليه دار السكنى من يؤم به، وكان نهاية فى الصلاح والفضل، وأعمال البر والخير ، وجيها متواضعًا ، لم يتزوج قط ، إخباريا محققا ، واقتنى من الدواوين والدفاتر كثيرًا »[4] .

واشتهر **ابن روبل** البلنسى بجمع الدواوين والدفاتر وتصنيفها[5] ، ومثله **أبو الحسن السرى** ، نسبة إلى سرة قرية قريبة من بلنسية[6] ، **وأبو عمر بن عياض الليرى** ، نسبة إلى لرية[7] ، **وابن هارون الشونى** ، محمد بن حسين ، نسبة إلى شون من أعمال بلنسية ، « وكان مشاركا فى الفقه ، عاكفا على عقد الشروط ، وولى الأحكام ببلنسية مرارا ، وكتب بخطه علما كثيرا » من بينها : رسالة ابن أبى زيد فى الفقه المالكى ، ومختصر الطليطلى ، والتيسير لأبى عمرو الدانى فى القراءات . **وابن سعدون الأزدى** ، عبد الله بن محمد ، « وكان من أهل المعرفة الكاملة بالآداب وفنونها ، ماهرا فى العربية واللغة ،

---

(١) المصدر السابق ، الترجمة ١٥٧١ .

(٢) الضبى ، الترجمة ٩٢٠ ، وابن باشكوال ، الترجمة ٦٣٤ .

(٣) التكملة ، الترجمة ١٨٥٨ ، طبعة مدريد .

(٤) المصدر السابق ، الترجمة ٢١٧٦ ، طبعة القاهرة .

(٥) ابن بشكوال ، الترجمة ١٤٣٠ ، طبعة مدريد .

(٦) التكملة ، الترجمة ١٩٢٢ ، والجذوة ، ص ٣٠٨ ، طبعة مدريد .

(٧) التكملة ، الترجمة ١٥٦١ ، طبعة مدريد .

أنيق الوراقة ، بديع الخط ، كتب بخطه علما كثيرا ، واستكتبه بعض الرؤساء فبرع نظمه ونثره »[1] . وكان ابن لوميل الأندى ، نسبة إلى أوندة قريبا من بلنسية ، يتعيش من الوراقة ، إلى جانب قيامه بأعمال التوثيق[2] . ومحمد بن مروان ، ويعرف بالأديب ، أصلا من لرية وسكن بلنسية ، « كان حسن الوراقة معروفا بذلك ، وكتب بخطه علما كثيرا ، وتولى خطة السوق »[3] . وابن نفيس العبدرى ، محمد بن عبد الوهاب ، وأصله من طرطوشة ، ولجأ إلى بلنسية ، كان ضابطا حسن الوراقة ، وكتب بخطه علما كثيرا ، وكان يلقب بالوراق[4] .

وكان ابن منتيال الوراق ، عبد الله بن إبراهيم، من أهل «مربيطر» وسكن بلنسية، ورحل حاجا فسمع من جلة العلماء ، وكتب بخطه علما كثيرا على رداءته ، «وقفل إلى بلده»، وكان له دكان «بالقيسارية» يقعد فيه للتجارة ، ويبيع الكتب »[5] . وخلف بن عمر ، ويعرف بالأخفش ، من جزيرة شقر ، وسكن بلنسية ، كان يعلم العربية والآداب ، حسن التفهيم والتلقين ، مع المعرفة بالعروض ، ووراقا محسنا ، ضابطا يتنافس في ما يكتب ، ويغالى به[6] .

وعرفت بلنسية مدرسة متميزة في الخط العربى ، كان لها طابعها الخاص ، ولمن يريد المزيد يمكن أن يعود إليه في المقال الخاص به ، ونشر فى الجزء الثانى من هذه المختارات ، فى القسم الخاص بالتاريخ العربى لمدينة بلنسية[7] .

● **مكتبات مدن شرقي اسبانيا :**

وبين مدن منطقة الشرق الإسبانى من اشتهر بجمال الخط ، أو بهواية الكتب ، فقد كان ابن خشين ، محمد بن محمد ، من جزيرة شقر ، « يكتب المصاحف ، ولم يكن أحد من أهل زمانه يدانيه في المعرفة بنقطها ، والبصر برسمها ، مع حسن الخط والإتقان ، وكان مع ذلك حافظا للأشعار والأخبار »[8] .

---

(١) المصدر السابق ، الترجمة ٢١١٠ ، طبعة مصر .

(٢) المصدر السابق ، الترجمة ١٦١١ ، طبعة مدريد .

(٣) المصدر السابق ، الترجمة ١٢٩٤ ، طبعة مصر .

(٤) المصدر السابق ، الترجمة ١٣٥٥ .

(٥) المصدر السابق ، الترجمة ٢٠٩٨ .

(٦) المصدر السابق ، الترجمة ٨١١ .

(٧) يشير إلى المختارات من أعماله، ونشرت في مجلدين بعنوان: «نبذ ومقالات» وعنها أترجم هذه الدراسات. « المترجم » .

(٨) التكملة ، الترجمة ١٦٤٤ ، طبعة مصر .

« ومنهم ابن **سعادة** ، أبو عبد الله محمد بن يوسف ، مرسى سكن شاطبة ، ودار سلفه بلنسية ، سمع **أبا على الصدفى** واختص به ، وأكثر عنه ، وإليه صارت دواوينه وأصوله العتاق ، وأمهات كتبه الصحاح ، لصهر كان **بينهما** » . ورحل إلى المشرق ، وطوف بكثير من مدنه ، ولقى جلة علمائه ومنهم الإمام الغزالى ، « وقد حصل فى رحلته علوما جمة ورواية فسيحة ، وكان عارفا بالسنن والآثار ، مشاركا فى علم القرآن وتفسيره ، حافظا للفروع ، بصيرا باللغة والغريب ، ذا حظ من علم الكلام ، مائلا إلى التصوف ، مؤثرا له ، أديبا بليغا خطيبا فصيحا ، ينشىء الخطب ، مع الهدى والسمت والوقار والحلم ، جميل الشارة ، محافظا على التلاوة ، بادى الخشوع ، راتبا على الصوم ، وولى خطة الشورى بمرسية مضافا إلى خطبة الجمعة بجامعها ، وأخذ فى إسماع الحديث وتدريس الفقه ، ثم ولى القضاء بعد انقراض دولة الملثمين ، ونقل إلى قضاء شاطبة فاتخذها وطنا ، وكان يسمع الحديث بها وبمرسية وبلنسية ، ويقيم الخطب أيام الجمع فى جوامع هذه الأمصار الثلاثة متعاقبا عليها » . « وكانت عنده **أصول حسان** بخط عمه ، مع الصحيحين بخط الصدفى فى سفرين ، **ولم يكن عند شيوخنا مثل كتبه فى صحتها وإتقانها وجودتها** ، ولا كان فيهم من رزق عند الخاصة والعامة من الحظوة والذكر وجلالة القدر ما رزقه »[1] .

ولكن عاشق الكتب الذى يحق لشاطبة أن تفخر به أكثر من غيره هو : أحمد بن محمد بن أبى الخليل ، يعرف **بالعشاب** ، **وبابن الرومية** ، « كان نسيج وحده ، وفريد دهره ، وغرة جنسه ، إماما فى الحديث ، حافظا ، ناقدا ، ذاكرا تواريخ المحدثين ، وأنسابهم ومواليدهم ووفاتهم ، وتعديلهم ، وتجريحهم ، عجيبة نوع الإنسان فى عصره ، وما قبله وما بعده ، فى معرفة علم النبات ، وتمييز العشب ، وتحليتها ، وإثبات أعيانها ، على اختلاف أطوار منابتها ، بمشرق أو مغرب ، حسا ، ومشاهدة ، وتحقيقا ، لا مدافع له فى ذلك ، ولا منازع ، حجة لا ترد ولا تدفع ، إليه يسلم فى ذلك ويرجع . قام على الصنعتين ، لوجود القدر المشترك بينهما ، وهما الحديث والنبات ، إذ موادهما الرحلة والتقييد ، وتصحيح الأصول ، وتحقيق المشكلات اللفظية ، وحفظ الأديان والأبدان ، وغير ذلك » .

---

(١) الضبى ، الترجمة ٣٠٨ ، والتكملة ، الترجمة ١٣٩٠ طبعة مصر ، ونفح الطيب ، جـ ٢ ص ١٥٨ ، ١٦٠ ، طبعة إحسان عباس .

« وكان زاهدا فى الدنيا ، مؤثرا بما فى يديه منها ، موسعا عليه فى معيشته ، كثير الكتب ، جماعا لها ، فى كل فن من فنون العلم ، سمحا لطلبة العلم ، ربما وهب لملتمسه منها الأصل النفيس ، الذى يعز وجوده ، احتسابا وإعانة على التعليم ، له فى ذلك أخبار منبئة عن فضله ، وكرم صنعه ، وكان كثير الشغف بالعلم ، والدؤوب على تقييده ومداومته سهر الليل من أجله ، مع استغراق أوقاته ، وحاجات الناس إليه ، إذ كان حسن العلاج فى طبه الموروث ، الموضوع ، لثقته ودينه » .

« جال الأندلس ، ومغرب العدوة ، ورحل إلى المشرق ، فاستوعب المشهور من أفريقية ، ومصره ، وشامه ، وعراقه ، وحجازه ، وعاين الكثير مما ليس بالمغرب ، وعارض كثيرا فيه ، كل ما أمكنه ، بمن يشهد له بالفضل فى معرفته ، ولم يزل باحثا عن حقائقه ، كاشفا عن غوامضه ، حتى وقف منه على ما لم يقف عليه غيره ، ممن تقدم فى الملة الإسلامية ، فصار واحد عصره فردا ، لا يجاريه فيه أحد بإجماع من أهل ذلك الشأن » . « وجلب كتبا غريبة » .

« كان سنيا ظاهرى المذهب ، منحيا على أهل الرأى ، شديد التعصب لأبى محمد على بن أحمد بن حزم ، على دين متين ، وصلاح تام ، وورع شديد ، انتشرت عنه تصانيف أبى محمد بن حزم ، واستنسخها ، وأظهرها ، واعتنى بها ، وأنفق عليها أموالا جمة ، حتى استوعبها جملة ، حتى لم يشذ له منها إلا مالا خطر له ، مقتدرا على ذلك بجدته ويساره »[1] .

وتميز فى مرسية كخطاط فنان على بن ديسمة ، وكان يتعيش من نسخ المخطوطات وبيع الكتب[2] ، وابن حمال ، محمد بن عبد الرحمن ، « وكان يكتب المصاحف ، ويجيد نقطها ، ويعرف رسمها ، مع براعة الخط ، وحسن الوراقة » ، « وولى الصلاة والخطبة ببلده ، واستأدبه بعض الأكابر لبنيه ، وحدث بيسير »[2] . ويذكرون من هواة الكتب أيضا : ابن الفرس ، محمد بن عبد الرحيم ، من أهل غرناطة ، وكان جدهم الداخل إلى الأندلس قد نزل سرقسطة ، ثم انتقل ولده إلى قرطبة ، وخرجوا منها فى الفتنة البربرية إلى إلبيرة ، ونزلوا بها . وطوف بمدن الأندلس يطلب العلم ، ورحل إلى المشرق من

(١) الإحاطة ، جـ ١ ص ٢١٥ ، طبعة عنان .

(٢) التكملة ، الترجمة ١٦٥٢ ، طبعة مصر .

أجل هذه الغاية ، ولقى هنا وهناك عددا كبيرا من جلة العلماء ، ثم عاد إلى بلده . « وكان عالما ، حافلا ، راوية مكثرا يتحقق بالقراءات والفقه ، ويشارك فى الأحاديث والأخبار ، مع البصر بالفتوى ووجوهها ، وضبط الروايات وتحصيلها ، والتنبيه على مواضع الخلاف وحفظها ، والاعتناء بجميع الأقاويل وإحصائها » . « وكان فى وقته أحد حفاظ الأندلس فى المسائل مع المعرفة بالآداب ، إلى حسن الضبط وجودة الخط ، **وكانت أصوله أعلاقا نفيسه، لا نظير لها**، جمع منها عددا عظيما وكتب بخطه أكثرها»[1] .

واشتهر **ابن غلبون** المرسى ، محمد بن غلبون ، « وكان ذا عناية بالرواية ، وولى حسبة السوق ببلده ، وكان من النبهاء ، **حسن التقييد والخط** مشاركا فى فنون غير الحديث » ، « وكانت له خزانة مملوءة **أصولا عتيقة ، ودفاتر أنيقة ، ضاعت لاختلاله قبل وفاته بمدة ، وبيع أكثرها وهو لا** يشعر »[2] .

● مكتبات غرناطة :

مع تقدم حركة الاسترداد المسيحية انكمش الساسة والعلماء فى المدن التى استولى عليها النصارى إلى المقاطعات الإسلامية ، وأصبحت غرناطة الملاذ الوحيد ، والملجأ القريب ، لكثير من العلماء واحتفظت بهذه الهواية متوهجة زمنا طويلا ، وأصبحت المكتبات وعشاق الكتب فيها أكثر عددا مما فى أية مدينة إقليمية أخرى ، فقد التقى فيها ما كان أصيلا من عمل أهلها ، أو وفد إليها مع القادمين من المهاجرين .

وإذا استطعنا أن نتوقف قليلا فى زيارتنا العاجلة لمكتبات إسبانيا الإسلامية، وفيما يتصل بموضوعى سوف يكون ذلك ثقيلا للغاية، ودخلنا مكتبة بنى الأحمر الملكية فى غرناطة، وتعرفنا إلى العلماء الذين يقومون عليها ويوجهون العمل فيها، ثم نقوم بعدها بجولة بين المكتبات الخاصة، فنرى مكتبة **ابن الزبير، أحمد** بن إبراهيم، و «كان خاتمة المحدثين، وصدر العلماء والمقرئين، نسيج وحده فى حسن التعليم ، والصبر على التنسمع ، والملازمة للتدريس ، لم تختل له، مع تخطى الثمانين ، حاسة ، ولا لحقته سآمة ، كثير الخشوع والخشية ، مسترسل العبرة ، صليبا فى الحق ، شديدا على أهل البدع ، ملازما للسنة ، جزلا مهيبا ،

(١) المصدر السابق ، الترجمة ١٣٩٤ .

(٢) المصدر السابق ، الترجمة ١٦٩٠ .

معظما عند الخاصة والعامة ، عذب الفكاهة ، طيب المجالسة ، حلو النادرة ، يؤثر عنه فى ذلك حكايات ، لا تخل بوقار ، ولا بجلال منصب » .

ونشأت بينه وبين المتغلب بمالقة من الرؤساء التجيبيين من بنى اشقيلولة وحشة ، أكدتها سعاية بعض من استهواهم رجل ممخرق من المشعوذين ، ومنتحلى الكرامة ، فتعقبوا ابن الزبير ، فترك مالقة إلى غرناطة ، فكبسوا منزله لحينه ، واستولوا على ذخائر كتبه ، وفوائد تقييده عن شيوخه ، مما طالت له الحسرة ، وجلت فيه الرزية ، ولكن سلطان غرناطة أبا عبد الله بن نصر ، عرف حقه ، وأكرم مثواه ، ورد مكتبته ثانية ، وتوفى بغرناطة ، « وكانت جنازته بالغة أقصى مبالغ الاحتفال ، نفر لها الناس من كل أوب ، واحتمل طلبة العلم نعشه على رؤوسهم إلى جدثه ، وتبعه ثناء جميل ، وجزع كبير »[1] .

وكان ابن فركون ، أحمد بن سليمان « شعلة من شعل الذكاء والإدراك ... نظم الشعر ، وقيد كثيرا وسبق أهل زمانه فى حسن الخط ، سبقا أفرده بالغاية القصوى ، فيراعه اليوم المشار إليه باللطف والإتقان » .

وكان الطراز ، محمد بن سعيد ، « مقرئا جليلا ، ومحدثا حافلا ، به ختم بالمغرب هذا الباب البتة ، وكان ضابطا متقنا ، ومقيدا حافلا ، بارع الخط ، حسن الوراقة ، عارفا بالأسانيد والطرق والرجال وطبقاتهم ، ماهرا فى صناعة التجويد ، مشاركا فى علم العربية والفقه والأصول ، وغير ذلك . كاتبا نبيلا ، ثقة فيما روى ، عدلا ممن يرجع إليه فيما قيد وضبط ، لإتقانه وحذقه . كتب بخطه كثيرا ، وترك أمهات حديثية اعتمدها الناس بعده ، وعولوا عليها ، وتجرد آخر عمره إلى كتاب « مشارق الأنوار » تأليف القاضى عياض ، وكان قد تركه فى مبيضة ، فى أنهى درجات النسخ والإدماج والإشكال ، وإهمال الحروف حتى اخترمت منفعتها ، فتولى أمره ، وأصلح حاله « حتى استوفى ما نقل منه المؤلف ، وجمع عليها أصولا حافلة ، وأمهات جامعة ، من الأغربة وكتب اللغة ، فتخلص الكتاب على أتم وجه وأحسنه ، وكمل من غير أن يسقط منه حرف ولا كلمة ، والكتاب فى ذاته لم يؤلف مثله »[2] .

واشتهر ابن لب[3] ، محمد بن محمد ، من أهل مالقة و « كان ذاكرا للعلوم القديمة ، معتنيا بها ، عاكفا عليها ، متقدما فى علمها على أهل وقته ، لم يكن يشاركه أحد فى

(١) الاحاطة ، جـ ١ ص ١٩٥ - ٢٠٠ ، طبعة عنان .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٤١ - ٤٢ .

(٣) كلمة لب إسبانية وهى Lubo أو Lopo ومعناها ذئب .

معرفتها ، من الرياضيات والطبيعيات والإلهيات ، ذاكرا لمذاهب القدماء ، ومآخذهم فى ذلك . حافظا جدا ، ذاكرا لمذاهب المتكلمين من الأشعرية وغيرهم » . « وكان له أدب فى التطواف وخصوصا بأرض النصارى ، يتكلم مع الأساقفة فى الدين فيظهر عليهم » ، « ووصى قبل موته بوصايا من ماله ، فى صدقات وأشباهها ، **وحبس داره وطائفة من كتبه على الجامع الكبير بمالقة**[1] .

ولمعرفة القدر الذى بلغته الهواية فى غرناطة ليس علينا إلا أن نقترب من **شارع الورّاقين** . لنرى كيف أن الموثقين والفقهاء تخلوا عن مهنهم تلك ، وهى قليلة العائد ، متواضعة البريق ، واندمجوا فى مهنة بيع الكتب ، وتدر عليهم ربحا لا بأس به ، ويكفى دخلها خلال أعوام قليلة لكى ينسحبوا إلى حياة هنية ، خالية من الحرص والهموم .

سوف نلتقى مع **ابن شقرال** ، محمد بن أحمد ، ويعرف بالطرسونى ، وكان « قيما على النحو والقراءات واللغة ، مجيدا فى ذلك ، محكما لما يأخذ فيه منه ، وكانت لديه مشاركة فى الأصلين والمنطق ، طمح إليها بفضل نباهته وذكائه ، وشعوره بمراتب العلوم ، دون شيخ أرشده إلى ذلك ، يجمع إلى ما ذكر **خطا بارعا** ، وظرفا وفكاهة ، وسخاء نفس ، وجميل مشاركة لأصحابه ، بأقصى ما يستطيع ، **وكان صناع اليدين ، يرسم بالذهب** ، ويسفر ، ويحكم عمل **التراكيب الطبية** » ، **وتقلد خزانة الكتب السلطانية بالحمراء مدة** ، **ثم فسد** ما بينه وبين الوزير فعزل عنها ، وأجلى إلى أفريقية[2] .

وتعيش **ابن سارة** الشاعر الشنتريني ، عبد الله بن محمد ، **بالوراقة زمانا** ، **وكان حسن الخط** ، **جيد النقل والضبط** ، ذا حظ صالح من النحو واللغة ، وحفظ الأشعار ، أديبًا ماهرًا ، شاعرًا مجيدًا ، مطبوع الاختراع والتوليد ، تجول فى شرق الأندلس وغربها ، معلما للنحو ، ومادحا ولاتها ، وكتب عن بعضهم[3] . **وكان ابن بيبش**[4] ، محمد بن محمد ، « خيرا منقبضا ، عفا متصاونا ، مشتغلا بما يعنيه ، مضطلعا بالعربية ، عاكفا عمره على تحقيق اللغة ، مشاركا فى الطب ، **متعيشا من التجارة فى الكتب ، أثرى منها** ، **وحسنت حاله**[5] .

---

(١) المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٧٩ - ٨١ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٢٣ - ٢٥ .

(٣) المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٤٣٩ - ٤٤١ .

(٤) أصل الكلمة إسبانى Vives « المترجم »

(٥) المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٢٧ .

واشتهر ابن العابد الأنصارى ، محمد بن محمد ، بالكتابة ، وكان « بليغا ذا معرفة ، بارع الخط ، أوحد زمانه فى ذلك ، مهذب اللفظ ، منحطا فى هوى نفسه ، محارفا بحرفة الأدب على جلالة قدره ، وكتابته نقية ، جانحة إلى الاختصار » . وآثره ابن الجياب كبير كتاب الدولة النصرية ، وشيخ لسان الدين بن الخطيب ، بكتبه ، وكانت نفيسة ، أعلاها بخط أبيه رحمه الله .

● الكتب بين الموريسكيين :

وانتهت حرب الاسترداد المسيحية ، وبقى الموريسكيون بيننا ، وحافظوا على حبهم للمخطوطات ، ولكن بأعداد بسيطة ، بقدر ما سمحت لهم ظروفهم التى عاشوا فيها ، لقد عارض شعبنا بقوة عنيفة انتشار تعاليم الإسلام بين مواطنينا الذين كانوا يتخذون الإسلام دينا ، واعتبرت أوامر التحريم المتعددة امتلاك الكتاب بينهم خطيئة فأخفى الموريسكيون حبهم لها ، ثم بدأ ينكمش مع الزمن ، إلى أن اختفى بطردهم كلهم من اسبانيا نهائيا عام ١٦١٣م .

● أسباب قلة الكتب العربية فى إسبانيا :

هذه الأرقام الهائلة من الكتب ، والعديد من المكتبات ، كيف انتهى بها الحال ؟ ألا تشير قلة المخطوطات العربية بيننا الآن إلى أن هذه المعلومات داخلتها الأساطير ، أو فيها شيء من الخيال ؟ .

الحق أن نفس السبب الذى أدى إلى تضاعف المخطوطات المدهش بين المسلمين كان وراء اختفائها السريع أيضا . ذلك أن الورق الصناعى الذى كانت تنتجه المصانع الإسبانية سميك أو جاف ، ومصقول ، يبدو شكلا أنه يقاوم الزمن ، ولكن إذا قارناه بالرق وجدناه سريع التلاشى ورخوا ، كما لو كان مشاقة كتان تتلاشى أمام هجوم الرطوبة عليها ، وفى الوقت نفسه صالح جدا ليكون طعما للفيران والعثة ، ومادة مهيأة للنيران ، ولا يقاوم الاستعمال المستمر لمدى طويل ، فهو يتمزق بسهولة ، أى أن الاستخدام يأتى على الكتاب سريعا ، ويجعل الكتب غير صالحة للدراسة ، ومن ثم تستخدم بقاياها فى مهن أخرى . وأضيف إلى هذا حرص المهاجرين على أن يحملوا كتبهم معهم ، أو إخراجها قبل أن يرحلوا ، وإهمال الأيدى غير المثقفة ، وأسباب أخرى كثيرة . وكان هناك تيار متدفق من أسباب ضياعها ، حدث ببطء ، وفى صمت ، ودون ضجيج أو صخب مما يصحب الحوادث الكبرى التى تملأ التاريخ .

ثمة كتب كثيرة ضاعت بفعل الجوائح المؤسفة ، مثلا : حدث لعبد الرحمن بن موسى الهواري ، من أهل أستجة ، وهو عائد إلى الأندلس بعد رحلة فى المشرق أن عطب بشواطئ الأندلس الشرقية الجنوبية ، أو يبحر تدمير على حد تعبير القدامى ، فذهبت كتبه ، ولما قدم أستجة أتاه أهلها يهنئونه بقدومه ، ويعزونه عن ذهاب كتبه ، فقال لهم : ذهب الخرج ، وبقى الدرج ، يعنى : ما فى صدره[1] . والشىء نفسه وقع لأفلح مولى عبد الرحمن الناصر ، فقد ذهبت كتبه فى البحر ، وهو فى طريق عودته إلى الأندلس[2] .

وكان ابن حوط الله الأنصارى ، عبد الله بن سليمان ، من أهل « أنده » بلنسية ، دنيا من العلم ، جال فى بلاد الأندلس ، وبها يومئذ بقية من الرواة ، وجلة من المحدثين والنحاة ، يأخذ القراءات من المقرئين ، ويروى الحديث عن المسندين ، وكاتب أعيان المشرقيين وأعلامهم ، « وكان أماما فى صناعة الحديث ، مقيدا ضابطا ، بصيرا بها ، معروفا بالإتقان لها ، حسن الخط ، حافظا لأسماء الرجال ، واقفا على المعدلين والمجرحين ، يجمع إلى الاحتفال فى الرواية ، حسن الاستقلال بالدراية » . « وتصرف فى الخطط النبيهة فولى فى أوقات مختلفة قضاء قرطبة وإشبيلية ومرسية وسبتة وسلا ، وغيرها من حواضر البلاد بالأندلس والعدوة » ، وامتحن بالتجول فذهبت أصوله ، وضاعت كتبه فى بعض أسفاره ، ولو فرغ للتأليف والتصنيف لعظم الانتفاع بمعلوماته بعده »[3] .

وطاف عطية بن سعيد « بلاد المشرق سياحة ، وانتظمها سماعا ، وبلغ إلى ما وراء النهر ، ثم عاد إلى نيسابور وأقام بها مدة ، وكان يتقلد مذهب الصوفية والتوكل ، ويقول بالإيثار ولا يمسك شيئا » . « وكان قد جمع كتبا حملها على بخاتى[4] كثيرة » وعاد إلى الأندلس دون أن يحمل شيئا مما جمع هناك ، وعاش حياة كلها زهد وعزوف عن الدنيا[5] .

وكان الحميدى ، أبو عبد الله محمد بن فتوح ، إماما من أئمة المسلمين فى حفظه ومعرفته ، وإتقانه وثقته ، ونبله وديانته ، وورعه ، ونزاهته ، إماما فى علم الحديث وعلله ،

---

(١) ابن الفرضى ، الترجمة ٧٧٨ ، طبعة الدار المصرية .

(٢) المصدر السابق ، الترجمة ٢٦٢ .

(٣) التكملة ، الترجمة ٢٠٩٩ ، طبعة القاهرة .

(٤) البخاتى : الإبل الخرسانية .

(٥) الضبى ، الترجمة ١٢٦٠ ، ابن بشكوال ، الترجمة ٩٦٣ .

ومعرفة متونه ورواته ، محققا فى علم الأصول على مذهب أصحاب الحديث ، متبحرا فى علم الأدب والعربية ، وصنف كتبا كثيرا ، وصلنا منها « جذوة المقتبس فى أخبار علماء الأندلس » ، وألفه فى بغداد ، وكتبا أخرى كثيرة . « وكان من كثرة اجتهاده ينسخ بالليل فى الحر ويجلس فى إجانة ماء يتبرد به » وقد توفى فى بغداد ، « ووقف كتبه على أهل العلم » فيها[1] .

ورحل **محمد بن على بن ياسر** إلى المشرق ، وطوف بكثير من مدنه ، « ثم انتهى إلى حلب فاستوطنها ، وسلمت إليه خزانة الكتب النورية وأجريت عليه جراية ، وكان فيه عسر فى الرواية والإعارة معا ، ووقف كتبه على أصحاب الحديث »[2] . وذهب نجل الدين بن هلال إلى المشرق ، وهناك وهب كتبه لصديقه الأشرف المرسى[3] .

وثمة أعداد كبيرة لا تحصى من علماء إسبانيا الإسلامية اضطرتهم حرب الاسترداد المسيحية إلى الهجرة إلى المشرق ، ومن ثم لا يدهشنا أن تقوم المطابع فى المشرق الآن بنشر أشهر ما ألف العلماء الإسبان من كتب ، فى مجال التصوف والزهد مثل كتب **ابن عربى** ، أو فى النحو مثل كتب **ابن مالك** ، أو فى السياسة مثل كتاب **أبى بكر الطرطوشى** ، أو فى القراءات مثل كتاب **الشاطبى ابن فيره** ، أو فى الشعر كديوان **ابن خفاجة** ، أو **قلائد العقيان للفتح ابن خاقان** ، وغيرهم .

وقد استقر فى شمال أفريقيا ، وفى المغرب منه بخاصة ، كثير من الكتب الإسبانية ، على امتداد عصور عديدة ، وبعد وفاة **المنصور** بن أبى عامر ، وابنه عبد الملك المظفر ، هرب كثير من العلماء الإسبان المسلمين نجاة بأنفسهم من أهوال فتنة البربر ، ونزل أكثرهم مدينة **فاس** ، فهى اليوم على غاية الحضارة[4] . وجاء إلى إسبانيا طلاب من المغرب ، كى يكملوا دراستهم بها ، وعند عودتهم إلى بلادهم حملوا معهم مجاميع من الكتب القيمة ، فقد قدم **يصلتن** بن داود الأغماتى إلى قرطبة طالبا ، **وجمع كتبا عظيمة** ، وخرج منصرفا إلى بلده[5] . وصنع مثله **ابن عبد الحق التلمسانى**[6] . « وكان قد جمع

(١) نفح الطيب ، جـ ٢ ص ١١٣ - ١١٤ ، طبعة احسان عباس .

(٢) التكملة ، الترجمة ١٣٨٠ ، طبعة مصر .

(٣) النفح ، جـ ١ ص ٨٩١ ، طبعة أوربا .

(٤) المعجب ، ص ٣٥٨ ، طبعة العريان .

(٥) ابن الفرضى ، الترجمة ١٦٤٩ ، طبعة الدار المصرية .

(٦) التكملة ، الترجمة ٢١٣٧ ، طبعة مدريد .

كتبا حملها على بخاتى كثيرة » وعاد إلى الأندلس دون عائلة ومكتبة عائلة ابن ملحم المغربى الشهيرة ، ذات المخطوطات القيمة النادرة ، وهى أصلا من شرقى الأندلس ، ويمكن أن يقال أنهم كونوها فى أسبانيا[١] .

كما أن بعض النساخين والوراقين هاجروا إلى المغرب واستقروا فيه ، ومن هؤلاء الغافقى من قرمونة ، وكان وراقا[٢] ، وآخر من شمينة jimena ، وكان يبيع ما ينسخ بأسعار غالية[٣] ، ويعد ابن رشيد من هواة الكتب الملحوظين ، وعاش فى غرناطة ، وتوفى فى فاس ، ولا تزال مكتبة الإسكوريال تحتفظ ببعض مخطوطاته[٤] .

● ظاهرة إحراق الكتب :

ومع ذلك بقيت فى كتب التاريخ إشارات أخرى كافية تفسر لنا اختفاء آلاف وآلاف المخطوطات العربية ، وأود أن أشير إلى الحرائق المقصودة ، وكانت تتم بمرأى من الجماهير ، أو أحرقتها الجماهير نفسها ، وسط ابتهاجات صاخبة .

وقد عرفت إسبانيا المسيحية ، لقرون عديدة ، حفلات بالغة البهجة ، ذات طابع شعبى للغاية ، تحتفل فيها بإحراق المخطوطات العربية ، وأمم قليلة فى العالم استمتعت بهذه البهجة مرات عديدة كما حدث فى إسبانيا ، والجميع من أهلها يتباهون بها ، مسلمين ومسيحيين ، غير أن ما كان يحدث لم يكن احتقارا للعلم ، ولا كراهية فى التعليم ، والعكس صحيح ، كان وليد الحماسة المفرطة ، أو الحب الزائد للمثل العليا ، وهى إحدى خصائص القومية الإسبانية الذاتية ، لأن الشعوب المتخلفة لا تقدر قيمة الكتاب كما يجب ، فهم لا يكتبونها ولا يحرقونها ، وفى بلد كوطننا أدرك الناس سريعا ما تحمله الكتب فى أعماقها من خمائر ، والدور الذى تلعبه فى نشر الأفكار ، فلجأوا إلى الحرائق كى يحولوا دون انتشار الآراء المنحرفة ، التى تناهض عقائد الأغلبية وتراها صحيحة ، وتود المحافظة عليها .

---

(١) التكملة ، الترجمة ١٦٥٢ ، ١٩٣٠ ، طبعة مدريد ، والجذوة ، الصفحات ٢٥٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٧ ، ٢٨١ ، طبعة مدريد .

(٢) الجذوة ، ص ٢٨٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٨ .

(٤) الإحاطة ، المجلد ٣ ، الورقة ١٥ .

والظاهرة غريبة ، ولهذا سوف أقدم لها موجزا سريعا ، لكى يتم تقييمها فى نطاق المناخ الذى كانت تجرى فيه .

فى البدء عند استيلاء المسلمين على إسبانيا ، لم يكن التعليم منتشرا بين المسلمين على نحو واسع ، فلم يرد فى خاطرهم ما يمكن أن ينطوى عليه الكتاب من خطر ، ولكن عندما تأصل المذهب المالكى فى إسبانيا بقوة كافية ، يستطيع معها أن يقاوم غزو المذاهب الشرقية الأخرى ، بدأت فى إسبانيا الإسلامية مشاهد إحراق الكتب . وقام بها الشعب أولا بتأثير من الفقهاء أنفسهم ، وكان يطبق العدالة بنفسه ، ويقتص بيديه سبا وشتما ممن تومئ إليهم الإشاعة الشعبية ، وتتهمهم بأنهم أدخلوا أفكارا جديدة خطرة ، فإذا لم يتراجع عنها من اتهم بها تجمعوا ضده ، واقتحموا داره ، وأحرقوا كتبه ، وهو ما حدث مع الفيلسوف ابن مسرة ، وفيما بعد مع ابن كليب عند وفاته ، واتهم بأنه جاء من المشرق بأفكار فلسفية مشرقية تتصل بحرية الاختيار ، وتناهض الاتجاه القدرى السنى ، وفى هذه المرة كان الفقهاء هم الذين شكلوا لجنة ، ودخلوا داره ، وأخرجوا كتبه إلى الشارع ، وأحرقوا منها كل ما لا ينتمى إلى المذهب المالكى[1] .

ولم تكن محكمة التفتيش هذه رسمية ، وتتصرف دون أن يحكمها قانون أو تضبط صورة عملها لائحة ، وأزعجت الحكومة فى كثير من الأحيان لمبالغتها ، وتدخلها فى قضايا ترى الدولة أن تتبع إزاءها الطرق القانونية العادية المتبعة فى الاتهام والمحاكمة ، أمام الهيئات القضائية العادية . وقد اهتز الأمويون بقوة ، وفى مناسبات كثيرة ، أمام هذه المواقف ، وأعطوا أمثلة واضحة على مزيد من التسامح ، كما حدث فى أيام الحكم الثانى ، ولكنهم لم يجرأوا على المقاومة دائما ، ووجدوا أنفسهم مضطرين أحيانا لإبعاد أشخاص أو نفيهم ، وما كان بوسع هؤلاء أن يعيشوا بين عامة الناس لولا تدخل الأمراء .

الغيرة الشعبية إذن كانت السبب وراء عمليات الإحراق واضطهاد الكتاب ، ودليلنا على أنها لم تكن تصدر عن رغبة الحاكمين ، أو القائمين على شئون الدولة ، يتجلى واضحا فيما حدث أيام المنصور بن أبى عامر ، فقد كان فردا يهوى كتب الفلسفة وألوانا أخرى من المعرفة الإنسانية لا يرتضيها الفقهاء ولا عامة الناس ، واحتفظ بالمجلدات موضع الشبهة

(١) ابن الفرضى ، الترجمة ٤١٨ ، طبعة مدريد .

فى مكتبته ، غير أنه كرئيس دولة أقام « محكمة تفتيش » من العلماء ، كى يدخل البهجة على نفوس رعاياه ، والذين ألحوا عن رغبتهم فى تطهير مكتبة الحكم الثانى ، وأشار صوت الرأى العام إليها كمكان يضم كثيرا من كتب الزندقة والمؤلفات الضارة ، ولم تشفع لها هيبة سيدها ، ولا شهرتها ، ولا أنقذها أنها مكتبة والد الخليفة القائم على رأس الدولة ، وذهبت إليها « المحكمة » ، وأخرجت الكتب المشبوهة إلى ساحة القصر ، وبدأت تشعل فيها النيران ، والتهمت الحرائق أكواما كبيرة من المخطوطات بمشهد من المنصور نفسه ، وكان يساعد فى تقديمها للهب بيديه نفسهما، وأتت النيران على كتب الفلسفة والفلك الرفيع ، والجدل العقائدى ، وغيرها مما اعتبروه ضارا ، وأبقوا على كتب الطب والرياضيات ، ومبادئ الفلك ، والفقه فحسب ، ومواد أخرى بريئة من الشبهات[1] .

ومع ذلك ، لم يكن سهلا استئصال أربع مئة ألف مجلد فى زمن وجيز ، ولا إمكان فحصها على نحو دقيق ، وظلت كتب كثيرة كان يجب أن تلقى إلى النار ، طبقا لرأى الفقهاء الضيق والمسيطر ، بمنجاة من هذه المحنة ، وبرهنت عليه الحوادث فيما بعد ، خلال الأيام التعسة من فتنة البربر ، وأغرقت قرطبة النبيلة فى طوفان من الحزن والشقاء ، فقد اقتحم البربر المدينة ، وحاصروا قصر الخلافة ، وسرق الجنود القذرين من الأفارقة ، وجاء بهم المنصور لكى يكون منهم جيش الخليفة ، ما استطاعوا من هذه الكتب ، وباعوه بثمن بخس ، فلما سكنت الثورة وجدت أعداد كثيرة من كتب المكتبة متفرقة ، مخبأة تحت الأنقاض ، أو فى الغرف السفلى ، أو بين القنوات الجافة . ويروى ابن سعيد أن الجانب الأكبر من ذخائر الأدب التى كانت تضمها مكتبة الحكم الثانى تناثرت فى مدن الأندلس ، انتهت عند أناس من إشبيلية ، أو قرطبة ، أو المرية ، ومدن أخرى غيرها ، وقد رأيت أنا بنفسى (الضمير يعود على ابن سعيد) بعض هذه الكتب فى مدينة طليطلة ، أفلتت من الدمار أيام المنصور ، ومحتواها يومئ ، فيما يبدو ، إلى أنها من الكتب التى كان يجب أن تحرق[2] .

وعندما تهاوت الخلافة الإسلامية وتناثرت فى دويلات صغيرة عرفت باسم دول الطوائف ، وحكم كل دولة منها أمير تختلف ميوله عن الآخرين ، أمكن القول حينئذ أن عصرهم بعامة من أوسع العصور حرية ، وممارسة لها ، وزلزلزل طابعها أعماق رجال

---

(١) ابن عذارى ، جـ ٢ ص ٣١٥ .

(٢) جيانجوس ، الترجمة الانجليزية لنفح الطيب ، ص١٢ ، ٩٠ .

الفقه الإسلامى ، وكان بعض أمراء الطوائف لا يقيمون لهم وزنا ، وقد تجرأت « محكمة التفتيش » فى مدينة أندلسية وحيدة ، وهى إشبيلية ، على تفتيش الحوانيت والأسواق بحثا عن كتب مشبوهة ، لكى تحرق علنا فى ميدان عام على مرأى من العامة ، وكانت هذه تحتفل بمثل هذا الأمر فى ابتهاج .

وكان ذلك ما حدث لكتب ابن حزم العظيم ، ولشد ماكرهه الفقهاء فى وقته ، « فتألبوا على بغضه ، ورد قوله ، وأجمعوا على تضليله ، وشنعوا عليه ، وحذروا سلاطينهم من فتنته ، ونهوا عوامهم عن الدنو إليه ، والأخذ عنه ، فطفق الملوك يقصونه عن قربهم ، ويسيرونه عن بلادهم ، إلى أن انتهوا به منقطع أثره ، بتربة بلده من لبلة ، وبها توفى غير راجع إلى ما أرادوا ، به يبث علمه فيمن ينتابه ببادية من عامة المقتبسين منه من أصاغر الطلبة ، الذين لا يحسون فيه الملامة بحداثتهم ، ويفقههم ويدرسهم ، ولا يدع المثابرة على العلم ، والمواظبة على التأليف ، والإكثار من التصنيف ، حتى كمل من مصنفاته فى فنون العلم وقر بعير ، حتى لأحرق بعضها بإشبيلية ، وفى ذلك يقول :

فإن تحرقوا القرطاسَ لا تحرقوا الذى تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلّت ركائبى وينزل إن أنزل ويدفن فى قبرى[1]

● الكتب فى عهد المرابطين :

وبوصول **المرابطين** إلى الأندلس أخذ رد الفعل عند الفقهاء دفعة جديدة ، فازداد نشاطهم وقوى ، وأثارتهم المشاهد التى تحدث من بعض صغار أمراء الطوائف ومن العامة ، وتتسم بعدم احترام المظهر الدينى ، وانعدام الحماسة والغيرة عند القيام بالواجبات التى أمر بها القرآن الكريم ، وبتأثير منهم وجه الأمير المرابطى قرارا إلى جميع أنحاء إسبانيا يأمر فيه بإحراق كتب الفلسفة التى فى حوزة الأفراد ، وحتى كتب الجدل فى العقائد ، وكانت هذه الأوامر فى نهاية التطرف ، وأدت إلى موجة احتجاج عنيفة بين الفقهاء أنفسهم ، غير أن هذه الأصوات كانت مفردة ، ومنعزلة ، ولم تؤد إلى نتيجة ، ووجد الحكام الذين مالوا إلى التسامح أنفسهم معزولين عن وظائفهم ، فأخذت البقية فى تنفيذ قرار الأمير فى شدة وبدقة .

(١) ابن الخطيب ، الاحاطة ، جـ ٤ ص ١١٥ - ١١٦ ، طبعة عنان .

ولكن ذلك لا ينفى أن بعض الشخصيات الأفريقية ، من عمال المرابطين ، والذين تولوا الوظائف الكبرى فى شبه الجزيرة الإسبانية ، كانوا من عشاق الكتب الممتازين ، مثل : المنصور بن محمد الصنهاجي ، وكان واليا على بلنسية و« من رؤساء لمتونة وأمرائهم ، موصوفا بالذكاء والفهم ، عارفا بالأخبار والسنن والآثار ، يصحب العلماء للسماع منهم ، **وينافس فى الدواوين والأصول العتيقة ، وجمع من ذلك ما لم يجمعه أحد من أهل** زمانة »[1] .

ولكن حكم المرابطين لم يشجع الكتب الإسبانية كثيرا ، فقد أحرق كتب الغزالى[2] ، ونهب بعض المكتبات الخاصة ، مثل مكتبة أبى بكر بن أبى ليلة المرسى[3] ، ولم يتوقف على بن يوسف بن تاشفين عن جمع الكتب من كل مقاطعات إسبانيا ليكون منها مكتبة خاصة له ، فجمع منها قدرا عظيما ، ولم يحز أحد مثلها قبله بالمغرب[4] .

● **الموحدون والكتاب :**

وفيما بعد استولى الموحدون على الغرب الإسلامى كله ، وكانوا أنصارا متحمسين [لمذهب الأشعرية فى أكثر المسائل ، ووافقوا المعتزلة فى مسائل قليلة] ، ومن ثم كانوا أصدقاء للفلسفة ، وعندما وصلوا إسبانيا ثأروا للإهانات السابقة ، وأمروا بإحراق كل كتب المذهب المالكى ، وهو المذهب الرسمي الوحيد فى إسبانيا الإسلامية إذ ذاك ، وأخذوا يجمعون كتبه ، ويحملونها إلى الجانب الآخر من العدوة فى قوافل تنقل أحمالا من الكتب لا تعد إلى مدينة فاس ، حيث أحرقت علنا ، وكان هذا هجوما خطيرا على المذهب السنى القومى الإسبانى ، وسرت الإشاعات بين العامة بأن أمراء الموحدين زنادقة ، ولكى يواجه الموحدون الإشاعة بما يقضي عليها بدأوا يضطهدون كتب الفلسفة ، ونجد فى هذا تعليلا لموقفهم من ابن رشد وابن طفيل ، فقد حظى هذان عندهم بالمناصب والعطايا ، وأهديا مؤلفاتهم لأمراء الموحدين ، غير أنهما ما لبثا أن عانيا من الملاحقة والاضطهاد ، وندرت كتبهم ، وأصبح العثور على نسخة منها عسيرا ، ومن يدرى ربما ضاعت تماما لو لم يقدر لها أن تترجم إلى اللاتينية والعبرية ، وهى تراجم قام بها اليهود ، وكانوا قد نفوا من إسبانيا أيضا ، كما حدث للفيلسوف الشهير موسى بن ميمون .

---

(١) التكملة ، الترجمة ١٨٠٨ ، طبع مصر . والمعجم لابن الأبار ، الترجمة ١٧٣ ، طبع دار المصرية .

(٢) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٧٣ .

(٣) التكملة ، الترجمة ١٦٠٣ ، طبع مدريد .

(٤) المعجب ، ص ١٧١ - ١٧٣ .

غير أن الموحدين كانوا من هواة الكتب أيضا ، واستخدموا نساخين وخطاطين من الإسبان ، وأحد هؤلاء أبو العباس بن الصغير ، من أهل المرية ، وأقام أبوه فى بلنسية ، وجده من سرقسطة ، وكانت الكتب التى ينسخها لا تقدر لروعتها بثمن ، وعينه السلطان أبو يعقوب المنصور خازنا لمكتبته(١) .

وكان الأمير أحيانا يلجأ إلى العنف والقوة، وحتى إلى السرقة فى الاستيلاء على المكتبات ، [فقد كان أبو الحجاج المرانى من إشبيلية يملك مكتبة غنية، وقعت إلى أبيه أيام الفتنة بالأندلس، وكان يتردد عليها أبومحمد بن عبدالملك الشذونى، أحد المتحققين بعلمى الطب وأحكام النجوم، يستعير منها مايريد فى غرائر لكثرتها ، يجئ بغرارة ويحمل أخرى ، ولكنه فى بعض الأيام عدم تلك الكتب جملة ، فسأل صاحبها ، فأسر إليه : لقد علم بأمرها أمير المؤمنين أبو يعقوب ، فأرسل إلى دارى ، وأنا فى الديوان لا علم عندى بذلك ، كافورا الخصى مع جماعة من العبيد الخاصة ، وأمره ألا يروع أحدا من أهل الدار ، وألا يأخذ سوى الكتب ، وتوعده والذين معه أشد الوعيد أن نقص أهل البيت إبرة فما فوقها .

« فأخبرت بذلك وأنا فى الديوان فظننته يريد استصفاء أموالى ، فركبت وما معى عقلى ، حتى أتيت منزلى فإذا الخصى كافور الحاجب واقف على الباب والكتب تخرج إليه ، فلما رآنى وتبين ذعرى قال لى : لا بأس عليك ! ، وأخبرنى أن أمير المؤمنين يسلم على ، وأنه ذكرنى بخير ، ولم يزل يسطنى حتى زال ما فى نفسى ، ثم قال لى : سل أهل بيتك هل راعهم أحد ، أو نقصهم شىء من متاعهم ، فسألتهم فقالوا : لم يرعنا أحد ولم ينقصنا شىء ، جاء أبو المسك حتى استأذن علينا ثلاث مرات ، فأخلينا له الطريق ، ودخل هو بنفسه إلى خزانة الكتب ، فأمر بإخراجها ، فلما سمعت هذا القول منهم زال ما كان فى نفسى من الروع . وولوه بعد أخذهم لهذه الكتب منه ولاية ضخمة ما كان يحدث بها نفسه »] (٢) .

وقد ألقى تعصب هؤلاء الأفارقة بكاهله على كتب الفقه المالكى ، فأمروا بإحراقها ، ثم تقدموا إلى الناس فى ترك الاشتغال بعلم الرأى ، والخوض فى شىء منه ، وتوعدوا على ذلك بالعقوبة الشديدة(٣) .

---

(١) الاحاطة ، المجلد ١ الورقة ٣٢ ، مخطوطة الجمع التاريخى بمدريد .

(٢) المعجب، ص ٢٣٨-٢٣٩. وقد أشار المؤلف إلى القصة، وأحالنا على المرجع ، وأتيت بها كاملة . « المترجم » .

(٣) التكملة، الترجمة ٨٧٠، طبعة مدريد. والمعجب، ص٢٧٨. وبعض المجموعات الإسبانية أحرقت فى أمكنة أخرى من شمال أفريقية ، فكتب ابن الأبار المؤرخ أحرقت فى تونس فى ميدان عام . المقرى جـ١ ص٨٦٧ طبعة مدريد .

هذا الاختلاف فى الآراء بين الحاكمين أتى على القدر الهائل من الكتب الذى جمعه عشاقها من الإسبان فى حمية وحماسة ، وجفف ينابيعه ، وكانت تتجدد قليلا ، وأحيانا ، فى عصور السلام والحرية النسبية ، أما الكتب التى نجت من الحرائق ، واحتفظ بها المسيحيون والموريسكيون واليهود ، فقد أضعناها نحن الإسبان ، أحيانا باهدائها ، كما حدث فى عهد **سانتشو Sancho الرابع** ، **فقد وعد بنى مرين بأن يقدم لهم الكتب العربية الموجودة فى مملكته ، وفى مناسبة واحدة فحسب أمر بارسال ثلاثة عشر حملا** . وأحيانا كنا نحرقها ، ولم نجد فى ذلك من الحرج أكثر مما وجد المسلمون أنفسهم ، وفى هذا الجانب لم نصنع أكثر من أننا اتخذنا منهم القدوة والمثل[1] .

● **حريق غرناطة أبشع الحرائق وأفظعها :**

ولكن أشهر هذه الحرائق على الإطلاق ، وبه بدأت إسبانيا المسيحية حملة التدمير تمت فى ميدان **باب الرملة** فى مدينة **غرناطة** ، بأمر من **الكاردينال ثيسنيروس** ، وفيها التهمت النيران آلاف من المخطوطات العربية القيمة ، ذات الخطوط الجميلة ، والتجليد الفنى ، ويقول **الأب الكولية** Alcolea إن الكثير منها كان يضم فى جوانبه أركانا من الفضة والذهب ، وقدرا غير قليل من الماس ، وقدرت هذه بما لا يقل عن عشرة آلاف دكادو ducado . وأبدى بعض المشاهدين رغبتهم فى الحال ، خلال عملية الحريق نفسها ، فى شرائها .

ولم يكن هذا الحريق غير مجرد « نقل » لفتح الشهية ، وأصبح من المعتاد فيما بعد أن يتم إحراق الكتب بأمر من الملكه **دونيا خوانا** ، ففى عام ١٥١١م أمرت الموريسكيين بأن يقدموا إلى المسئولين كل ما فى حوزتهم من الكتب العربية لفحصها ، على أن ترد لهم كتب الفلسفة ، ولم يكونوا أنفسهم راغبين فيها ، إذا لم يكونوا قد أحرقوها بأنفسهم ، وكذلك ترد لهم كتب الطب والتاريخ ، ولم يكن عندهم الكثير من هذا ، على أن تحرق كتب الفقه والتشريع ، وكانت أكثر ما يملكون .

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت « محاكم التفتيش » الإسبانية مختصة بالفصل فى التبليغ عن الكتب العربية ، وتقوم هى بإحراقها ، وعقاب من توجد فى حوزته وأصحابها ،

---

(١) عندما أشار صاحب روض القرطاس إلى هذه الرسالة ، قدم لنا بعض المعلومات عن المخطوطات الهامة التى كانت فيها . انظر : الترجمة الفرنسية لروض القرطاس ، ص٥٢٥ – وابن خلدون ، الترجمة الفرنسية ، جـ٧ ص٢١٠ .

ولكن الموريسكيين أخفوا ، حتى ذلك الوقت ، قدرا لا بأس به ، أنقذوه من لهب النيران ، وطبقا لما يقوله الراهب ماركوس الحجاوى ، إنه لوحظ عند طردهم النهائى من إسبانيا أن بيوت المطرودين فيها كثير من كتب الدين الإسلامى ، والمصاحف المزخرفة بالألوان الحمراء والزرقاء ، والرسوم البديعة ، وأن ذلك شيء طبيعي فى حياتهم وعاداتهم ، وبدا للمسيحيين القدامى[1] أنه دليل واضح على حنثهم وضررهم ، واعتبروها شيئا ضارا ، ليس بأقل أذى من كتب السحر والرقى والشعوذة .

وفى أغسطس من عام ١٥٨٤ كان قائد منطقة ألتية Altea عائدا إلى القلعة ، فاصطدم فى طريقه بموريسكي يحمل جوالا من المصاحف ، مكتوبة بحروف مذهبة وحمراء ، وأنها تخص ، طبقا لاعترافه ، عمه المسمى شنقر Juncar ، وهو فقيه تلك الضيعة ، فتم اعتقاله وقدم إلى محكمة التفتيش[2].

وازدادت حمية محاكم التفتيش عندنا ، وتجاوزت الحد ، ومع ذلك حاولت منظمات أخرى أن تسبقها ، وحدث فى القرن السابع عشر الميلادى أن بدأت مفاوضات سياسية بين ملوك إسبانيا وسلاطين المغرب ، وكان هؤلاء يعرفون أن فى الإسكوريال مكتبة عظيمة قوامها المخطوطات العربية ، وأنها جاءت فى معظمها من استيلاء الأسطول الإسبانى على بعض السفن المغربية التى كانت تحمل مكتبة السلطان زيدان ، فحاول المفاوضون المغاربة أن يسترجعوا هذه الكتب ، وبلغ الأمر حد استشارة الرئيس العام لمحاكم التفتيش ، فأمر بعدم رد المخطوطات المتصلة بالدين الإسلامى ، لأنها يمكن أن تسهم فى توطيد دعائم هذا الدين ، ولكنه رأى ، على النقيض ، أن من الممكن أن تعطى لهم الكتب المتصلة بالفلك والطب والرياضيات والتاريخ ومعارف أخرى ، ولكن مجلس الدولة الذى أرسلت إليه القضية للاستشارة ، اعترف بطريقة غير مباشرة ، بأن الوسيلة التى استخدمها ثيسنيروس بإحراق خمسة آلاف مجلد عربي بعد الاستيلاء على غرناطة كانت أفضل من غيرها ، وأخف من رأيه نفسه ، لأنه قرر ، مع احترامه لقرار الرئيس العام لمحاكم التفتيش ، إحراق الكتب كلها ، وبعض الأصوات الخافتة فيه ، والقليلة رأت

---

(١) يطلق مصطلح « المسيحيون القدامى » على الذين ينحدرون من أصول مسيحية بعيدة ، ومصطلح « المسيحيون الجدد » ، على من أكره على اعتناق الكاثوليكية من المسلمين ، بعد سقوط دولة الإسلام ، وكانوا أدنى مرتبة فى كل شيء . « المترجم » .

(٢) Escolano, Décades, Libro X, Cap. XL.

أن تحرق كتب الدين فحسب ، ولكن القدر كان يحتفظ لمكتبة المخطوطات العربية الوحيدة والفقيرة فى إسبانيا بحظ أفضل ، فقد أنقذتها نصيحة المركيز بلادة Velada من النار ، إذ أوصى الملك بأن يحتفظ بها فى مكان أمين ، وقبل هذا رأيه .

وبهذا يمكن أن نلحظ إلى أى حد أوشكت أن تختفى تلك المكتبة ، ذلك النبع الذى لا ينفد ، بين لهب النيران ، ونحن ندين لها بالكثير من زهونا وأمجادنا .

إن موقف الكاردينال ثيسنيروس ، وأعضاء محاكم التفتيش فى وطننا ، لا يستحق أى عتب أو مؤاخذة ، وليس مدعاة لأى غضب من جانبى ، لقد فعلوا مافعلوا لا كراهية فى الأدب والفن – وكيف يكون عدوا لهما من أنشأ جامعة القلعة ! – ولا ينطوى على أى احتقار للأدب العربى وكتب الفلسفة والطب والتاريخ ، وأمر بالحفاظ عليها ، ودون أن نصم أعمالهم بالقبح ، من حقنا ، وهذا طبيعى جدا ، أن نأسف ونألم ، لأن مثل هذه الحرائق حدثت ، وإذا كان لابد من أن يحمل الخطأ أحد ، فإن النقد يجب أن يوجه إلى شعبنا ، لأن الحكومات لا تعمل غير تحقيق رغباته العنيفة . لقد تسامحت معه وأتاحت له بعض الحرية الوقحة ، ليكشف عما فى أعماقه ، ويكشف بدقة عن تلك الفضائل الكبرى التى غزت حريتنا واستقلالنا ، ولكنها كانت فيما بعد قاعدة صلبة لعظمتنا وقوتنا .

وفيما يتصل بى لم يبق لى غير كراهية صغيرة من عاشق كتب ولهان ، لقد كان هدف قوانيننا أن تحرق الكتب الضارة ، وأن تبقى على الكتب النافعة ، وليس ثمة غاية أفضل من هذه ، ولتحقيقها من الضرورى أن يكون لدى حكام الولايات ، وممثل العدالة ، من المهارة والفهم ما يعينهم على التمييز ، وهو أمر لا يقنعنى ، لأنه من المستحيل ماديا .

أذكر أننى قرأت فى مخطوطة عربية لا يزال أصلها موجودا فى مكتبة جامعة بلنسية ، كتابة على هامشها باللغة القطلونية ، أترجمها لكم إلى اللغة القشتالية ، إنه يقول : « هذا الكتاب وجدته أنا خايمة فرنادو فى قرية لجوار Leguar، بعد أن صعد الموريسكيون إلى الجبل ، فى البيت الذى كان يعيش فيه منهم مليني الوادى است Mil-Leni Guadalest ، الملك الذى اختاروه عليهم ، وبما أنه كتب فى خط عربى ، لم أجد أحدا أبدا يستطيع قراءته ، وأخشى ألا يكون قرآن محمد » .

والمخطوطة غير مؤذية على الإطلاق : إنها كتاب فى قواعد النحو !

كم من المخطوطات انتهى بها المطاف إلى النار خشية أن تكون القرآن ، وليست هو ، شكا أو جهلا !

أصول المدرسة النظامية في بغداد

● الحاجة إلى نموذج يحتذى :

أربع مئة عام مرت منذ أن بعث الله محمدا ﷺ دون أن تظهر على امتداد الإمبراطورية الإسلامية الكبرى كلها أية مؤسسات تربوية عامة ، وكان الأساتذة بدافع ذاتي يعلمون التلاميذ فى المساجد ، والبيوت ، والحقول ، كما وأين ، ومتى أحبوا ، ووقع ذلك من خاطرهم موقع الرضا ، باتفاق خاص تماما ، وفى حرية كاملة ، فى كل ما يتصل بالدراسة ، فى مشرق الإسلام ومغربه على السواء .

وظل هذا النظام قائما فى الغرب الإسلامى ، ودون أى تنظيم رسمى للتعليم طوال سبعة قرون ، على نحو ما مضى فى دراستنا للتعليم بين الإسبان المسلمين ، ولكن هناك ، فى المشرق ، حول منتصف القرن الخامس الهجرى ، وفى بلاط بنى العباس نفسه ، انبثق نظام جديد فى شكل جامعة أو كلية ، وبفضلها تغير نظام التعليم جذريا فى كل البلاد الإسلامية ، وأعنى بها **المدرسة النظامية فى بغداد** ، وكانت الأب والنموذج المحتذى الذى أقيمت على صورته ، وتشبها به ، كل الكليات التى لا تحصى عددا ، وغزت الشرق والغرب كليهما .

ولكن ... هل كانت المدرسة النظامية فى بغداد ، وعنها تولدت حركة المؤسسات التربوية العامة فى الإسلام ، هى الأولى حتى هذا التاريخ ؟ .

الحق أن البريق المتوهج يعشى البصر ، وأن الزهو والخيلاء تعميه عن الحقيقة ، وما يجىء الأول تاريخا يذهب بالجانب الأكبر أهمية ونبلا وعتاقة ، ونخصه بالمزيد من أشواقنا العقلية ، ولقد كانت الجامعات ذات الدرجة الثانية ، فى أوروبا المسيحية ، تشرق وتزهو بأنها قامت وتشكلت على نمط جامعة باريس أو بولونيا[1] ، أو أكسفورد ، ومع ذلك ، فإلى جوارها جامعات أخرى تؤثر أن ترد مولدها إلى حركة نشأت عفويا ،

---

(١) عاصمة مقاطعة كبيرة فى شمال إيطاليا . « المترجم » .

أووليدة تطور داخلى ، وأنها بريئة من أى تأثير خارجى ، ولعله يمكن القول بأن ما يتصل بجامعة باريس كان أصيلا تماما .

وقد حدثت الظاهرة فى نطاق الحضارة العربية ، وهم يعترفون بأن كل المدارس التى ظهرت فى العالم الإسلامى جاءت تالية للمدرسة النظامية ، تولدت عنها ، وجاءت صورة مشابهة لها ، سواء تلك التى أقيمت فى أقصى الشرق على حدود الهند أو بنيت غربا فى أقصى الصحراء ، ولا يقف المؤرخون المسلمون فيما يتصل بالمدرسة النظامية عند هذا الحد ، وإنما يقولون أيضا أنها لم تكن الأولى فى نوعها فحسب ، وإنما أيضا فى طرازها ونموذجها ، والأولى فى ظهورها زمنا .

ويحصر المؤرخون المسلمون تفسيرهم لنشأتها فى رواية واحدة ، دون أن يعيروا التفاتا إلى العديد من المشكلات التى تحيط بهذا الموضوع البسيط عند إلقاء النظرة الأولى عليه ، ويكفى أن نعير انتباها لرواية شاهد ثقة ، وأعنى به أبا بكر الطرطوشى[1] ، وهو يحدثنا عن قصة مولد المدرسة النظامية ، فى كتابة سراج الملوك يقول :

« ومن مناقب هذا الرجل وفضائله (يتحدث عن الوزير نظام الملك) أن رجلا قصده يقال له أبو سعيد الصوفى ، فقال له : يا خواجا ، أنا أبنى لك مدرسة ببغداد مدينة السلام ، لا يكون فى معمور الأرض مثلها ، يخلد بها ذكرك إلى أن تقوم الساعة ، قال : افعل . وكتب إلى وكلائه ببغداد أن يمكنوه من الأموال ، فابتاع بقعة على شاطئ دجلة ، وخط المدرسة النظامية وبناها أحسن بنيان ، وكتب عليها اسم نظام الملك ، وبنى حولها أسواقا تكون محبسة عليها ، وابتاع ضياعا وخانات وحمامات ، وأوقفت عليها ، فكملت لنظام الملك بذلك رياسة وسؤدد ، وذكر جميل طبق الأرض خبره ، وعم المشارق والمغارب أثره ، وكان ذلك فى سنى عشر الخمسين وأربعمائة للهجرة »[2] .

---

(١) هذا الكاتب والمؤرخ السياسى الإسبانى ولد فى طرطوشة عام ٤٥١هـ تقريبا ، وذهب إلى المشرق عام ٤٧٦هـ ، أى بعد عشرين أو خمسة وعشرين سنة من إنشاء المدرسة النظامية وتلقى العلم على الأساتذة الذين كانوا يتولون التدريس فى المدرسة النظامية . انظر :

- ابن خلكان ، جـ ٢ ص ٢٧٣ ، طبعة القاهرة .
- ابن بشكوال ، الترجمة ١١٣٥ طبعة مدريد .

وكذلك الضبى فى تاريخ علماء الأندلس وغيرهم .

(٢) الطرطوشى ، سراج الملوك ، ص ١٢٨ - ١٢٩ ، طبعة بولاق .

والرواية على هذا النحو البالغ البساطة تعنى أن تأسيس المدرسة النظامية جاء خاطرا سعيدا ، عابرا وأصيلا ، من ولى مسلم واسع الشهرة .

نحن على استعداد لأن نصدق أن الحادث وقع كما رواه أبو بكر الطرطوشى، وكان نفسه وليا، وتوفى يعبق بأريج الولاية فى مدينة الإسكندرية ، لأننا لا نشك أبدا فى تدخل أبو سعيد الصوفى لدى الوزير نظام الملك فى الأمر مباشرة ، ولكننا نرفض القوة الابتكارية لشيخ الطريقة الصوفية الإسلامية ، ولا نظن أن الفكرة طافت بخاطر الوزير الفارسى للسلطان التركى أرسلان فجأة على هذا النحو ، دون سوابق عرضت له ، لأن نظاما معقدا كالمدرسة النظامية لا يمكن أن يخترعه رجل واحد ، دفعة واحدة ، فى أى مكان من الأرض .

وأخذت أهبتى لدراسة أصل المدرسة النظامية ، وبدا لى أن تتبع خطوات قيام المؤسسات السابقة لها ، التى تفسر نشأتها ، ليس أمرا سهلا ، لأن المؤرخين المسلمين عندما يصلون إلى هذه النقطة تتوقف بهم المسيرة فى أى اتجاه ، وتتقطع الخطوط بين أيديهم ، وفضلا عن ذلك ، أعتقد أنه يحدث فى المؤسسات ما يحدث للأسر النبيلة ، فمن السهل جدا دراسة الشخصية التاريخية التى تلقى التمجيد والإكبار لعراقة أسرتها ، فإذا مضينا بالأمر والتقينا بالغموض يلف الأسرة ، اضطررنا للبحث عنها فى أحشاء الأرض .

وفيما يتصل بالمدرسة النظامية ليس بين يدى آثار ظاهرة أسير على خطاها ، فكان علىّ أن أستعين بالفروض المؤقتة ، التى يمكن أن توجهنى إلى بعض الطرق ، وسألت نفسى : هل تولدت المدرسة النظامية عن بعض المؤسسات الإسلامية التقليدية التى كانت قائمة فى عاصمة الإسلام نفسها ؟ . ولم أجد فى هذا الطريق أى شىء تقريبا يمكن أن يعيننى على حل المشكلة ، ولقد كان الرحالة المقدسى فى بغداد نفسها لبعض الوقت قبل مولد المدرسة النظامية ، ووصف لنا عاصمة خلفاء بنى العباس قديما ، وهى فى هوة الانحطاط ، مسجدها الجامع تهاوى ، وسور المدينة أصبح أنقاضا ، يقول : « ضعف أمر الخلفاء فاختلت وخف أهلها ، فأما المدينة فخراب ، والجامع فيها يعمر فى الجمع ، ثم يتخللها بعد ذلك الخراب ، وأعمر موضع بها قطيعة الربيع والكرخ فى الجانب الغربى ، وفى الشرقى بال الطاق ، وموضع دار الأمير والعمارات ، والأسواق بالغربى ، والجسر عند باب الطاق إلى جانبه بيمرستان بناه عضد الدولة ، حصل فى كل طسوج

مما ذكرنا جامع ، وهى فى كل يوم إلى وراء ، وأخشى أنها تعود كسامراء ، مع كثرة الفساد والجهل والفسق وجور السلطان »[1] .

وكان التعليم فى عاصمة الخلافة يمضى منحدرا ، ليصبح بقايا شاهدة فحسب ، كأطلال المدينة نفسها ، ولكن العادات القديمة لم تتغير جذريا ، فواصل كبار أساتذة بغداد إلقاء دروسهم ، كما كان عليه الحال قبلا فى قرون خلت ، وكان **أبو حامد الإسفرائينى** شيخ الشافعية يلقى دروسه على الطلاب فى مسجد عبد الله بن المبارك بحى الفقهاء ، ويحضر مجلسه ما بين ثلاث مئة وسبع مئة طالب .

أيمكن أن يكون قد أوحى بشكل المدرسة النظامية ما كان يصنعه أستاذ آخر فى بغداد ينتمى إلى المذهب الحنفى ، فقد كان يلقى دروسه على الطلاب راحة لهم ، وإراحة لنفسه ، فى فندق عام حيث يعيشون ، وهو خان أتت عليه النيران فى إحدى الفتن التى حدثت عام ٤٤٣هـ ، قبل افتتاح المدرسة النظامية بخمسة عشر عاما تقريبا ؟ ، ولكن اجتماع الطلاب حول أستاذهم فى فندق عام ، كان يعنى بالضرورة أنها مؤسسة عامة لمن يحضر ، وخاصة لأنها مستقلة عن الدولة ، وليس ثمة شىء على الإطلاق يدفع بنا إلى الظن أنها كانت تحمل شيئا من الملامح المعقدة ، أو المظاهر المحددة ، التى كانت عليها المدرسة النظامية الشهيرة[2] .

وفضلا عن ذلك كله ، إذا قلنا إن بغداد عرفت مؤسسات تشبه المدرسة النظامية وتسبقها ، أبقى عليها الأحناف . أما كان المؤرخون يمسكون بهذه المعلومة ويشيرون إليها ، ويلمحون إلى أن الأحناف سبقوا بها النظامية ، وقد أقيمت هذه لصالح الشافعية ؟ . وباختصار لم يكن يلاحظ فى بغداد حينئذ أية حركة تومىء إلى حياة جديدة ، وإنما أطلال الماضى وأشباحه فحسب ، وليقل المؤرخون ما يشاءون ، فليس حقا أن إنشاء المدرسة النظامية كان عملا عفويا .

يقول **المقدسى** فى النص الذى أشرنا إليه من قبل : « **الفسطاط** ناسخ بغداد ، ومفخر الإسلام ، ومتجر الأنام ، وأجل من مدينة السلام » . وهذه الجملة دفعت فى أعماقى بفكرة البحث عن أصل المدرسة النظامية فى اتجاه آخر ، دون الوقوف عند تفسيره

---

(١) المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ص ١٢٠ ، طبعة دى خويه .

(٢) ابن الأثير ٣٩٣/٩ .

بالحركة التطورية للمؤسسات التقليدية فحسب . وساءلت نفسى : هل كانت المدرسة النظامية تقليدا أو محاكاة لمدرسة مصرية ما قامت بدافع من الاتجاهات السياسية الجديدة للفاطميين فى مصر ، الأرض التى ظلت تحفظ بذكرى مدرسة الإسكندرية الشهيرة حية فى أعماقها ؟ وفيها تجلى إعجاب المسلمين دائما بأضخم ما حفظ التاريخ من آثار الماضى ، وتغلى فيها خمائر فرق عديدة غير سنية ، وتختلط فى تعاليمها العقائد المختلفة من الحضارات القديمة ؟

● دور مصر الفاطمية :

وفى البدء بدا لى أننى عندما أخذت هذه الوجهة فى البحث لم أحد عن الطريق الصحيح ، ذلك أن الجذور التى أمسكت بالثروة والثقافة فى المقاطعات العراقية ، ولمعت بغداد وسط حلاها فى أزمنة سلفت ، أخذت تتجه حينئذ إلى عواصم سياسية أخرى اغتصبت سلطة الخلافة : الفسطاط فى مصر ، ونيسابور فى فارس .

كان المقدسى يدعو أقليم مصر قبة الإسلام ، « عاد فيه حضرة أمير المؤمنين ، ونسخ بغداد إلى يوم الدين ، وصار مصيره أكبر مفاخر المسلمين »[1] ، تمتلىء مساجدها بالشباب ، يفيضون حماسة للدرس ، ويقبلون على دراسة علم جديد يختلط فيه تراث كل الشعوب القديمة ، ينبض حياة وحيوية ، وربما فسر نشأة المؤسسات التى عرفها الشرق الإسلامى . والحق أن نهاية القرن الرابع الهجرى ، ومطلع القرن الخامس ، وقبل أن توجد المدرسة النظامية فى بغداد بستين عاما ، نشأت فى القاهرة مدارس لها طابع أكثر شبها بتلك المدرسة التى نبحث عن أصولها وندرس نشأتها الآن .

يومها ، كان يحكم الإمبراطورية الفاطمية الواسعة أشد الحيوانات غرابة فى طبقة الطغاة الذين عرفهم العالم ، وأعنى به الحاكم بأمر الله ، لقد تولى الخلافة حدثا فى الحادية عشرة من عمره ، وعندما أصبح رجلا وضح الجانب المرعب فى شخصيته ، كان ذا عينين زرقاوين واسعتين ، جهورى الصوت ، صاخب الحركة ، كثير الطموح والأهواء ، متقلبا قاسيا ، زنديقا يؤمن بالخرافات ، حيوانا إنسانيا متوحشا ، ضحى إرضاء لأهوائه العارضة بحياة أكثر من ثمانية عشر ألفا من رعاياه ، ولم يحل ذلك قيام جانب من الشعب الذى تحمل هذه المظالم بعبادته إلٰها على امتداد عشرات الأعوام .] وأوجز المقريزى حالته

---

(١) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ١٩٣ .

هذه ، يقول : « إنه كان يعتريه جفاف فى دماغه ، ولذلك كثر تناقضه ، وكانت أفعاله لا تعلل ، وأحلامه وسياسته لا تؤول »] .

وللحكم على موقفه السياسى يكفى أن نذكر لذلك مثالين : الأول أنه كان يدعى علم الغيب ، يدفع بعضا من توابعه إلى القيام بالسرقة ، بل وينظم لهم العملية شخصيا ، ثم يفاجئهم وهم يقومون بها ، ويقبض عليهم متلبسين بالجريمة ويقتلهم ، لكى يرى فيه شعبه الغيور العالم بالغيب ، ويستخدم الخدع والحيل وأشياء أخرى يقتنع بها غوغاء الناس ، ويتحدثون عنها ، ويحكمون بألوهيته ومعجزاته .

ويقص علينا ابن زولاق المؤرخ حكاية ننقلها بنصها ، وهى : « ونادى فى الناس ألا يغلق أحد بابه ولا حانوته ، وأصبح الناس يستغيثون ، وأحضر صنما كان يسمى عنده أبا الهول ، فكان كل من ضاع له شىء يجلس بين يديه ويقول له : يا أبا الهول ! ضاع كذا وكذا ، فيقول شخص داخل الصنم ، ما ضاع منك أخذه فلان ووضعه فى المكان الذى يقول عليه الصنم ، فيحضر لصاحبه ، ثم ما زال على ذلك حتى قرر جميع ما ضاع لأربابه . ثم صلب اللصوص وعادت الناس فى أمن ينامون فى بيوتهم ، وأبوابهم مفتوحة ، وحوانيتهم كذلك ، ولم يسرق لهم شىء ، حتى إذا وقع من أحد درهم يبقى فى مكانه ، لا يجسر أحد أن يأخذه حتى يأتى إليه صاحبه فيأخذه ، ثم ينادى : رحم الله من اعتبر بغيره » .

والمثال الثانى أنه أمر فى مناسبة ما بمنع الرعية من العمل نهارا فأطاعوه ، وأخذت القاهرة مشهد مدينة غريبة تصبح صحراء مجدبة إذا ما سطعت الشمس ، فإذا غربت أصبحت تضج بالجماهير ، تعمل فى نشاط كخلية نحل طوال الليل على ضوء المصابيح الصناعية .

وكان يختار وزراءه من بين عامة الناس فى المقاطعات المختلفة من دولته ، تختلف ميولهم ، ولا تناسق بين اتجاهاتهم ،تبعا للحالة التى تسيطر عليه لحظة الاختيار ، فكان رئيس وزرائه من المسيحيين مرة ، وعهد بالإدارة كلها إلى المسيحيين ، وأحاط نفسه بالمسلمين واليهود مرة أخرى ، وآونة يسرق كنائس المسيحيين ، ويهدم الأديرة ، ويطرد أو يقتل عباد الصليب ، ثم يبلغ به الأمر فى النهاية ، حين يكون « رائق المزاج » أن يعيد بناء ما هدمه ، وأن يرد من الكنوز ما سرقه ، وسمح لأجراس كنائسهم بأن تدق ، وبأن يخرجوا إلى الشارع فى عروض دينية ، وزاد فقبلهم فى مجلس شورته إلى جانب

البيزنطيين والمغاربة الذين كان يتكون منهم حرسه الملكي ، وصنع الشيء نفسه مع اليهود ، ومع المسلمين من شتى المذاهب الدينية .

وكان على التعليم أيضا أن يعانى من تأثير أهوائه الشخصية المتقلبة ، السيئة النمو ، وأراد أن ينشىء دينا ، وأنشأه فعلا ، خليطا من أفكار مختلفة ، تشبه العقائد المشرقية ، تلك التي تقول بتناسخ الأرواح ، ومذاهب أخرى من الفلسفة الإغريقية ، وشيء من الأفكار اليهودية والمسيحية تمتزج كلها على قاعدة إسلامية عريضة ، [وتضم دار الكتب المصرية مخطوطة في ٦٤ ورقة ، وتشتمل على عشرين رسالة ، وتحمل عنوان : **رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بدعوته** ، ونعرف منها ما كان يدعيه لنفسه من صفات الألوهية ، وتدل اللهجة التي كتبت بها ، على ما كان يتوقعه الحاكم من مقاومة الأهلين ، ومعارضة الجانب الأعظم من المصريين] .

● **دار الحكمة ودار العلم :**

لكي يستطيع الحاكم بأمر الله أن يعلم رعاياه هذه الشريعة الدينية الجديدة أقام ندوات عامة في قصره نفسه ، يهرع إليها العديد من جمهرة المبتدئين ، وصنع أكثر من هذا أيضا ، فتتح في القاهرة مجمعا أو جامعة حملت اسم **دار الحكمة** سنة ٣٩٥هـ ، وتدرس العقيدة الرمزية لفرقته ، والتحق بها عدد من القراء والفقهاء والمنجمين والنحاة واللغويين والأطباء .

وألحق بدار الحكمة مكتبة حملت اسم **دار العلم** ، ونقلت إليها الكتب من خزائن القصر من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ، ما لم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك ، وجعل فيها ما يحتاج إليه الناس من الأقلام والورق والمحابر ، وأقيم لها قوام وخدام وفراشون وغيرهم ، رسموا بخدمتها ، وأجرى على من فيها من الخدام والفقهاء الأرزاق السنية ، وأبيح دخولها لسائر الناس فوفدوا إليها على اختلاف طبقاتهم ، فمنهم من يحضر ليقرأ ، أو لينسخ ، أو ليتعلم(١) .

وأباح الحاكم المناظرة بين المترددين على دار الحكمة ، فكانوا يعقدون الاجتماعات ، وتقوم بينهم المناظرات ، وفي بعض الحالات يفضى بهم الأمر إلى الجدل والخصام .

---

(١) دى ساسى ، عرض لديانة الدروز ، جـ ١ ص ٢٨٠ ، ٤٢٥ ، وغيرها .

[وظلت دار العلم قائمة ، إلى أن أغلقها الملك الأفضل ، وزير الخليفة الآمر ، عام ٥١٣هـ = ١١١٩م ، على أثر ما اتصل به من أن رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة باسم البديعية ، التي يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاثة ، الشافعي والمالكي والحنفي ، يترددان على المكتبة ، وأن كثيرين من الناس أصغوا إليهما ، واعتنقوا مذهب السنة ، ومن بين الذين اعتنقوه شيخان من الأساتذة المحنكين من رجال القصر الفاطمي ، فاتخذ الأفضل من الحادثة ذريعة لإلغاء تلك الدار . **أما دار الحكمة** فظلت قائمة حتى مجيء الأيوبيين][1].

● مرصد الحاكم بأمر الله :

وفي عام ٤٠٣هـ تحمس الحاكم للفلك ، وأمر بانشاء مرصد في سفح المقطم ، عرف باسم **المرصد الحاكمي** ، وعين مفتشين لمراقبة العمل هناك ، [وكثيرا ما كان يركب إليه قبل الفجر على حماره الأشهب ، وقد أخبر أحدهم المؤرخ المعاصر له **ابن حماد** أنه رأى آلة نحاسية تشبه الإسطرلاب أقامها الحاكم على برجين ، وأنه قاس عليها بعض علامات البروج فوجدها ثلاثة أشبار] . ولم يكد العمل يشرف على النهاية حتى أصدر أمرا بوقفه ، وظل المشروع ناقصا دون إكمال .

ولم تقف القضية عند هذا الحد ، وإنما قرر أيضا منع العلماء من ملاحظة النجوم ، أو حتى الكلام عن الفلك ، وأمر كل الفلكيين أن يخرجوا من مملكته ، وتقدم إليه الفلكيون التعساء مرعوبين يعرضون أن يتخلوا عن ممارسة مهنتهم راغبين وطائعين ، وحينئذ عفا الحكم عنهم ، وتركهم يعيشون في مصر بهدوء[2] .

وذات يوم ندم على أنه نكل بفريق من شعبه ، فقد حكم بجلد رجل علنا لأنه ارتكب جريمة مرعبة ، كان يملك كتابا إسلاميا سنيا ، وهو كتاب الموطأ للإمام مالك ، فأراد أن يكفر عن خطيئته فأمر بإنشاء كلية علمية ، أحسن تأثيثها ، وأهداها مكتبته الثمينة ، واختار لها مديرين ، وأستاذين بها في الوقت نفسه ، وكانا من كبار العلماء ، ومن فقهاء المذهب المالكي ، وأحدهما الرئيس **أبو بكر الأنطاكي** العالم الشهير ، وكلا الأستاذين كان موضع الإجلال والتقدير ، وأفسح لهما مكانا في بلاطه ، وعين في الكلية نفسها

---

(١) نص عبارة المؤلف : « ومع ذلك تغير تفكير هذا الطاغية بعد زمن ، وقضى على هذه المؤسسة ، دون أن تقوم لها فيما بعد قائمة أخرى » . ولما كانت هذه المعلومة تجافي التاريخ ، فقد ذكرت الحقيقة ، على ما رواها المؤرخون ، بدلا من عبارته . « المترجم » .

(٢) دي ساسي ، الدروز ، جـ ص ٣٦٩ .

فقهاء آخرين ، وأساتذة فى العلوم الدينية يدرسون أشهر كتب المذهب المالكى ، ولكن هذه الاتجاهات الطبية لم تدم غير وقت قصير ، وقبل أن تمضى أربعة أعوام على هذه الكلية حلت ، وأرسل الحاكم بأبى بكر الأنطاكى إلى الدار الآخرة ، وعادت العناية بالمساجد غضبا وكراهية للفقهاء المسلمين[1] .

باختصار كان فى القاهرة فى مطلع القرن الخامس الهجرى مؤسستان للتعليم العام ، أنعشتهما جذوة الحضارات القديمة ، ولم تكن دار الحكمة إلا تقليدا واضحا لمدرسة الإسكندرية ، وقد أتى هذا الخليط من الدراسات الفقهية والعقائدية إلى جانب الطب والفلك وغيرها على كل التقاليد الإسلامية فى التعليم ، وحتى ذلك الوقت لم يكونوا يفصلون بين الفلك والعلوم الطبيعية وبين علوم الشريعة فحسب ، وإنما يرون أن بينهما تعارضا وتناقضا ، ولكن الكلية العلمية التى جمعت فى رحابها الفقهاء وعلماء التوحيد من أتباع المذهب المالكى ، حافظت على نحو أفضل على التقاليد والعادات المتبعة فى مجال التربية الإسلامية ، غير أنها ، كأشياء أخرى للحاكم بأمر الله ، كانت زهرة يوم فحسب● لم تتح لها الحياة لتثمر ، وجاءت مجرد تجربة بسيطة ، لا تعكس شيئا من الملامح التى نلتقى بها فى المدرسة النظامية منذ البداية .

ومع ذلك يجب أن ننظر إلى هذه الأحداث كوقائع منعزلة ، وعابرة ، وليست سوابق ، أو على الأقل ليست إشارات على اتجاهات جديدة فى نطاق الإسلام ، وربما لو وقفت عندها لما وجدت تأثيرات أخرى أشد قربا ، وتفسر لى بوضوح ، وعلى نحو لا ريب فيه ، مولد المدرسة النظامية ، فى المؤسسات الأكثر شعبية ، والأبعد قدما ، وعمقا ، وصوت الشعب ليس بمنأى عنها ، وعليها ليس دخيلا ، من تلك التى تعود إلى أهواء الطاغية الفاطمى فحسب .

● ازدهار نيسابور :

هذه المؤسسات ، وعنها انبثقت المدرسة النظامية فى بغداد بطريقة فورية ومباشرة ، كانت تزدهر فى عاصمة سياسية أخرى من عواصم المشرق ، حيث يغلى روح أكثر تفتحا لكل أنواع المعرفة ، وأرحب فكرا وتفكيرا ، وأعظم ثقافة ، وألمع عبقرية ، وأوضح

---

(١) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٣٤٧ - ٣٧٠ .

● يبدو أن هذه الكلية ، كما يفهم من كلام المؤلف غير دار الحكمة التى أشرنا إليها من قبل . « المترجم » .

حيوية ، وأشد لطفا ، من بين كل ما يمكن أن يزهو به الإسلام بين معتنقيه : إنه الروح الفارسى ، والمدينة نيسابور ، عاصمة كل خراسان حينذاك ، وفيها قبل خمسين عاما من إنشاء المدرسة النظامية ، دارت فى رأس ولى تصورات كانت الطراز الحى الذى جرى تقليده ، دون أدنى شك ، فى عاصمة الخلافة العباسية .

يمكن أن تقارن نيسابور فى نهاية القرن الرابع الهجرى من حيث السكان، أوالصناعة ، أو الثقافة ، لا مع بغداد الملاذ المقدس لأسرة بنى العباس القديمة ، وكانت أطلالا وفى دور الاحتضار ، وإنما مع القاهرة حيث بلاط الفاطميين اللامع ، وقد قامت نيسابور فى واد فسيح تغطيه الحدائق النضرة ، يرويها العديد من السواقى ، وبعضها يتدفق ماؤها تحت الأرض ، ليبقى نقيا ويمد السكان بما يحتاجون إليه ، وكانت يومها أوسع مساحة من القاهرة ، وأكثر سكانا من بغداد ، وأجمل من البصرة ، وتفوق القيروان فى رقعتها ، وتزهو بمسجدها الكبير ، وبزخارفها الرائعة ، وزينتها العربية المذهبة ، وأنفقوا عليها بفن وسخاء[١] ، وفيها ترن أصوات الخطباء البلغاء ، نافقة الأسواق ، عامرة بالفنادق والخانات ، إليها تشد الرحال من كل بلاد العالم الإسلامى والمسيحى والبوذى للحصول على الأقمشة القطنية التى تنسج فى مصانعها ، وعلى الحرير والجلود وغيرها[٢] .

وأثنى المقدسى على خلواتها الفخيمة التى أقيمت هناك ليعيش فيها الصوفية المسلمون ، وأوقف الخيرون عليها أملاكا واسعة للإنفاق منها[٣] ، وكان عدد الخطباء فيها يفوق ما يوجد منهم فى أى مكان آخر[٤] ، وكذلك الأشخاص المتعلمون الذين يسكنون فيها . وكان كل فقيه وعالم توحيد فى المدينة أديبا ، ويبحثون ويناقشون فى حلقات الدرس ، وأخذ الشعب تحركه الخلافات بين الشيعة بحظه من الحوار فى المسائل العلمية والدينية[٥] . وفاضت المدينة بأعداد من الناس ينتمون إلى العديد من الأديان والفرق ، إسلامية وغير إسلامية ، من الشيعة والكرامية[٦] والمعتزلة[٧] ، إلى جانب فرق أخرى من أهل السنة

---

(١) يمكن الرجوع فى هذه الأشياء إلى ملحق سفر نامه وسنشير إليه فيما بعد ، هامش رقم ٢٠ ، وفى أمكنة عديدة من المقدسى .

(٢) الإصطخرى ، ص ٢٥٥ .

(٣) المقدسى ، ص ٣٤٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣١٦ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٣١٤ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٣٢٣ .

وغيرهم ، إلى آخرين يذهبون إلى النهاية تطرفا فى الجانبين ، أشخاص حكماء أو يمثلون فاجعة بالنسبة إلى الدين ، وأخيرا يؤكد المقدسى مدافعا أن الدراسة كانت مزدهرة فى المدينة ، وأن بها مدارس[1] .

● المدارس فى نيسابور :

هذه الجملة التى رواها لنا المقدسى الرحالة الشهير ، وهو يحدثنا عن انطباعاته وقد زار المدينة ، يمكن أن نفسر على أنحاء مختلفة ، أو أن تقبل إجمالا ، ولا تتصل بموضوعنا على التحديد ، كما حدث فى أمكنة أخرى كثيرة يشير فيها إلى مرو وبعض مدن المشرق ، ولكن لا يمكن الشك فى شواهد أخرى تشير نصا إلى وجود المدارس والكليات فى نيسابور قبل أن تولد المدرسة النظامية بنصف قرن تقريبا ، ويمكن أن نشير بالتحديد من بينها إلى ثلاثة :

● **مدرسة نيسابور** ، وأنشئت فى نهاية القرن الرابع الهجرى ، أو فى مطلع الخامس ، وعلى التأكيد قبل عام ٤٠٦هـ ، وأنشئت **لابن فورق الأصفهاني** ، عالم الكلام الشهير ، والداعية المرموق والأديب المتميز ، والنحوى المتعمق ، وقد دعاه أهل نيسابور إلى مدينتهم ، فى طريق عودته من الرحلة التى قام بها إلى الرى ، حيث أساء المراطقة معاملته ، ويقول **ابن خلكان** إنهم كانوا يدرسون فى هذه المدرسة العلوم المختلفة ، وبخاصة التوحيد والفقه ، وأقيم فى جانب منها بيت لسكنى الأستاذ **ابن فورك** ، وكان رئيس المدرسة ، واشتهر بمؤلفاته فى الفقه والتوحيد والقراءات القرآنية وغيرها ، وذاعت كتبه فى كل العالم الإسلامى وكان إلى جانب هذا خطيبا مفوها ، ومجادلا مقتدرا ، وله مجادلات مشهورة مع الفرق الدينية الأخرى ، بلغت الذروة شدة وقوة مع الكرامية بخاصة ، ومات ابن فورك مسموما يعبق بأريج الولاية عام ٤٠٦هـ[2] .

لدينا ، إذن ، أخبار دقيقة عن أول مدرسة أقيمت فى نيسابور لعالم أشعرى ، للدفاع عن مذهب الأشاعرة ولتدريس الفقه وعلم التوحيد على المذهب الشافعى[3] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣١٤ .

(٢) ابن خلكان ، جـ ٢ ص ٢٧٩ – ٢٨٠ ، والقزوينى ، جـ ٢ ص ١٩٧ .

(٣) ولو أن ابن خلكان والقزوينى فى ترجمتهما لابن فورك لا يقولان بأنه من الشافعية أو غيرهم ، ولكن لا يمكن الشك فى أنه من علماء هذا المذهب ، لأننا نعرف كبار تلاميذه فى المدينة ، وأنهم من الشافعية ، مثل أبى القاسم القشيرى وآخرين . ابن خلكان ، جـ ١ ص ٥٣٧ .

● وأقيمت **المدرسة الثانية** للعالم الذى طبقت شهرته كل العراق وخراسان ، وأعنى به **أبا اسحاق الإسفرائينى** ، ويعرف باسم ركن الدين ، وكان يدرس علم الكلام تبعا لمذهب الأشاعرة ، والفقه والعقيدة على مذهب الشافعية ، وأحد الأساتذة الكبار الذين عمرت بهم المدينة ، ويمكن أن نذكر من بينهم : أبا الطيب ، وأبا القاسم القشيرى ، وأبا بكر البيهقى ، ونعرف عن هذا الأخير أن كان يقرىء فى المدرسة نفسها مؤلفات أستاذه ، وتضم باختصار العقائد ، والرد على الهراطقة .

وقد توفى **الإسفرائينى** فى نيسابور عام ٤١٨هـ ، ومن ثم يمكن الظن أنه أنشأ مدرسته فى مطلع القرن الخامس الهجرى ، أى قبل موته ، وقبل قيام المدرسة النظامية فى بغداد بأربعين عاما على وجه التقريب .

● أما **المدرسة الثالثة** فقد روى لنا أخبارها الرحالة الفارسى الشهير ناصرى خسرو ، فى الرواية التى تركها لنا عن رحلاته فى المشرق ، وقام بها فى مطلع الثلث الثانى من القرن الخامس الهجرى ، يقول : « نيسابور محل إقامة عاهل العصر (عام ١٠٤٦م) السلطان طغرل بك شقيق محمد ، وقد أمر السلطان بأن تقام مدرسة فى هذه المدينة ، قرب سوق السراجين ، وكان العمل يجرى بها حينئذ »(١) .

ومن خلال الأخبار التى أوردها شهاد بأعينهم ، ورأوا الأحداث بأشخاصهم ، نعرف أكيدا أن هذه المدرسة جاءت تالية للمدرستين اللتين أشرنا إليهما من قبل ، وتسبق كلها المدرسة النظامية فى بغداد بأربعة ،أو خمسة عشر عاما .

والنتيجة التى انتهينا إليها أن **نيسابور** بدأت عادة إنشاء المؤسسات الملكية للتعليم العالى ، لتدريس العقائد والتوحيد والفقه وغيرها ، قبل أن يوحى أبو سعيد الصوفى إلى نظام الملك بفكرة إنشاء مدرسة بغداد .

ومن جهة أخرى لم تجىء المدرسة النظامية فى بغداد وحيدة وإنما صحبها فى الوقت نفسه قيام مدارس أخرى أسسها الوزير الفارسى فى عدد من مدن الإمبراطورية(٢) ، أخوة

---

(١) انظر سفر نامه ، وهى رحلة قام بها ناصر خسرو فى سورية وفلسطين ومصر والجزيرة العربية ، فى أعوام ٤٣٧ - ٤٤٤ (١٠٣٥ - ١٠٤٢) ترجمة وتعليق شارل شفيه ، باريس ١٨٨١م .

(٢) ويقول ابن الأثير أن نظام الملك أمر بإنشاء عدد من المدارس فى كل المدن والأقاليم ، وخصها بقدر كبير من دخل الدولة ١٠/١٤١ .

توائم لتلك ، ولها نفس طبيعتها ، لأنها تخصصت أيضا فى تدريس الفقه والتوحيد طبقا للمذهب الشافعى ، وتحمل الاسم نفسه ، فأنشئت المدرسة النظامية فى **نيسابور**(١) ، والنظامية فى **الحيرة**(٢) والنظامية فى أصفهان(٣) والنظامية فى مرو(٤) ، والنظامية فى الموصل(٥) ، وحتى ربما المدرسة النظامية فى طهر(٦) ، مدينة هذه تقع فى أقاصى الشمال على مقربة من حدود سيبيريا تقريبا .

وكلهن بنات مدرسة نيسابور ، ونستنتج ذلك من أدلة واضحة تحيط بأصل المدرسة النظامية فى بغداد ، والتى يمكن اعتبارها الأخت الكبرى بينهن .

وطبقا لما أخبرنا به **القزوينى** ، فإن فكرة إنشاء المدرسة النظامية فى بغداد طرأت على ذهن **نظام الملك** ، وهو فى مدينة نيسابور ، فعندما دخل المدينة مر بباب أحد المساجد ، ورأى مجموعة من طلاب الفقه وعلم الكلام ، فقراء وفى ملابس رثة ، لم يحيوه ، ولم يقدموا له أيا من فروض الاحترام عندما مر بهم ، فتعجب من هذا ، وسأل وزير نظام الملك عمن يكون هؤلاء ، فأجابه الوزير : أنهم قوم على قدر كبير من الذكاء العقلى ، ولكن تنقصهم الثروة وما يعينهم على الحياة المريحة فى هذا العالم ، وملابسهم التى يرتدونها تنبىء عن فقرهم . وعرف نظام الملك أن كلماته مست شغاف قلب الملك ، واستمالته إلى جانب هؤلاء الطلاب الفقراء ، فأضاف : وإذا سمح لى السلطان يمكن أن تقيم لهم مبنى تزوده بما هو ضرورى لكى يعيشوا فيه ، ومن ثم يمكن أن ينصرفوا كلية إلى الدرس والصلاة ، والدعاة للسلطان بالصحة وطول العمر ، وسوف يصنعون ذلك بنفس رضية . وأظهر السلطان موافقته ، واستغل نظام الملك استعداد السلطان وقبوله الفكرة فأصدر أمره بأن تقام المدارس فى كل أنحاء الدولة ... وكان هو الذى أدخل هذه العادة المحمودة !(٧) .

---

(١) ابن خلكان ، ٢٤٩/٢ ، وياقوت ٥٦١/٣ ، والقزوينى ٢٣٦/٢ .
(٢) ابن خلكان ٢٤٩/٢ ، وابن الأثير ١٤٨/٢ .
(٣) ابن الأثير ٣٥/١٠ ، ٢٥١ ، والقزوينى ٢٧٦/٢ ، وابن خلكان ٨٣/١ .
(٤) ياقوت ٣٢٢/٤ و٥٠٩ .
(٥) ابن الأثير ٤٠٥/٢ .
(٦) القزوينى ٤٠٥/٢ .
(٧) القزوينى ، جـ ٢ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

● شواهد على سبق نيسابور :

أما أن النظامية ، وهى النموذج الذى سارت على نهجه كل المدارس التى جاءت بعدها ، كان عمل أشخاص فارسيين ، ومن رجال تعلموا فى مدرسة نيسابور بخاصة ، فشواهدنا عليه بينة ، ويمكن ملاحظتها من الوقائع التالية :

● كان بيت المال الإدارة الفارسية مصدر الأموال التى استخدمت فى البناء ، وليس خزانة العباسية فى بغداد[1] .

● صاحب المدرسة العلمانى ، ومؤسسها ، الوزير **نظام الملك** ، فى مدينة طوس أصلا ، إحدى المدن الصغيرة القريبة من نيسابور[2] .

● وكبير المدرسة الدينى ، الذى أوحى بالخطة ، ونفذ البناء ، ونظم المدرسة ، أبو العباس الصوفى ، شيخ الطريقة ، من نيسابور أصلا[3] .

● أشهر الأساتذة وأميزهم فى الجامعة ، فى أروع فترة من حياتها ، وازدهرت خلال القرن الأول لتأسيسها ، جاءوا من فارس ، ومن مدارس نيسابور ، ويمكن أن نذكر بعض الأسماء : كان **أبو اسحاق الشيرازى** ، وعينه نظام الملك أول رئيس لها لكى يوجه الدراسة فيها ، فارسيا من شيراز[4] ، **وأبو سعد المتاولى** وخلف سابقه ، وكان بغداديًا فرضه الطلاب ، من نيسابور أيضا[5] ، وفيها تولى التدريس **الإمام الغزالى** الشهير ، وتعدل شهرته فى العالم الإسلامى شهرة **توماس الإكوينى** فى العالم الغربى ومن أشهر العلماء بين المسلمين ، ووجه التعليم فى المدرسة النظامية فى بغداد زمنا ، من قرية متواضعة فى ضواحى نيسابور ، وتلميذا للعلامة الذائع الصيت : **أمام الحرمين أبو المعالى يوسف الجوينى** ، أول أستاذ فى المدرسة النظامية فى نيسابور[6] . **وأحمد أخو الإمام الغزالى** وخلفه فى رئاسة المدرسة النظامية البغدادية ، تعلم فى نيسابور ، **وأبو الحسن الطبرى** ،

---

(١) سراج الملوك للطرطوشى ، ص ١٢٨ – ١٢٩ . والقزوينى ٢٧٥/٢ .
(٢) ابن خلكان ٢٥٥/١ .
(٣) القزوينى ٢٤١/٢ ، وابن الأثير ١٠٥/١٠ .
(٤) ابن خلكان ٦/١ .
(٥) ابن خلكان ٢٤٨/٢ ، والقزوينى ٢٣٦/٢ .
(٦) ابن خلكان ٤٩٦/١ .

ويعرف باسم الكيا الهرسي ، وخلف الغزاليين ، درس في نيسابور ، وكان مثل هذين تلميذا لإمام الحرمين ، الأستاذ فى نظامية نيسابور على ما أشرنا[1] ، ومئات غير هؤلاء .

وباختصار فإن شهرة المدرسة النظامية فى بغداد تعود إلى مكانة نيسابور العلمية ، وكانت تلك فى أعصرها الأولى فرعا لهذه ، وصدى لها ، لأنهم وضعوا على رأس النظامية فى نيسابور أمام الحرمين رئيسا للتعليم فيها ،وكان أشهر الأساتذة على أيامه[2] ، وعلى يديه تخرج ألمع الأساتذة فى بغداد فى علوم العقيدة والأخلاق .

وإذا لم يكن ما قلت كافيا وزيادة ، يمكن أن نضيف إليه أسماء كبار الدعاة من رجال الطرق الصوفية ، وكانوا يضطلعون بإلقاء المحاضرات العامة فى المدرسة نفسها ، وكان أبو نصر القشيرى بن أبى القاسم القشيرى واعظ خراسان المصقع الواعظ الأول فى المدرسة النظامية فى بغداد وجاءها بدعوة من الشيرازى كبير علمائها ، وتعلم القشيرى فى مدرسة نيسابور على نحو ماأشرنا من قبل ، وتلقى العلم على إمام الحرمين فيها ، وجاءها وعاظ آخرون من نيسابور[3] .

وألقى الهمدانى الشهير دروسه فى المدرسة النظامية فى بغداد ، وكان قبلها رئيس خلوة فى خراسان ، حيث تنتشر طريقته ، ولها أتباع كثيرون[4] . وفيها عمل شرف الدين الشهرستانى ، الواعظ الشهير ، وهو من أصل فارسى ، ودرس فى نيسابور ، وغيرهم كثير[5] .

ولكن ذلك لا يعنى أن التعليم فى المدرسة النظامية فى بغداد كان على النمط نفسه الذى يجرى عليه فى مدارس نيسابور مذاهب وطرائق فقد كانت هذه تسير على المذهب الشافعى فى دراستها فقها وعقائد ، على حين كان يتولى التدريس فى نظامية بغداد الحنابلة من رجال البلاط فى خلافة بنى العباس ، ويقول المقدسى : إن المذهب الحنبلى كان السائد فى بغداد ، ومنهم كانت حاشية الخليفة[6] .

---

(١) ابن خلكان ٥٨٧/١ .

(٢) ابن خلكان ، ٥٨٧/١

(٣) المصدر السابق ، ٥١٤/١ .

(٤) المصدر السابق ٥٣٨/١ .

(٥) المصدر نفسه ٤٢٥/٣ .

(٦) ياقوت ٣٤٣/٣/٣ . ولم نتحدث عن أولئك الذين عملوا فى المدرسة فى أيامها الأولى كوعاظ ، ولكن معلوماتنا عنهم محدودة .

وفيما يتصل بالعقيدة كانت مدرسة نيسابور ، فيما يبدو ، تتبع المذهب الأشعرى فى علم التوحيد ، وبخاصة مذهب إمام الحرمين ، وفى مجال التصوف تحتذى خطى الطرق الدينية الفارسية ، وكلاهما يعتبره الحنابلة فى بغداد هرطقة ، وجاء وقت لم تكن فيه المدارس البغدادية تدرس غير المختصرات التى كتبها أساتذة مدرسة نيسابور فى علم الكلام ، ويمكن أن يقال إنها كانت تكون مادة الدراسة الأولى . وإلى ذلك العصر يشير ابن خلدون حين يقول : كل الذين ألفوا فى أصول الفقه ، وتميزوا فى المذهب الأشعرى فى العالم الإسلامى كانوا من الفرس[1] .

ولم يكن ما يتصل بالمدرسة النظامية حالة منعزلة ، ولا التأثير الفارسى فى بلاط بنى العباس شيئا جديدا فى ذلك الوقت ، فمنذ أيام الإسلام الأولى تحضر العرب باختلاطهم بالفرس والبيزنطيين[2] .

ولكن كيف ظهرت فكرة بناء المدارس فى نيسابور ؟ يجب أن أصرح ، ونحن نعود إلى نقطة البحث عن الأصول الأولى للمدارس الإسلامية ، أن خطاها ليست مؤكدة ، وأن الشواهد أقل فى كل مرة ، فهل وصلنا إلى المرحلة التى تختفى فيها الحقيقة تحت الأرض ، ووراء صمت هادف قصده الذين أنشأوها ، لأن تقليد العدو ، أو المخالف فى الجنس ، أمر قلما نعترف به ؟ .

فلنحاول أن نلتقط الخيط .

● فرقة الكرامية :

تصف لنا الأخبار التى وصلتنا عن ذلك الداعية الأشعرى الملتهب حماسة ، **ابن فورك** ، ومن أجله أسست المدرسة الأولى فى نيسابور وأشرنا إليها من قبل ، بأنه أمضى حياته يتنقل من مدينة إلى مدينة ، ومن قرية إلى قرية يجادل الهراطقة وأصحاب المذاهب المخالفة ، ويوقظ حمية النائمين والغافلين ، وإحدى الفرق التى إلتقى معها فى موقعة أكثر التهابا ، وأشد إثارة ، كان الكرامية فمن هم هؤلاء ؟ .

يكفى أن نعرف فيما يتصل بموضوعنا الآن أنهم إحدى الفرق الإسلامية التى تكونت فى القرن الرابع الهجرى ، وتمتعت بهيبة كبيرة ، وتأصلت فى فرغانة وخراسان ،

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، الترجمة الفرنسية ، طبعة دى سلان ، جـ ٣ ص ٢٩٦ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٤١٤ ، جـ ٢ ص ٢٧٤ .

وجرجان ، وطبرستان ، وما وراء النهر ، وغزنة ، ومدن وبلاد أخرى فى الإمبراطورية الإسلامية ، التى تجاور حدود الهند ، و على مقربة من بلاد الترك[1] . وقد شدت إليهم تقواهم الملتهبة ، ومظهرهم المتواضع ، وفقرهم الشديد ، إعجاب الجانب الأكبر من الناس ، وتميزوا بتشيعهم وتعصبهم الدينى ، وكان هذا يدفعهم إلى الجدل والكفاح المستمر مع الفرق الأخرى . واتخذ هذا الحوار شكل صراع دموى فى جرجان[2] ، والتهب فى غزنة ، وأخذ شكلا حادا فى نيسابور نفسها[3] .

وتميزت هذه الفرقة الإسلامية بخاصية ملحوظة ، إذ كان الكثير من أتباعها يعيشون حياة زاهدة ، ويقيمون فى خلوات شيدت لذلك ، وفى نهاية القرن الرابع الهجرى ، وهو عصر يهمنا معرفته ، كانوا يملكون زوايا لا تحصى فى فرغانة ، وهيطل وسمرقند ، وديار بكر ، وجرجان ، وطبرستان ، وحتى فى بيت المقدس ، وفى القاهرة ، حيث يسكنون من الفسطاط حيا خاصا بهم فيما يبدو[4] . وفى هذه الزوايا تعودوا أن تكون لهم مدارسهم ، ويدرسون فيها العقائد بصفة خاصة ، ويذكر **الرحالة المقدسى** ، **وأمدنا بمعلومات وفيرة عنهم** ، **أنه قرأ بعض كتب** الكرامية فى مدينة نيسابور نفسها[5] ، وأن بعض مدارس الكرامية قامت فى المدينة ، طبقا لما نستنتجه من شهادة المؤرخ الشهير **ابن الأثير** ، فهو يمدنا بمعلومات تؤكد ، فيما نعتقد ، بوجود مدارس للكرامية فى نيسابور فى أيام خلت ، وذلك عندما يشير إلى الأحداث التى جرت عام ٤٨٨هـ ، فهو يذكر أن اصطداما عنيفا وقع فى المدينة بين الكرامية من جانب ، والشافعية والأحناف من جانب آخر ، وأدى هذا الاصطدام الدموى إلى مصرع عدد كبير من الجانبين المتصارعين ، ولكن النصر كان حليف أهل السنة ممثلين فى الشافعية والأحناف ، وخلال موجة الغضب قام هؤلاء بتدمير مدارس الكرامية[6] .

ألا يمكن إذن أن نفترض أن المدرسة التى أسست **لابن فورك** المجادل ، وقاتل بعنف ضد الكرامية ، أقيمت على هيئة المدارس التى كانت قائمة فى زوايا أعدائهم ؟ . ذلك

(١) المقدسى ، ص ٣٧ ، ٣٢٣ ، ٣٥٦ وغيرها .
(٢) نفس المصدر ، ٣٧ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٣٣٦ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٢٥ ، ١٧٩ ، ٢٠٢ ، ٣٣٢ ، ٣٦٥ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٣٧ ، ١٧٩ .
(٦) ابن الأثير ، ١٠/١٧١ .

شيء واضح فيما أرى ويتجلى في طابع المدارس السنية ، وكان الصوفية يوجهونها ، ويمدونها بالوعاظ « والفقراء إلى الله تعالى » ، وبعد كل هذا فإن عقائد الكرامية دخلت في مواد التعليم التي كانت تدرس للطلاب في المدرسة النظامية في بغداد ، للإفادة منها على الأقل ، ولو سلبيا ، في نقدها ووقوفها ضد الفلاسفة ، وكان الإمام الغزالي يقوم على تدريسها ، واستخدم ذلك في كتابه « تهافت الفلاسفة »[1] . وفي ضوء ما سبق يمكن أن نفسر كيف أن أهل السنة كانت لهم مصلحة في إخفاء تقليدهم لنظم التعليم عند الفرق التي رموها بالزندقة والثورة .

ويبقى السؤال قائما : من أين جاءت مدارس الكرامية ؟ . عندما نصل إلى هذه النقطة من البحث يصبح من الصعب علينا أن نجمل في كلمات قليلة ما هو كاف للإقناع ، لأن من الضروري أن نقف طويلا عند الأخبار الدقيقة التي وردت عن المؤسسات التعليمية التي احتفظت بها تلك المناطق ، لا في مدينة نيسابور فحسب ، ولا حتى في مدينة خراسان وحدها ، لأن تأثير الكرامية شغل مساحة واسعة جدا ، وامتد إلى مناطق عديدة ، وليس بوسعي أن أحدد ، ولو ظنا ، متى ، وأين قد أقاموا مدارسهم هذه في زواياهم ، ولكن إذا تتبعنا استخدام كلمة مدرسة ومدرس ، وهي مشتقة من الفعل درس ، وجدنا أنها ألفاظ ترتبط بالفكرة الجديدة ، ولا تشير إلى ما هو تقليدي في معاهد الإسلام القديمة ، وكان الأستاذ فيها يحمل اسم مقرىء ، إذا كان يدرس القرآن ، ومحدث إذا كان يعلم السنة ، أو يطلق عليه اسم أكثر شمولا وهو شيخ أو أستاذ ، وهذه كلمة فارسية ، أو معلم[2] . أما كلمة مدرس فكانت تطلق على الأستاذ الذي يدرس الفقه أو العقيدة ، ويدعم ما يقول بشواهد وأسباب عقلية أو فلسفية في درسه ، على نحو ما كان يحدث في مدارس المشرق المسيحية واليهودية ، وفيها كان يدرسون الفلسفة الإغريقية . وفيما أرى فإن اسم مدرسة كان يطلق على معنى محدد ، وهو ما تعنيه الكلمة الإغريقية

---

(١) الغزالي ، تهافت الفلاسفة ، ص ٥ ، طبعة بولاق .

(٢) من اللافت للنظر أنني كنت ضمن بعثة من أساتذة الجامعات المصرية ، أرسلتها الحكومة المصرية عام ١٩٦٨ إلى الجزائر ، لتعريب التعليم في جامعات الجزائر ، وكان فرنسيا ، بناء على طلب حكومة الجزائر ، ووقع على عاتقي تعريب شهادة الأدب المقارن في قسم اللغة العربية ، في كلية الآداب بجامعة الجزائر العاصمة ، ولفت نظري من اليوم الأول أن كلمة درس ومدرس لا وجود لهما في معجم الناس ، في الجامعة ، أو خارجها ، إلا إذا كانوا قد تعلموا في المشرق أو أقاموا فيه مدة طويلة ، أما الفعل الذائع بينهم فهو : قرأ ، فالطالب يقرأ ، والأستاذ يقرىء ، ويستخدمان للكتاب في القرية ، والكلية في الجامعة على السواء . بقي أن أسجل للتاريخ ، أن كل الذين كانوا يقومون بمهمة التعريب بدءا بمدرس الابتدائي وانتهاء بأستاذ الجامعة كانوا يقبضون رواتبهم من مصر . « المترجم » .

Escola واحتفظ بها النسطوريون للمنظمات التعليمية فى أديرتهم ، وبالنسبة إلى العصر الذى سبق انشاء مدارس نيسابور مباشرة ، أو عاصرها ، لدينا شواهد عديدة لا يمكن إنكارها على وجود المدارس المسيحية فى المشرق ، ويمكن العودة من هذا إلى نص أبى الفرج الملطى مثلا ، وهو مؤرخ عربى من النسطوريين ، فى كتابه « مختصر تاريخ الدول » ، حيث يذكر أن النسطورى **متى بن يونس** ، أشهر علماء المنطق على أيامه ، ولمع فى بغداد على أيام خلافة الراضى ، أعوام ٣٢٠ - ٣٣٠هـ ، تعلم فى إحدى مدارس الرهبان المسيحيين اليعقوبيين ، واستخدم فى تعبيره الكلمة الإغريقية Escola[1] ومن جانب آخر ، فإن حياة الزوايا الإسلامية ، وقواعد الطرق الصوفية ، تشبه - طبقا لكل الظواهر - القواعد المسيحية للمذاهب الشرقية ، ومن ثم يمكن أن نجمع حلقة إلى حلقة ، فى سلسلة تربط كل التقاليد .

* * *

ونمضى مع الأمر لنقف عند البذرة الأولى لكل منظمات التعليم ، ولو أن الطريق فيها يمضى عبر طرق ملتوية ، وخفية ، ولا تعلو إلى السطح دائما ، وتمثل فى ذلك الشعب السامى الذى بلغ هذا القدر من سمو الفكر بقوة العقل ، والتصويت الحر ، وجمع بين أشد الفرق تعارضا ، وأقوى علماء العقائد اختلافا ، وبين كل الأديان التى تمارسها أرقى الشعوب حضارة على وجه البسيطة ، وكل هؤلاء يجدون أنفسهم فى حاجة لأن يهرعوا إليه ليفسر لهم عقائدهم ، وتبقى الفلسفة الإغريقية فى العمق : مددا لا ينفد ، وضوءا لا يخمد ، وتلك هى فضيلة العلم الجاد النزيه .

فى عبادة هذا العلم بدأ الرجل الشهير ، قدوة الأساتذة ، ولى شرف أن أهدى إليه هذه الدراسة ، وليست إلا « عينة » كيمائية ، وصورة جانبية ، لإحساس أكبر عمقا وجلالا وفهما ، وفيه أقيم الأمل على طهارتى العلمية ، إذا استطعت بفضل الله أن أحقق يوما شيئا منها ، ولقد انتويت منذ البدء ، وحملت نيتى فى أعماقى ، على أن أقدمه شاهدا على عرفانى وتقديرى للأستاذ الذى تهدى إليه هذه الدراسات .

(١) طبعة بيروت ، ص ٢٥٨ .

فهرس الكتاب

كتب أخرى للمترجم

- امرؤ القيس : حياته وشعره
الطبعة السادسة ، دار المعارف ١٩٩٢
- دراسة فى مصادر الأدب
الطبعة السابعة ، دار المعارف ١٩٩٢
- مع شعراء الأندلس والمتنبى
ترجمة لكتاب المستشرق الإسبانى إميليو غرسية غومث
الطبعة الخامسة ، دار المعارف ١٩٩٢
- بابلو نيرودا : شاعر الحب والنضال
دار روز اليوسف ١٩٧٤ (نفد ويعاد طبعه الآن)
- دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة
الطبعة الرابعة ، دار المعارف ١٩٩٣
- القصة القصيرة : دراسة ومختارات
الطبعة الخامسة ، دار المعارف ١٩٩٢
- الشعر العربى المعاصر : روائعه ومدخل لقراءته
الطبعة الرابعة ، دار المعارف ١٩٩٠
- دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة
الطبعة الرابعة ، دار المعارف ١٩٨٧
- الحضارة العربية فى إسبانيا وصقلية
ترجمة لكتاب المستشرق الفرنسى لبفى بروفنسال
الطبعة الثالثة ، دار المعارف ١٩٩٤
- ملحمة السيد ، دراسة مقارنة
الطبعة الثالثة ، دار المعارف ١٩٨٥

- **الفن العربى فى اسبانيا وصقلية**
ترجمة لكتاب المستشرق الألمانى فون شاك
الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٨٥

- **الأخلاق والسير فى مداواة النفوس لابن حزم (تحقيق)**
الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٩٣

- **الأدب المقارن : أصوله وتطوره ومناهجه**
الطبعة الأولى ، دار المعارف ١٩٨٨

- **فى الأدب المقارن ، دراسات نظرية وتطبيقية**
الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٩٢

- **الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف**
ترجمة لكتاب المستشرق الفرنسى هنرى بيريس
الطبعة الأولى ، دار المعارف ١٩٩٠

- **الشعر العربى فى إسبانيا وصقلية** . الجزء الأول
ترجمة لكتاب المستشرق الألمانى فون شاك
الطبعة الأولى ، دار المعارف ١٩٩٠

- **مناهج البحث الأدبى**
ترجمة كتاب إنريك أندرسون
الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٩٣

تحت الطبع :

- **فلسفة تاريخ الأندلس ، أو اسبانيا بين المسلمين والمسيحيين واليهود .**
ترجمة لكتاب المستشرق الكبير أميركو كاسترو

- **الرمزية** ، ترجمة لكتاب آنا بلكاين الأستاذة فى جامعة كولومبيا فى نيويورك .

- **مقدمة فى الأدب الإسلامى المقارن .**

رقم الإيداع	١٩٩٤ / ٤٥٧٤
الترقيم الدولي	ISBN 977 - 02 - 4526 - 7

٣ / ٩٣ / ٣٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)